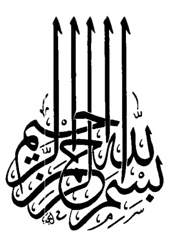
تهافت العلمانية

د. عماد الدين خليل




بسم الله الرحمن الرحيم

تهافت
العلمانية



الطبعة الأولى

1429 هـ ـ 2008 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : دراسات إسلامية

العنوان : تهافت العلمانية

التأليف : الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 240

القياس : 15×22

نوع التجليد : غلاف

الوزن : 340 غ

تصميم الغلاف : سامو برس

التنفيذ الطباعي : دار القماطي للطباعة

التجليد : مؤسسة الشرق الأوسط للتجليد



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

إلى محمد إقبال

وإلى محمد أسد

وهما يستشرفان «الطريق»

من مواقع الشرق والغرب



المقدمة

تنطلق العلمانية (Secularism) من مضطرب تحديدها القاصر، وتصورها الخاطئ لمواقع العلم والدين، أو (العقل) و(الوحي)، ومن ثم تمارس أخطاء وانحرافات خطيرة في شتى مساحات عملها ونشاطها: تجاه (الإنسان) ومعالجة وجوده، تجاه (مصيره) وصياغة هذا المصير بما ينسجم ووجوده، تجاه (حركته) من أجل تنظيم حياته وجوداً ومصيراً..

وكان لابد من عقاب قاسٍ بحضارة اعتمدت علمانية مارست أخطاء حاسمة كهذه.. وقد كان.. إذ تبدو الحضارة المعاصرة وكأنها تعاني من أمراض مزمنة. وأوبئة كاسحة تجتاح أرضها كل يوم من أقطارها الأربعة، وتنفي الأصحاء بعيداً عن مستشفاها الكبير الذي يعجُّ بمرضى العقول والأعصاب والأجساد والأرواح.. ولقد استنطقنا بعض أولئك الأصحاء المنفيين، وهم يعلنون تحذيرهم ويصبون نقمتهم، قبل أن يستحيل العالم كله إلى مستشفى، وبنو آدم كلهم إلى مرضى.. وقبل أن يستشري الوباء ويكتسح عالمنا الصغير كله!!

مؤرخ كبير من إنكلترة يدعى «أرنولد توينبي» يعرفه الجميع، وروائي كبير من رومانية يدعى (كونستانتان جيورجيو) لا يعرفه الجميع.. وناقد إنكليزي

شاب ذكي يدعى (كولن ولسون) طبقت شهرته الآفاق.. حدثونا جميعاً عن الموضوع ذاته، وأشاروا بإصبع الاتهام إلى مصدر الوباء ذاته.. وانتهى بنا المطاف أخيراً، مروراً بـ (همنغواي) الأمريكي، و(أنيس منصور) العربي الوجودي، و(آرثر كوستلر) المجري الشيوعي المرتد، إلى واحد من قلب أوروبة، يهودي مجري يدعى (ليوبولد فايس).. قرر أن يتحرر وأن يكسر الطوق ويرحل، بعيداً.. بحثاً عن وجوده ومصيره.. ركضاً وراء (حركة) يعلن انتماءه إليها، ويطمئن إلى أنها قادرة على تنظيم حياته وجوداً ومصيراً.. ولقد وجد أخيراً، بعد سنين طويلة من البحث والتنقيب والعناء، أمنيته العزيزة الغالية في (الإسلام).. هذه التجربة المعجزة في توازنها، الفذة في موقفها من الإنسان والمصير، العجيبة في حركتها صوب حضارة متوحدة متكاملة لا ينخر فيها السوس.

لكأن إسلام (ليوبولد فايس) جاء رداً حاسماً على القائلين باليأس من أولئك المتخبطين في الحلقة المفرغة.. وإعلاناً مقنعاً على قدرة الإسلام، تصوراً وحركة وسلوكاً، على استقطاب أولئك الذين يبحثون بجد وإخلاص عن توحد وجودهم ومصيرهم..

تلك هي باختصار قضية هذا الكتاب ذي الفصول السبعة التي بين أيديكم، ولا داعي - من ثم - لنضييع الوقت في المقدمات.. فما أغلى الزمن، وما أشد شوقي لأن تدخلوا الموضوع مباشرة بلا كلفة.. وبلا مقدمات!!

الموصل: عماد الدين خليل



الفصل الأول

مواقع العلم والدين

١

العلم طاقة واحدة من مجموع طاقات وهبها الله الإنسان يوم خلق الإنسان. . يفتح ابن آدم منافذه الحسية من سمع وبصر ولمس على الواقع القريب، فتنطبع في عقله صورة أو ظاهرة من هذا الواقع. ثم يتكرر فتح النوافذ وتتكرر الصور والظواهر، فينتبه إلى أن هذا التكرار لا تحكمه الصدفة وإنما يسوقه قانون له أولياته وفاعليته ونتائجه. ومن ثم يطلع العقل على الناس بنظرية هي حصيلة صور عديدة أو ظواهر شتى عرضت نفسها على الحواس مرة بعد مرة. . ثم ما تلبث هذه النظرية أن تكتسب حكم اليقين فتغدو قانوناً تنبثق عنه منجزات تجريبية وتقنية، تبدأ فجة خشنة وتتدرج نحو الأحسن والأروع. . ويجد الإنسان نفسه أخيراً أمام الأشياء الباهرة التي تطرحها عليه يوماً بعد يوم حضارة العلم والحسية والتجريب التي تمكنت بهذه الوسائل من الكشف عن جانب من قوى الكون المذخورة، واستطاعت أن تضع هذا الكشف الجزئي المحدود في صيغة نظرية مدروسة أو قانون منتج.

٢

ذلك إذاً هو مدى العلم، وتلك إذاً هي وسائله التي يحمل نفسه عليها، ومعطياته التي يطلع بها على الناس. وخلاصة الأمر أن جانباً من الإنسان، جانباً واحداً فقط، هيأ له الله سبحانه إمكانية التعامل مع ما يحيط به من ماديات في الأرض والسماء، من أجل تطوير حضارته في جانبها المادي، وابتغاء مزيد من السعادة والرفاهية والإنتاج. . هذه الإمكانيات التي تتمثل بمنافذ حسية تفتح نفسها على الخارج وتدفع إلى العقل الواعي لحظة بعد لحظة، وساعة بعد ساعة، بمجموعة من الأصوات والملموسات والأضواء، وتتيح له أن يكشف عن جانب من القانون الأكبر الذي يسيِّرُ به الخلاق

سبحانه ملكوت السموات والأرض. فكل محاولة علمية للكشف إذاً إنما هي جهود من أجل التوصل إلى إدراك مزيد من جوانب هذا القانون الإلٰهي، وبالتالي مزيد من الفهم لقدرات الخالق العظيم الذي له ملك السموات والأرض، الأمر الذي يُعَرِّف الإنسان العالم بخالقه العلام ويدفعه ـ بالمنطق السديد ـ إلى الإيمان به والإسلام له. وذلك هو المغزى العميق الذي أكد عليه القرآن الكريم عبر آيات التدبر والتفكر في الملكوت.. وقاد شعوباً وأمماً ـ عبر رحلة العقل هذه ـ من الجاهلية إلى الإسلام.

٣

هل ترون في هذا أية ثنائية بين الوسيلة والهدف؟ بين المادة والروح، وبين العقل والإيمان!.. أبداً.. فالبحث في العلم قد قادنا دون قصد إلى الله.. والحضارة التي تسعد الناس بما تطرحه من أشياء كان يجب أن تعلم الناس أيضاً الإيمان بالله.. لأن الله سبحانه هو الذي منحهم القضية ـ في جانبها هذا ـ برؤوسها الثلاثة: أرضية من طاقات مذخورة في السموات والأرض، ووسائل ذاتية تجريبية للتعامل مع هذه الأرضية، ثم قدرة على إدراك جوانب من القانون الأكبر الذي يحكم الكون.. وهذا هو الذي قاد عدداً لا يحده حصر من العلماء إلى الإذعان لأمر الله، بعدما بلغوا درجات كبيرة من البحث والتجريب.

اسمعوا (كيلر) وهو يقول: (.. كل الخليقة ليست إلا سمفونية عجيبة في مجال الروح والأفكار. كما هي في مجال الأجسام والأحياء.. كل شيء متماسك مرتبط بعرا متبادلة لا تنفصم.. كل شيء يكون كلاً متناسقاً.. إن الله قد خلقنا على صورته وأعطانا الإحساس بالتناسق.. كل ما يوجد حي متحرك، لأن كل شيء متتابع متصل.. كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس.. إن روح النجوم هي سر حركتها، وسبب ذلك الحب

الذي يربط بعضها ببعض، وتعليل ذلك النظام الذي تسير عليه الظواهر الطبيعية..).

ويتساءل (هنري بوانكاريه) في كتابه (قيمة العلم): (أيحق لنا أن نتكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون، ما دام كل جزء من أجزائه متصلاً بكل جزء برباط التضامن؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد، إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله في لحظة سلفت..).

وفي كتاب للعالم أينشتاين فصل جاء فيه: إنه يعتنق ما يسميه الديانة الكونية، تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل.. ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه، لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه أنه لا شيء!.. وقال: إن بصيرتنا الدينية هي المنبع وهي الموجه لبصيرتنا العلمية[1]...

٤

لكن الذي غطّى على هذه الأصوات ـ ويا للأسف ـ سوء التفاهم الذي يحكم الحضارة المعاصرة والذي افترض زيفاً ثنائية بين العقل والإيمان. وبين الإنسان والله.. ثنائية غير موضوعية هي وليدة ظروف صعبة شهدها تاريخ الصراع المزيف بين العقل والدين.. الصراع الذي ظل يتضخم وينتفخ حتى غدا كالكابوس الذي تضيع معه معالم الأشياء والقيم والغايات.. وقد ضاعت هذه كلها فعلاً، قبل أن يظهر صوت جاد يعلن عن زيف هذه الثنائية، ويقول بصراحة: إن العلم هو الوسيلة، أو الخطوة الأولى، في الطريق إلى الله..

(١) انظر: توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، الصفحات ٢٩ ـ ٣٠، ٧٥ ـ ٧٦، ٨٤ ـ ٨٥، وفن الأدب، ص ١٠٣.

٥

السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا هو: لماذا لم يهيئ الله سبحانه للإنسان يوم خلقه رؤية مباشرة للقانون الذي يسير بموجبه السموات والأرض، فيتيح له بهذا سرعة مذهلة في إنجاز الأشياء دون تعب أو عناء؟ يقيناً أن الجواب على هذا السؤال سيتقدم بنا خطوات إلى الأمام، سينأى بنا عن دائرة العقل والحس واليقين المادي، إلى دائرة أوسع تضم الروح والقلب والوجدان، ثم تبعد بنا وتتسع فتضم الغيب وما وراء الحس، بعيداً عن الرؤية المباشرة للأشياء.. فكما أن العلم يقود حتماً إلى الإيمان، فإن أية مناقشة حول العلم تقود هي الأخرى إلى دوائر أوسع من مدى العلم والحس إذا ما أراد السائل فعلاً أن يجد الجواب.. لماذا لم يطلع الله الإنسان على القانون الطبيعي الشامل الذي يحكم السموات والأرض؟ إذ ما من شك في أن الاطلاع المباشر هذا سوف يقفز بالإنسان خطوات عملاقة في تعامله مع الأرضية الكونية، وفي إنجازه أشياء حضارية تفوق الخيال.. لقد حدث هذا مرة أو مرتين عندما هيأ الله سبحانه لبعض أنبيائه ـ سليمان عليه السلام مثلاً ـ الاطلاع على جوانب واسعة من هذا القانون، فشهد ملكه معجزات تُرْبك العقل وتحيره.. وما هي في الحقيقة بمعجزات، إنما هو الكشف عن جانب أكبر من القانون الطبيعي أتاح لهذا الملك الأواب أن يسخر طاقات الأرض لصنع هذه العجائب.. فلماذا لا يتاح لكل إنسان هذا المصير العظيم؟ ولماذا لا تشهد الأرض فعلاً ذلك البطل الذي ابتكره خيال جيته باسم (فاوست)؟.

٦

هنا ننتقل إلى دائرة القيم والأخلاق، دائرة الإنسان من حيث هو إنسان يحتوي فيما يحتوي على قيم وطاقات تفوق بكثير مدى العقل والحواس الخمس.

ومن ثم فلابد من المقارنة بين هذه الطاقات جميعاً لكي نستطيع إدراك الجواب، ترى.. لو أعطي الإنسان ـ يوم خلقه ـ المفتاح الذي يدخل به مباشرة إلى ساحة الطبيعة، فيدرك قوانينها دون عناء، ويقفز إلى الحضارة الخارجية بلا تدرج أو تطور، أكان يشهد التاريخ البشري هذه الجهود العظيمة، وتلك المحاولات الدائبة، وذلك التشبث والسعي صوب الكشف والتحضير؟ أكان يمكن أن يكون للبشرية تاريخ أساساً؟ وما هو دور العقل إذاً إذا كان بإمكان العين أن ترى القانون الأكبر، والأذن أن تسمعه، واليد أن تلمسه؟ وما هو ـ وهذا هو الأهم ـ دور الإرادة الإنسانية التي ركزها الله في الإنسان، والطاقات التي ألحقها بها كي يكون للإنسان إمكانية التصدي للغموض الطبيعي والحواجز الطبيعية؟ ولماذا ـ إذاً ـ جعل الله سبحانه في الأرض هذه المشاكل والتعقيدات والصعوبات الطبيعية؟ أفيمكن دون أن يستثير الله سبحانه عنصر التحدي الإرادي بين الطبيعة والإنسان، أن تكون هناك محاولة جادة لاستخدام العقل والإرادة، والتغلب على الغموض والتعقيد، ومن ثم التقدم والتحضر؟ ثم، أكانت هناك حضارة في تاريخ البشرية لم يسهم في بعثها إلى الوجود هذا التحدي الأبدي بين الطبيعة والإنسان؟

٧

أخلاقية الوجود الإنساني على الأرض تقتضي هذا الحوار العجيب بين الطبيعة والإنسان. هو يسأل، وهي تتمنع عن الإجابة، وهو يسعى إليها هادئاً مرتاحاً، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي إليه بكنوزها.

معنى هذا أن على الإنسان أن يرفض الكسل والقعود، أن يتخلى عن السعي الهادئ المطمئن إلى رزقه وتأمين حياته وإحاطة وجوده على الأرض بالضمانات. ماذا عليه إذاً؟ عليه ـ كما أراد الله سبحانه له ـ أن يمشي ويتحرك، أن يكدح ويجد، أن يستخدم كل الطاقات التي وهبها إياه من

أجل تحقيق هذا الهدف، أن ترد الطبيعة على جوابه وتسلم إليه القياد.

في القرآن الكريم مئات الآيات والعلامات تنفخ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم، وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلا بالسعي والكدح والحركة.

من أجل هذا أيضاً كان الإسلام ـ خاتم الرسالات ومصدقها ـ دعوة حركية على هذا النطاق، كما هو دعوة حركية على النطاق الأكبر، نطاق العقيدة والدين والمنهج.. حركة الإنسان والشعوب والأمم من الظلام إلى النور، من الجهل والتخلف إلى العلم والتحضر، من النظرة المسترخية الكسولة للطبيعة والأشياء إلى التمعن المتوتر النشيط للطبيعية والأشياء، هذه الحركة التي يطلب القرآن أن تكون متفجرة أبداً، لا تكل ولا تمل..

ثم يطلب منها، وهذا هو الإعجاز العظيم، ألا تقصر سعيها على مدى الأرض، ويعلمها أن وطن الإنسان ليست الأرض فحسب، بل الكون كله.. وكما أنه يدعوه للحركة العقائدية في نطاق الكون كله، فكذلك يطلب أن تكون حركته العقلية في نطاق الكون كله. فالأرض جزء من الكون، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون، والله سبحانه، خالق القوانين والأوضاع والإنسان، هو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه!! ومن ثم فإن اللقاء بين الحركتين ـ حركة العقل وحركة الوجدان، حركة الحس وحركة الروح، حركة الذهن وحركة القلب ـ هذا اللقاء، سيكون محتماً في المدى القريب والبعيد، لأن كلتا الحركتين ستطلع الإنسان على الملكوت. وتقوده إلى الله.

٨

ما هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الديني الأخلاقي؟ ولماذا لم يكشف الله سبحانه عن الأول بينما قدم الكثير عن القانون الثاني؟

سؤال يجدر أن يقال، ولكن بقليل من التمعن نحصل على الجواب.

في البداية يجب أن ندرك، أنه في المدى البعيد، مدى علم الله الذي تنقطع الأعناق دونه في هذه الحياة الدنيا، إلا من ارتضى من رسول، في مدى هذا العلم تنتفي هذه الثنائية بين القانونين ـ قانون الطبيعة وقانون الدين ـ تذوب الحواجز وتتلاشى الفوارق، ويلتقي كلا القانونين في مدى صنع الله وإرادته وقانونه الأكبر الذي يسير ملكوت السموات والأرض بما عليهما من جماد وحيوان.

إن المادة نفسها، التي يرتكز عليها القانون الطبيعي، قد حطمها اليوم العلم نفسه. لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة. لقد كشف لهم العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي وعلمهم أن أساس الطبيعة هي الحركة وليست المادة ـ الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر، تتحرك فتضفي الشكل المادي للأشياء، وهذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي ـ فكأنه تسبيح أبدي لكل قوى الطبيعة لرب الملكوت، وإيحاء عجيب للإنسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت.

إن الحركة ـ هذا المعنى الكبير ـ هي أساس الوجود المادي تماماً كما هي أساس الوجود الحيوي. هذا ما كشف عنه العلم أخيراً، وما هذا الكشف إلا جانب ضئيل مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد. ومن يدري فلعل العلم سيقود الإنسان يوماً إلى الحقيقة القائلة أن الدين هو العلم، والعلم هو الدين، وكلاهما الحق، اعتماداً على الناموس الواحد الذي يحكم الجميع؟!

هذه الثنائية بين القانون الطبيعي والقانون الديني ليست سوى افتراض من خيال الإنسان القاصر، وظروفه الخارجية غير الموضوعية التي تقوده دائماً

لإصدار أحكام لا تغني عن الحق شيئاً. ولا يتيح المجال هنا استعراض هذه الظروف، وما هو بالجديد على كل مثقف في العالم الحديث، ما شهدته أوروبة من مظالم وقسوة وسوء تصرف عبر تاريخها الطويل، الأمر الذي أدى إلى هذه الازدواجية في ذهن الغربي ووجدانه ونظرته للأشياء وتعامله معها. إن الصراع بين العقل والدين هناك، ذلك الصراع العنيف القاسي الذي ذهب ضحية له علماء كبار، وأحرقت من أجله تلال من الكتب.. هذا الصراع أنتج بالضرورة هذه الثمار المرة التي تسمم الحضارة المعاصرة، وهذا العلقم الذي يملأ أفواه الناس في العالم الحديث. إن الإنسان لا يطيق أن يكون إنسانين. والفرد الواحد لا يحتمل أن يكون فردين. وليس من المنطق أن ينأى العقل عن القلب، والفكر عن الوجدان. والحس عن الروح، والطاقة عن الحركة. ليس من السهل أن يتمزق الإنسان ويغدو أشتاتاً وتفاريق.. ولكن لابد لهذا الإنسان ـ شاء أم أبى ـ أن يجني ثمار ما صنعه الصراع الكريه ذاك، وأن يمتلئ فوه بالعلقم.

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ   يجدْ مرّاً به الماءَ الزُّلالا!!

٩

ونعود من جديد إلى السؤال الذي طرحناه قبل قليل: لماذا لم يكشف الله سبحانه للإنسان عن القانون الطبيعي. بينما قدم له الكثير عن القانون الديني؟

هنا يأتي دور الإنسان نفسه، الإنسان بإرادته وطاقاته وإمكاناته، الإنسان بما هو إنسان. ترى لو تركت للإنسان حرية الكشف عن القانون الأخلاقي والمنهج الديني بنفسه، أكان يمكن أن يصل إلى بغيته؟ أكان من السهل عليه تحقيق هدفه المنشود؟ إذاً لماذا لم تستطع المبادئ الوضعية طيلة آلاف السنين من عمر البشرية أن تحقق هذا الهدف؟

أليس من العبث والقسوة أن يترك الإنسان هكذا، يتعثر طوال حياته على الأرض ولا يجد من يهديه سواء السبيل؟ أليس من العبث والقسوة أن يظل الإنسان أسير جهله وتخبطه اللذين لا يترفع عن وهدة حتى يوقعانه في وهدة أعمق منها وأبعد غوراً؟ أليس من العبث والقسوة أن يهدر الإنسان طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج والقيم؟ وهل بإمكان الإنسان ـ أساساً ـ أن يصل إلى المنهج الأمثل ويحدد القيم العليا؟

في مجال الطبيعة والأشياء لم يشأ الله سبحانه أن يكشف للإنسان عن قوانينها، لأن هذا يعني إهمالاً لطاقات الإنسان الخلّاقة وقدرتها على الكشف والابتكار. ولو حدث وأن وجد الإنسان نفسه فجأة أمام القوانين الطبيعية على حقيقتها، لألغيت إذاً ـ وبشكل محتَّم كما سبق ـ كل قدراته ومحاولاته، ولأسلم نفسه لكسل فكري واتكالية لم يرد الله سبحانه للإنسان أن يقع في إسارها.

أما القانون الأخلاقي والمنهج الديني فهل كان من المنطق أن يظل غامضاً، وأن يسعى الإنسان بنفسه للكشف عنه؟ إن هذا القانون وذلك المنهج ما داما يرتبطان أساساً بالعالم الأوسع ويمتدان إلى ما وراء الحس الظاهر للعيان، ما داما ينأيان دائماً عن رؤية الإنسان المباشرة وحريته المحدودة، وحركته النسبية، فليس من السهل عليه إذاً أن يترك وحده للسعي وراء أهداف لم يهيأ للكشف عنها.

إن تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة، لأنها ستعلم الإنسان طريقة جديدة، أو تعطيه ابتكاراً جديداً. وما منجزات الغرب التقنية المعاصرة سوى (تراث) أسهمت في صنعه وبنائه معظم أمم الأرض وشعوبها بعد أن مارست كثيراً من تجارب الخطأ والصواب، ولا زال العلم إلى الآن ينفي اليوم ما أثبته بالأمس، ويثبت ما سوف ينفيه

في الغد، ولكن هذا النفي والإثبات، وهذه الظنية التي تحكم العلم، لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمرّ للإنجازات العلمية، بل إن هذه في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن. أما في المجال الأخلاقي والديني فلا يمكن للإنسان أن يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده، ولأنها ـ وهذا هو الأهم ـ لن تقدم له (الصواب) المطلق الذي لا خطأ بعده في يوم من الأيام. ذلك أنه لا يملك الوسائل التي تمكنه من تمحيص هذا الصواب. ثم إن عملية النفي والإثبات هنا ليست سوى عملية سلبية، إذ إن النفي في عالم القيم والأخلاق سيوقع الأمم والشعوب في فوضى لا حد لها، وسيصيب الإنسان نفسه بمشاكل باطنية وقلق وتمزق داخلي، يشلانه عن المضي في طريق التطور والتحضر.

لقد أعطى الله الإنسان إمكانيات خلاقة، وقدرة نافذة، ورؤية عظيمة، لكن هذا وحده لا يكفي. إن إمكاناته وقدرته ورؤياه لها أرضية واسعة للسعي والحركة، وإن تقليص هذه الأرضية هي إهدار لطاقات الإنسان أو تجسيدها، وهي بمعنى أوسع احتقار للإرادة الإنسانية. لكن هناك مدى أوسع بكثير من هذه الأرضية، ولو ترك الإنسان وحده لظل يتحرك كالأعمى يقوم ويسقط إلى أن يأتي يوم يسقط فيه في الهوة التي لا قيام بعدها. ولقد حدث هذا فعلاً لكل الناس والدعاة الوضعيين والأمم والشعوب التي تعبدها أولئك الوضعيون من دون الله. قالوا لها: إن بإمكانهم إعطاءها المنهج والقيم، فسارت وراءهم رهباً ورغباً، وعبدتهم من دون الله، ثم ما لبث أن سقط الأرباب والعبيد على السواء.

١٠

إن المأساة الحقيقة في تاريخ البشرية هي رفض الوضعيين الاعتراف بطاقات الإنسان وقدراته، واعتقادهم أن بإمكانه الوصول إلى أي هدف يسعى

إليه.. صحيح أن كثيراً من الأهداف يمكن للإنسان أن يصل إليها، ولكن أي الأهداف تلك؟ إنها الأهداف التي أتيح للإنسان أن يسعى إليها بما عنده من طاقات وقدرات. أما الأهداف الأخرى التي تنأى عن (علم) الإنسان فإن أية محاولة للسعي إليها إنما هي خدعة كبرى لا تعود بالنفع إلا على الأرباب والوضاعين والسحرة وكهنة الفكر وفلاسفته الذي يعودون بعبيدهم دائماً إلى نقطة الصفر ليبدؤوا من جديد، كي يكسبوا دائماً عامل الزمن، وكي يوهموا اتباعهم أبداً بأن البحث الحقيقي الجاد يجب أن يبدأ دائماً من هناك.

تلك هي المأساة إذن.. أن يضع الرسل والأنبياء معالم الطريق، ويتقدموا بالبشرية مسافات طويلة نحو الهدف، ثم يأتي حواة الفكر ودجّالوه كي يعودوا بقطعانهم إلى نقطة الصفر، ويبدؤوا من جديد!!

١١

إن حضارة لا تعتمد سوى العلم في حركتها، إنما هي حضارة عرجاء تسير على ساق واحدة، ولابد للأعرج أن يسقط في يوم من الأيام.. إن حضارة لا تلتزم إلا بالعلم في تقدمها، إنما هي حضارة لا تملك سوى عين واحدة، بعد أن اختارت بنفسها أن تفقأ عينها الأخرى. ولابد لإنسان لا يبصر إلا بعين واحدة أن يفقد الرؤية الواضحة ويسقط في يوم من الأيام. إن ثورة الإسلام، والإسلام يعني كفاح الأنبياء كلهم وهدفهم الكبير، هذه الثورة ليست سوى محاولة جادة لإقامة حضارة سليمة تمشي على ساقين، وتبصر بعينين.. حركة ضد العمى والكساح الذي اختارته دائماً حركات العلمانيين لاستعباد الناس من دون الله. إن أمة لا تمشي إلا على ساق واحدة، ولا تبصر إلا بعين واحدة، من السهل أن تقاد كما تقاد الأغنام وراء جزاريها حتى ولو انتهى بها الأمر إلى الذبح.

إن دعوة الإسلام: صرخة رجاء بوجه البشرية، بوجه الأمم والشعوب أن

تتمرد على أربابها، وأن تستعيد سيرها الطبيعي ورؤياها الكاملة للأشياء.. وهل يتم ذلك إلا بالعودة إلى منهج الله وقيم الله؟!

١٢

إن هناك خدعة كبرى يمارسها الطاغوت باسم (العلم) ضد الأمم والشعوب، إنه يفقأ إحدى عينيها، ويكسر إحدى ساقيها موهماً إياها أنها العين الوحيدة التي ترى، وأنه أحسن صنعاً باكتساح العين الأخرى التي تشوه رؤياها للأشياء. وإن الساق التي أبقاها لهي الساق الوحيدة التي تستطيع أن تواصل السير من أجل التقدم، وأنه أحسن صنعاً ببتر الساق الأخرى المريضة، التي تعيق الحركة نحو الأمام.

ولم يسأل أحد من العبيد يوماً نفسه: ترى لمصلحة من ممارسة هذا التطوع بالعمى والعرج؟ وهل كان بإمكان إنسان ـ يوماً ـ أن يحقق أهدافه وهو قد خدع من البداية فتنازل عن إحدى عينيه وإحدى ساقيه؟ ولم يسأل أحد من الأتباع يوماً نفسه: تُرى لماذا لم يخلقنا الله منذ البدء بعين واحدة وساق واحدة.. أكان عبثاً أن نخلق بعينين وساقين؟

١٣

إن المسيح الدجال ذو العين الواحدة، ربما كان رمزاً أكبر لهذا الاختيار المر الذي قاد الأمم والشعوب إلى الضياع. يعود هذا الدجال في آخر الزمان ليرى الإنسان الذي استعبد نفسه للطغيان: صورة نفسه: إنسان أعور، مشوه، دميم الخلقة. من أجل أن يثير الاشمئزاز في نفوس الأجيال المستعبدة، علّها تثور ضد الذين سخروا منها فاقتلعوا عينها وحطموا ساقها.. تماماً كما سيعود المسيح العظيم، في آخر الزمان لكي يرد ـ أغلب الظن ـ على الذين تنازلوا عن حريتهم وقرروا أن يعبدوه من دون الله.

١٤

إن (العلم) لم ينقل الناس يوماً إلى التجريد، فرغم أنه أعطاهم مناهج للبحث والابتكار، إلا أنه لم يزدهم إلا اقتراباً من الحس والتجسيد، والإنسان إنسان بقدر ما يتجاوز عالم التجسيد هذا إلى آفاق التجريد الرحبة التي لا نهاية لها، والتي سعت الأديان جميعاً أن ترفع الناس إليها وأن تعلق أبصارهم بها، وتفتح تيار وجدانهم الدفاق صوبها. ولقد كان الناس يقبلون دائماً ـ في عهود جهلهم وانحطاطهم ـ أن يتنازلوا ببساطة عن السماء التي رفعتهم إليها الأديان، يتنازلون إلى أرض الحس والتجسيد. وكان هذا يعبر عن نفسه دائماً بالتخلي عن عبادة الله الواحد الذي لا تراه العيون، إلى عبادة الأشخاص والأولياء والأضرحة والقادة والزعماء والأشكال والظواهر الطبيعية. هذه ظاهرة تبدو واضحة في تاريخ كل الأمم والشعوب. أليس معنى هذا أن العلم، يوم كان يدعو الناس إلى إقامة هياكل له وعبادته من دون الله، أليس معنى هذا أن (العلم) أخذ آنذاك يساند (الجهل) في تحويل الناس من التجريد إلى التجسيد؟

واليوم، ماذا يحدث؟ إن النزعة الشيئية التي أوجدها العلم بمنجزاته الحضارية الهائلة، قد استعبدت الناس من دون الله، وحجبت عنهم ببريقها وتناسقها وتجسيدها الواضح: نور التجريد والغيب، وبالتالي حجبت عنهم الاتصال بالله، إن النزعة الشيئية في قرننا هذا ليست سوى طبقة جديدة من رجال الدين الذين عرفتهم بعض العصور، طبقة تلبس الملابس الزاهية، وتتحلى بالأشرطة الملونة، وتدعو الناس ألا يذهبوا إلى الله إلا بعد أن يمروا بها ويسألوها.. ولكن ماذا يحدث دائماً؟ يحدث أن تكون الأشياء أو رجال الدين على السواء هي نهاية مطاف البائسين الذي يبحثون عن الله دون جدوى.

١٥

لا شك أن العلم يتميز باليقينية.. ولكن أية يقينية؟! إنها يقينية القرب، الملموس والمحسوس، الرؤية المباشرة، والإيمان المجاني بالقريب الملاصق. ولكن الإنسان لا يغدو إنساناً إلا بتجاوزه هذه المرحلة.. بتوصله ـ بعد جهد ورياضة وتعاليم داخلية وخارجية ـ إلى اليقين بما هو أبعد من الملموس الملاصق، بما هو أكثر استعصاء على الرؤية المباشرة والإيمان المباشر. إن تفرد الإنسان يبدو هنا: أن يستغل قواه الذاتية من أجل الإيمان بشيء أو قضية لا يتوصل إليها ببساطة أو بالمجان، ولا يتساوى فيها الجميع، إنما يتفرد بها أولئك الذين تمكنوا ـ باستغلال هذه الطاقات ـ من الوصول إلى يقين عميق بقيم غيبية غير مرئية، وبوجود آخر غير هذا الوجود الملاصق، وبقوانين أكبر، غير هذه التي تزن الأشياء الملموسة، وتحدد المسافات القريبة، وتعلل الظواهر المحسوسة.

إن من الضروري التفريق بين العلم وبين فلسفة العلم، بين العلم بما أنه وسيلة تقنية للتحضر، وبين فلسفة العلم بما أنها حجر لطاقات الإنسان، وقصر لليقين على الملموس. ومن ثم فعلى الإنسان ـ كي يصل إلى إنسانيته الكاملة ـ أن يرفض فلسفة العلم دون أن يتخلى أبداً عن مكتسبات العلم التقني في شتى المجالات.

إن المبادئ الإسلامية تقف بوجه العلمانية من هذه الزاوية، من ناحية أنها تصور خاطئ لمدارك الإنسان، وتحديد قاصر لعلاقته بالكون والعالم. والمبادئ الإسلامية ترد الأمور إلى نصابها بإيجاد تصور صحيح لمدارك الإنسان، وتحديد واسع لعلاقته بالكون والعالم، تصور وتحديد يقومان على الفطرة التي فطر الله الناس والأشياء عليها.

١٦

إن القول ـ إذاً ـ بأن الدين يلغي العلم أو أن العلم يلغي الدين إنما هي سخرية نضحك بها على أنفسنا، أو يضحك بها غيرنا علينا، كي نتخلى عن أحدهما فنضيع. إن كثيراً من أمم الشرق قد وقعت ـ في التاريخ المعاصر ـ في هذا الشرك، ورضيت أن ترمي بنفسها في هذه المصيدة، وعن هذا الطريق راح القصَّاب الغربي يعمل بالفريسة سلخاً وذبحاً وتقطيعاً. إن الخطر هو نفس الخطر سواء في قبول دين يرفض العلم، أم قبول علم يرفض الدين، والأمران كلاهما لا يمكن أن نجد لهما أي سند من القرآن والسنة، أو من سير الأنبياء عليهم السلام.

ولكن الذي حدث أن الشرقيين فتحوا أعينهم يوماً على بهرج حضارة يعمي وهجها العيون، فمنهم من أغمض عينيه وعاد إلى نومه الحالم اللذيذ باسم الدين، ومنهم من راح يركض كالمجنون لكي يرتمي في أحضان هذه الغانية المبهرجة، باسم العلم، متخلياً بهذا عن كل قيمه الدينية. هذا الواقع التاريخي المحزن لأمم الشرق وهي تلقي السلاح إمام جيوش الغربيين المدججين بكل سلاح، وهذه السلبية في الصمود إزاء هذا الزحف، سواء في الانغلاق الكلي أو الانفتاح الكلي على قيم هذه الحضارة، هذا الواقع هو الذي أوحى ـ زيفاً ـ بهذا الافتراض المضحك: إما العلم أو الدين.

وقد عرفنا قبل قليل شيئاً عن مصير العلم الذي يرفض الدين. لكن ما هو مصير الدين الذي يرفض العلم؟ إن مجرد الجواب عن سؤال كهذا سيوقعنا ـ نحن الآخرين ـ في الشرك. ذلك أنه ليس ثمة دين سماوي على الإطلاق يرفض العلم. وهذا كتاب الله بين أيدينا جميعاً!!

١٧

لقد غفل الكثيرون عن حقيقة واضحة لا تقبل نقاشاً؛ هي: أن الله سبحانه ما دام قد خلق الإنسان بهذا العقل المدرك وهذه القدرات الخلاقة، فهل يعقل أن يبعث أنبياءه بأديان ومناهج ترفض استخدام العقل وتجسد القدرات الخلاقة؟ ألم يكن من الأجدر أن يخلق الإنسان ـ أساساً ـ بلا عقل ولا قدرات؟!

١٨

إننا عندما نضع الدين ـ هكذا ـ جنباً إلى جنب إزاء العلم لا يعني هذا أبداً أنهما كفتا ميزان، وأن لكل منهما قيمة مساوية لقيمة الآخر.. أبداً والذي تخطر بفكره هذه الصورة فهو كمن يريد أن يجد حاصل جمع خمس تفاحات وخمس مناضد.. أيمكن لعاقل أن يقول: عشر؟

إن العلم ليس سوى طاقة من طاقات الإنسان، أو بشكل أدق هو حصيلة تعامل قدرات عقلية وحسية، يمتلكها الإنسان، مع الطبيعة والأشياء.. أما الدين فهو منهج، منهج كامل للحياة البشرية، يسعى إلى تنظيم علاقات الإنسان ليس بالطبيعة فحسب، بل بكل ما له علاقة به: بنفسه، بأخيه الإنسان، بأسرته، بمجتمعه، بسلطاته المسؤولة، بالأمم والشعوب الأخرى. وبالطبيعة والعالم والكون. هذه العلاقات التي تنبثق جميعها عن إيمان وإدراك عميقين بالله سبحانه، والتزام مسؤول بمنهجه: أي بدينه.

ماذا يبقى للعلم إذاً إزاء هذا الشمول الذي يعنيه الدين؟ إن العلم إزاء هذا الوضع الطبيعي للصورة ليس سوى علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الإسلام لكي ينظمها على أساس صالح، ويسعى إلى تحديد أهداف إيجابية لها، ويسلكها جميعاً في نظام معجز ينبثق عن تصور كامل لوضع

الإنسان في الكون، وللفطرة ـ أو الناموس ـ التي فطر الله الكون والناس والأشياء عليها.

١٩

ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجاً أو ديناً للإنسان.. وإن ادعى العلمانيون ذلك. أيمكن للجزء أن يستشرف الكل؟ أيمكن للذرة أن تحيط بالجزيء؟ وهذا أن يحيط بالشكل الخارجي للأجسام؟ أيمكن لعلاقة واحدة أن تحدد شكل ومصير علائق أخرى تندُّ عن حدود اختصاصها وتنأى عن مجالها؟ ترى، أليس من المضحك الدعوة إلى أن يحكم الجهاز الهضمي وحده بيولوجية الإنسان، ويسلم إليها القياد، أو أن تعطى للقلب فرصة توجيه الجهاز العصبي؟!

إن العلمانية ـ بهذا المعنى ـ ليست سوى محاولة من محاولات سوء التفاهم الكثيرة التي لابد وأن يقع فيها الإنسان الذي يختار بنفسه أن يند عن طريق الله ومنهجه في الحياة. ومن ثم يجد نفسه ـ وقد تخلى عن منهج الله ـ مضطراً إلى ابتكار منهج من عند نفسه.. وهكذا، تطلع علينا كل يوم مناهج وضعية ما أنزل الله بها من سلطان، فمنهم من يعطي القلب حق وضع المنهج، ومنهم من يعطي هذا الحق للروح والتجربة الباطنية، وآخرون يعطون هذا للحدس والتخمين والرياضة والممارسة. ثم يأتي العلمانيون لكي يرفعوا أصواتهم قائلين: إن العلم الذي هو حصيلة العقل والتجريب هو المنهج الذي يجب أن تخضع له أعناق الناس ومصائرهم!!

ولكن، إذا كان للعلم أن يضع منهجاً في التعامل مع الطبيعة والأشياء، فهل له أن يعمم هذا المنهج على التعامل مع الناس والحياة والغيب والأمم والشعوب؟ فإذا ما أدركنا أن العلم فشل حتى في وضع منهج للتعامل مع الطبيعة نفسها، وأنه لم يستطع السيطرة على معطياته وإلزامها بإسعاد الناس

فحسب، إذا ما أدركنا هذا عرفنا ـ ولا ريب ـ مدى عجز العلم عن تحقيق النبوءة المزيفة التي طالما تغنى بها العلمانيون!!

٢٠

إن الاندفاع الأعشى وراء إغراء العلم، سعياً لفتح مزيد من طلاسمه وأسراره، سيقود البشرية إلى الدمار حتماً، إنه كالسعي الأسطوري لفتح (قمقم سليمان) وإطلاق قواه الخارقة التي يعجز الإنسان عن السيطرة عليها يوماً، فتطوقه وتفنيه، دون أن يجد الحيلة لوقف مأساة نهايته. إنه كالاتصال المحظور بعالم الأرواح وإعطائها المجال للتحكم بمقدرات الإنسان: بعقله وأعصابه ووجوده، ومن ثم تعريضه للجنون أو الانتحار.

إن العلم إذا لم تحدده أخلاقيات ومُثُل ومعالم توجه العاملين في حقله والساعين إلى اكتشاف عوالمه، سيغدو طريقاً إلى بربرية عاتية تفوق في وصفها بربرية العصور الأولى. هل يعني هذا حجر على العقول وإيقاف لخُطى السائرين في طريق الإبداع؟ أبداً.. إن القرآن الكريم نفسه يعلمنا كيف أن الإنسان دعي منذ البدء إلى السير الأبدي على هذا الطريق، لأنه وطريق الإيمان سواء، بل لأنه الطريق الهادي إلى الله.

منذ البدء، والأديان تدعو الإنسان أن يكون حركياً أبداً صوب أهداف العلم واكتناه خلق الله. لكن الأهم من هذا ما يعلمنا إياه القرآن الكريم نفسه من أن هذا السير، وهذه الحركة صوب أهداف العلم، يجب أن تتحدد بقوانين وأهداف، وإلا أدت بالسائرين إلى صنع دمار كامل للبشرية والحضارة على السواء، دمار كهذا الذي نشهده اليوم في الأسلحة الذرية والكيماوية والجرثومية.

وإذا كان العلماء أنفسهم ـ وهم الصفوة الممتازة ـ لا يأبهون للقيم في اكتشافاتهم، فهل نتوقع من الساسة والقادة العسكريين ـ الذين تحكمهم

الماكيافيلية ـ عدم استخدام أسلحة التحطيم هذه؟ إننا نخدع أنفسنا، وها هي مؤتمرات حظر الأسلحة الفتاكة، وها هي إسرائيل تعطينا الأمثلة العملية على هذا، وتعلمنا أن نفتح أعيننا جيداً.

٢١

إن التقدم العلمي التكنولوجي الذي أحرزته البشرية ليس سوى تقدم خارجي فحسب، ولا علاقة له البتة بأي نوع كان من تطور بيولوجي يمس عقل الإنسان. إن هذا التقدم هو حصيلة إمكانات تكنولوجية أخذت تزداد كمّاً وتتعقد نوعاً بمرور الزمن، وبإسهام شتى الأمم والشعوب المتحضرة. كل أمة تستلم زمام الإبداع والحضارة، تسعى جاهدة لتنمية خبرات الأمم التي سبقتها ـ كماً ونوعاً ـ ولا يستطيع أحد أن يقول: إن هذه التنمية تنبثق عن تطور بيولوجي في العقل البشري؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقول بأن استلام زمام الحضارة من قبل أية أمة ينبثق عن قفزة في تكوينها العقلي البيولوجي. وكما أن استلام الزمام الحضاري أمر يتعلق بالقيم الخلقية والاجتماعية والثقافية للأمة، وبالدين أو العقيدة التي تبعثها وتحضرها، فكذلك الحال بالنسبة للتقدم التكنولوجي الذي يرتبط بهذه المرحلة.

هل لأحد أن يقول بأن عقلية (ماركوني) أو (جيمس واط) أو (أينتشاين) تفوق في تركيبها البيولوجي عقلية (أفلاطون) و(أبيقور) و(ابن الهيثم) و(البيروني) و(الخوارزمي) من ناحية بيولوجية؟ أبداً.. إن القضية قضية زمن، فلو وجد (الخوارزمي) في زمن (نيوتن)، ولو وجد هذا في زمن (الخوارزمي)، فإن ذلك لا يؤثر في سير الإنجاز العلمي شيئاً.. وهذا لا يعني أبداً إنكاراً للفروق الفردية، فهذه الفروق موجودة في الحضارة الواحدة والزمن الواحد، ولا علاقة لها بالتطور العلمي العام. إن هذه الحقيقة تطرح رفضاً ـ مبدئياً ـ لكل التقاليد العلمية والأفكار التي انبثقت عن

نظرية (دارون)، تلك النظرية التي لم تجد إلى الآن السند الأكيد الذي يحيلها إلى قضية مسلمة، خصوصاً بعد ردود الأفعال التي أثارها تطرفها وافتراضيتها لدى تلاميذ دارون أنفسهم، وبعد الشكوك التي طرحتها الحفريات الحديثة حول هذه النظرية.

٢٢

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم، ابتداء من مواضع أقدامهم، وانتهاء بآفاق النفس والكون.. وأعطى (للحواس) مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب.. قال له: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وناداه أن يمعن (النظر) إلى ما حوله.. إلى طعامه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤-٣١]..

إلى خلقه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

إلى الملكوت: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦]..

إلى التاريخ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [محمد: ١٠]..

إلى خلائق الله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]..

إلى آياته المنبثة في كل مكان: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ [المائدة: ٧٥]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]..

إلى النواميس الاجتماعية: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]..

إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]..

إلى الأثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]..

إلى الحياة الأولى، كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]..

ودعاه أن يحرك سمعه باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢]، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣].

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٨١].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢].

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ﴾ [الجاثية: ٨].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وانتقل القرآن خطوة أخرى، وسألهم أن يحركوا بصائرهم، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية، لا حصر لها.. ومن ثم تتحمَّل البصيرة مسؤوليتها العظمى في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة...

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣].

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٥].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [النمل: ١٣].

﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٣-٤].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥].

إن العقل والحواس جميعاً مسؤولة، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاستقراء والاختيار.. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات.. بفتحه هذه النوافذ على مصاريعها.. باستغلال قدراتها الفذة العجيبة حتى النهاية، سيصل إلى قمة انتصاره العلمي والديني على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوّؤه مركزه المسؤول كسيِّد على العالمين وخليفة في الأرض. وأنه بتجميده هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه السمع والبصر والفؤاد، منزلة البهائم والأنعام.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٣]..

ولنقرأ معاً هذا الحشد من الآيات ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال..

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤].

﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وحشد آخر من الآيات، بلغ ما يقرب الخمسين، حث على تحريك العقل، المفتاح الذي منحه الله لبني آدم، وقال لهم: افتحوا به أبواب

الملكوت، وادخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخر لكم ما في السموات والأرض: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

وآيات أخرى دعت الإنسان إلى التفكير، التفكير العميق المتبصر المسؤول، بكل ما يحيط به من علامات وأشياء وموجودات..

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ [الروم: ٨].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وما يقال عن التفكر يمكن أن يقال عن التفقه، وهي خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون.. كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للتحاور المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات..

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار..

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥].

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢٣

إن ثمة حقيقة أساسية في هذا المجال يجب ألا تغيب عن بالنا.. قضية قامت على الخداع الذي مارسه الفكر الغربي طويلاً في مناهج بحثه وفي مصطلحاته، تلك هي تسمية طريقة الحياة التي دعا إليها الغربيون بـ (العلمانية) secularism. إن هذا الاصطلاح يوحي، للوهلة الأولى، بصواب الدعوة واستقامة الطريق، فمن ذا يرفض أن يحيا حياة تعتمد في مقوماتها أسس العلم الصحيح إلا أن يكون ساذجاً أو مجنوناً؟! من ذا يقف بوجه دعوة تقول للناس: إن العلم هو الطريق الحق للوصول إلى حياة مشرفة متطورة ومجتمع نظيف سعيد إلا أن يكون جاهلاً أو رجعياً؟! وزاد في الأمر مكراً

وتضليلاً وضعهم الدين، أي دين، في الجهة المقابلة لهذه الدعوة (المنطقية) وقولهم للناس: إما هذا أو ذاك..

والحق أن هذا الاصطلاح لا يصح إلا بمقدار اعتباره دعوة للاعتماد على مصدر واحد للمعرفة هو (العقل)، ورفض تام لسائر المصادر الأخرى وعلى رأسها (الوحي) الذي جاءت الأديان السماوية جميعاً وفق طرائقه الخاصة. وفيما عدا ذلك فلا يخدعنا القول، وعلينا أن نفرق دوماً بين العلمانية كمصطلح يعني ما ذكرناه، وبين (العلم) بمفهومه الشامل القائم على استغلال طاقات الإنسان والكون بما يتيح للبشرية مزيداً من السعادة والرخاء، وبما يعطي للحضارة عوامل حركتها وديمومتها. وقد عرفنا، في الصفحات التي خلت، كيف أن العلم بمفهومه الواضح الشامل هذا ليس سوى (فاعلية) في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين، أو المنهج الإلٰهي، طريقة لها في الحياة.

ونضيف هنا حقيقة أخرى في غاية الأهمية، تلك هي أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على الدين نفسه الذي علمه الله أنبياءه.. على النواميس التي يسير بها الله ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في أم الكتاب.. وكإشارة إلى القيم الدينية التي تنزلت من السماء. ومن ثم يغدو (العلم) و(الدين) سواء في لغة القرآن.. وها هي كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد لها الله أن تكون، لا كما يريد لها أصحاب (الظن) من الوضعيين.. ولنستمع إلى كلمات الله:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢].

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣].

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥].

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ [النمل: ٤٠].

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٦].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ﴾ [النجم: ٢٨].

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾ [النجم: ٣٠].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ﴾ [يونس: ٣٩].

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]..

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمئة والخمسين!

٢٤

وتاريخنا! ماذا علمتنا تجربة تاريخنا؟ لقد جاء الإسلام إلى أمة بادية في الصحراء.. تنتشر في مسافاتها الشاسعة مدن نقلت عن (فارس) و(روما) و(اليونان) جوانب حضارة لم تستوِ على سوقها.. بقايا نظم عمرانية واقتصادية واجتماعية لم تتعد يوماً صيغها الخارجية وتتحول إلى قيم متأصلة في كينونة الإنسان العربي ذاته.. إلى قوى خلاقة تتيح له القدرة على التغيير الحضاري بمفهومه الأصيل الواسع.. ومن ثم أتاح هذا الازدواج، وعدم الوفاق بين الخارج والداخل، فوضى عمت الجزيرة العربية من أقطارها الأربعة.. فوضى اجتماعية واقتصادية وسياسية وأخلاقية دمرت على العربي أمنه الذاتي وسلامه الجماعي، وحجبت عنه الآفاق التي لم يطمح يوماً إلى مد بصره إليها، سواء في عالم الأخلاق والضمائر، أم في عالم السياسة

والاجتماع والاقتصاد.. ليس هذا فحسب، بل إن الوثنية وطقوسها ومستلزماتها طغت هناك على كل مرافق التصور والسلوك والعلاقات، وشدت العربي شداً لا يرحم إلى الأرض القريبة والحجارة، وعبَّدته للأوثان والأصنام، مهدرة كل ما تبقى لديه من قدرة على رفع رأسه إلى فوق، أو مد بصره إلى بعيد.. حتى صرنا نجد العربي لا يطمئن في حله وترحاله إلا أن تكون إلى جواره قطعة من حجر يعبدها.. يتمسح بها، ويتقرب إليها. وكانوا في أسفارهم الطويلة عبر الصحراء، إذا لم يجدوا حجارة، عجنوا قبضة من الرمال بحليب الأغنام والجمال وصاغوها قبضة متحجرة من تراب الأرض، عبدوها وانحنوا لها خاضعين متذللين، فإذا احتاجوها أسافيّ لقدورهم، أنهوا صلاتهم لها وثبتوها تحت القدور.. كأولئك الأعراب الذين جاعوا، فلم يجدوا طعاماً، فانقضوا على آلهتهم المصنوعة من التمر يلتهمونها التهاماً..

والمحزن المضحك في هذا الطغيان الوثني، أو الحجري، أنه مارس بحق العرب، متحضرين وبداة، خطأين لا يرحمان:

أوّلهما: أنه شد أبصارهم إلى أسفل، وربط على أعينهم، فلم يعودوا يطمحون إلى ما وراء مواضع أقدامهم، أو يتفكرون بما يمكن أن يكون وراء جدران الآلهة والمعابد والأوثان.. أي أنه جمد عقولهم وقدرتهم على التأمل العقلي والتفكير الدائب والتعلم الصحيح.

وثانيهما: أنه حجب على أرواحهم ومطامحهم الأخلاقية الكبرى، وسحق الكثير الكثير من قيمهم الإنسانية التي زرعتها الصحراء في نفوسهم منذ أزمان سحيقة..

ومن ثم كانت الثمرة المرّة التي جناها العرب من جرَّاء هاتين الكارثتين اللتين ألحقتهما بهم الوثنية الجاهلية، هي سحق قدرتهم على التقدم إلى

الأمام، بمعنى آخر: شل قدرتهم على الحركة في شتى ميادين الحضارة، ابتداء من أعماق النفس والفكر والتصور والضمير، وانتهاء بأطراف الأرض، مروراً بعوالم السياسة والاقتصاد والاجتماع..

وجاء الإسلام، وبضربة (معلم) من يد الرسول ﷺ وأيدي أصحابه، تهاوت جدران الوثنية.. تساقط الأرباب، وتفتت حجارتها الصماء تحت الأقدام المتحركة صوب أهدافها الكبرى.. وفتح العرب (المسلمون) أعينهم يوماً، فإذا بالسد الذي حجب عنهم الرؤية والحركة قد انزاح، وامتد الطريق أمامهم مستقيماً واضحاً متجهاً كالسهم إلى أقصى تخوم الأرض.. وإذا بالسماء، التي غيبتها غشاوة أعينهم طويلاً، تبدو ـ الآن ـ واضحة للعيان، نقية زرقاء، تنساح باطمئنان عجيب إلى ما لا نهاية.. وكيف لا يبدو الطريق مستقيماً، والسماء منفتحة، وقد أزيح الركام، ورفعت هامة العربي كي لا تنحني ـ من بعد ـ إلّا لله؟!

من هذا المنطلق تمكن الإسلام ـ في عقود من السنين محدودة ـ أن يحوّل أهل البادية إلى أمة متحضرة خرجت إلى أطراف الأرض تحمل علمها الجديد، وحضارتها المتوحدة، لكي ترسم للعالمين مصيراً جديداً.. من إلغاء الوثنية، وكسر الحصار، وفتح مجال الرؤية، ومنح حرية الحركة، تمكن الإسلام أن يصنع إنسانه المتحضر العالم الذي انطلق إلى تخوم حضارات شاخت، وعلوم وهنت، وأفكار طغى عليها ركام الرؤى المشوهة والأضاليل..

خرج المسلم من الصحراء وهو يحمل قيمه الجديدة الحيَّة، وتعاليمه الواضحة البيِّنة، ومعتقداته المتفردة الفذّة، وتصوراته الكلية الشاملة، وتوحده الذاتي العجيب، وطموحه الإيماني الذي لا يقف عند حد إلّا ليتجاوزه إلى حدود أبعد، وأماكن أكثر نأياً، وسلوكه الأخلاقي الذي شدَّ أنظار المتخبطين في عبودية كسرى وقيصر..

خرج المسلم من الصحراء لكي يصوغ بهذا كله حضارته الجديدة، وعلمه (الحركي) الذي أشعلته في ذهنه فتيلة الإيمان التي ما لها من نفاد..

انطلق المسلم إلى العالم، مع إخوانه، يحمل تعاليم الله ورسوله، تثبيتاً لمفاهيم التوحيد في كل مكان، ونشراً للعدل والمساواة في كل أرض، وتفجيراً للطاقات الحضارية والعلم الصحيح في فؤاد كل إنسان، وانفتاحاً إنسانياً نادراً على كل ما يمكن أن تقدمه الحضارات القديمة من قيم ومعطيات تساعد الإنسان في تأكيد وتعميق هذه القيم جميعاً؛ ابتداء من التوحيد المطلق لله سبحانه، وانتهاء بصياغة حضارة تضم بجناحيها منجزات البشرية منذ أن قدح الإنسان الحجر بالحجر فتطايرت الشرارة الأولى.. وإلى أن يشاء الله فيبتكر المسلمون ـ من بعد ـ ويكتشفوا ويخترعوا، ويقدموا للبشرية معطيات حضارة متوحدة فذة، لم تعرف يوماً تفريقاً وثنائية وازدواجاً بين العلم والدين.

فها نحن قد عرفنا كيف أن الدين، الذي بصَّر الإنسان وحرَّكه، وهيّأ له الأرضية الصالحة لبناء أروع حضارة فريدة، تلك التي أمدت عالم الغرب ـ فيما بعد ـ عن طريق الجسور التي أقامتها الأحداث بين العالمين بطرائق لا حصر لها في ميادين البحث والتجربة والتعلم والتحضر، وأتاحت له أن يصل ـ بما أضافه إليها من مبتكرات ومعطيات ـ إلى العصر التكنولوجي الحاضر..

ولكن شتان!! شتان بين علم وحضارة صنعهما دين عرف كيف يوحد الإنسان ويضم أرضه إلى سمائه، بانسجام وتوافق معجزين، وبين علم وحضارة يصنعهما اليوم (روافض) لم يعرفوا عن الدين شيئاً، ولا استذوقوا روعة الحركة والسعي في ظلاله يوماً.. ولا أدركوا أبعاد آفاقه التي لم تنغلق يوماً بوجه إنسان يبحث عن (طريقة) تضع طاقات الكون بين يديه، وترمي بكنوزها عند قدميه..

شتان بين (علم) هيَّأ للإنسان ـ فعلاً ـ وحدته البشرية مع ذاته، ومع إخوته من بني الإنسان، وأتاح له ـ فعلاً ـ أن يكون سيداً للعالمين، وخليفة لله في الأرض. . وبين (علم) سحق وحدة الإنسان الباطنية والجماعية، ودمَّر على بني آدم قدرتهم على تحويل الإنجاز العلمي إلى وسيلة لسعادة حقة في الأرض والسماء. . علم أحدث تناقضاً مخيفاً بين كدح الإنسان المادي الملموس وبين مطامحه الروحية والأخلاقية النائية البعيدة. .

شتان بين علم أخضع أعناق القوى المادية للإنسان، وبين علم أخضع أعناق بني آدم للقوى المادية. . واليوم تنصب طاقات البحث والتجريب من أجل ابتكار أشدِّ الأسلحة مضاء في قتل الإنسان ودماره. . ويمد العلماء أبصارهم إلى اليوم الذي يتمكنون فيه من إلغاء العالم بحفنة من جراثيم مكتلة أو سموم مصنَّعة، أو قنابل لا تعرف شفقة ولا رحمة. .

تلك تجربة التاريخ. . تعلمنا، في ختام خطواتنا هذه بين مواقع العلم والدين، ماذا يمكن أن نجنيه من العلم في كلتا الحالتين. . وأي معلم أكثر تمرُّساً وخبرات من التاريخ؟! لكننا سوف لا نكتفي بإلقاء الأضواء على مواقع العلم والدين، واستنطاق التاريخ لكي ندرك طبيعة الانحرافات التي مارستها (العلمانية).

بل لابد أن نتقدم خطوات أخرى صوب الأمام لنكشف، بنوع من التفصيل، عن موقف العلمانية من القضايا الكبرى التي تشغل بال الباحثين من أجل أن نضع أيدينا على مواطن العفن والتناقض والفساد الذي تعانيه هذه الظاهرة الخطيرة في تاريخ البشرية.

ومن ثم تجيء الفصول التالية: (العلمانية والإنسان) و(العلمانية والمصير) و(العلمانية والحركة) محاولة لقطع خطوات في هذا الطريق؛ لكي نقف بعدها لنعاين عوامل التحلل والانهيار التي ساقت العلمانية الحضارة الغربية

المعاصرة إليها، منتزعين الشهادات من أفواه صنائعها أنفسهم، فلاسفة وعلماء ومؤرخين وفنانين وأدباء، من أجل أن نتبصّر بمواقع أقدامنا في العالم المعاصر، وبحقيقة الدور التي ينتظر من (التجربة الإسلامية) أن تمارسه من جديد.






الفصل الثاني

العلمانية والإنسان

العلمانية والإنسان

إن البحث الجاد في أية فكرة أو عقيدة يقود الباحث حتماً إلى اجتياز خطوات ثلاث:

أولاها: إدراك طبيعة الإنسان وتكوينه الذاتي.

وثانيها: تقييم موضوعي مقارن لهذه الفكرة أو العقيدة مع سائر العقائد والأفكار.

وثالثها: تفسير تاريخي للواقع (العقائدي) الذي يمثل حصيلة التغيير الذي أحدثه المذهب الجديد في نفوس أتباعه وفي واقعهم الخارجي أي في تاريخهم.

ذلك أن أية عقيدة أو فكرة ـ في تاريخ البشرية ـ لم تخطط إلا للإنسان، ولم يقف منها موقف السلب أو الإيجاب إلا الإنسان وحده. أما الواقع التاريخي فهو المرآة الحية التي تعكس ـ بصدق ـ نتائج ذلك التخطيط، وتلك المواقف.. المرآة التي أطلعتنا مراراً على صور جماعات وحشود من بني آدم، فقدوا أصالتهم الإنسانية، وغدوا كالآلات الصماء التي تعمل دونما إرادة أو تجربة باطنية، متنازلة عن حريتها واختيارها الذاتي، مخدوعة بأن الغذاء والمسكن والجنس هي أهداف الإنسان الأولى والأخيرة.. وعكست لنا ـ تكراراً ـ صورة الإنسان المزدوج الذي يخضع لسلطتين، تتجه به كل منهما في طريق، وتريد منه ما لا تريده الأخرى، فتكون النتيجة قلقاً هداماً وتشتتاً في وحدة الإنسان، ومن ثم ضياعاً محزناً وهروباً إلى مستويات من الحياة لا تليق بكرامة الإنسان وتفرده على العالمين.

وهكذا، ففي كلتا الحالتين أخضع الإنسان لمذهب أو نظام لم يدرك طبيعته الأصيلة وتكوينه الفذ العجيب. في الحالة الأولى رأى فيه وجوداً ميكانيكياً فحسب، تقاس قدراته بمدى ما يهضمه من مواد خام ومقدار ما يقذفه من إنتاج، وكأن ليس في تركيبه عواطف وأشواق، ولا في بنيته المعقدة مطامح ودوافع تنأى عن نطاق الحس القريب واعتبارات الآلية الصماء. وفي الحالة الثانية عومل وكأنه وجودان لا وجود واحد، فأقيمت الأسوار بين نشاطه المادي واهتماماته الروحية وعلق مصير كل وجود بسلطة لا علاقة لها البتة بالسلطة الأخرى، هذه تشده يميناً، وتلك تشده شمالاً، فتمزق، وفقد وحدته الذاتية وتماسكه الباطني.

۞ ۞ ۞

والإنسان كيان متفرد، له خصائصه التي تميزه عن بقية الكائنات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾..

وأولى هذه الخصائص هي أنه بناء الله المستخلف في الأرض، خلقه من سلالة من طين ثم نفخ فيه من روحه، فأنشأه خلقاً آخر وكرمه على العالمين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.. ومن ثم فالإنسان يمثل وحدة حيوية متكاملة الجوانب، متداخلة العناصر، متوازنة البنيان، هذا التوازن الذي تقرر في اللحظة التي نفخ فيها الله سبحانه من روحه في سلالة الطين، ومن ثم كذلك تبدو ثنائية الإنسان القائمة على إهمال أو كبت أحد العنصرين خرافة لا وجود لها في كيان الإنسان نفسه، أو محاولة هدامة لبناء الله في الأرض، تنتهي ـ دوماً ـ باللعنة التي توعَّد بها الله أولئك الذي يسعون لتهديم بنيانه.

والعلم الحديث، القائم على البحث النفسي التجريبي، يعتبر هذه الثنائية الخاطئة «تصوُّراً نظرياً لا يركن إليه الرأي السليم في قيادة الإنسان وتوجيهه. والإنسان الآن ـ في نظر هذا البحث العلمي ـ وحدة واحدة لا انفصال بين جسمه ونفسه. ولذا يستحيل أن يوزع بين اختصاصين متقابلين، وسلطتين مختلفتين، والأضمن إذاً ـ في سلامة توجيهه ـ أن تكون قيادته واحدة»(١).

ويؤكد فيلسوف التربية الأمريكي (جون ديوي) في مؤلفاته على أن الفصل بين العقل والروح من عالم الأشياء قد أصبح من النظريات القديمة البائدة!! فالإنسان إذاً وحدة واحدة لا يمكن إغفال أي عنصر من عناصر تكوينه المتوازن أو طاقة من طاقاته الحيوية، كما لا يمكن الفصل بين هذه العناصر والطاقات، أو تغليب الطابع السلبي لإحداها. إن موقفاً كهذا لا يصدر إلا عن جهل بطبيعة الإنسان، ومن الجرم البين أن يقام مذهب أو نظام على أساس من الجهل بهذه الخاصية الأساسية من خصائص الإنسان.

وسمة الإنسان الثانية هي أن في كيانه عناصر وقيم ثابتة لا تتغير، مهما تغيرت ظروفه، وتبدلت صور حياته على الأرض، ذلك أنها تتصل بحقائق خالدة لا يدركها التغيير، وتنطبق على النوع الإنساني كله(٢). وإلى جانبها صفات وخطوط أخرى لها القابلية على التغير والتبدل، تبعاً لتطور الظروف الزمانية والمكانية والحضارية، وهي معالم وصفات وخصائص تميز كل إنسان فرد عن غيره ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، كما تميز كل جماعة بشرية عن غيرها من الجماعات ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾..، فلكل قبيلة من القبائل أو شعب من الشعوب خصائصه

---

(١) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط٣، ص ٢٤٣.

(٢) انظر عن هذه النقطة بالتفصيل كتب محمد قطب: التطور والثبات في الحياة البشرية، الإسلام ومعركة التقاليد، ودراسات في النفس الإنسانية.

ومعطياته المتميزة في حدود الاختلافات الجغرافية والتاريخية بين الأمم والشعوب. وواضح أن الجهل بخصائص الدوام والتغير هذه في كيان البشرية، أو عدم القدرة على التمييز بين ما هو دائم، وما هو متغير، أدى ويؤدي بأصحاب المذاهب والنظريات العلمانية إلى أخطاء عميقة لعبت دوراً خطيراً في مسيرة الحضارات البشرية وسعادة الكائن الإنساني أو شقائه.

أما السمة الثالثة في تكوين الإنسان فلا تقل أهمية عن سابقاتها كمرتكز وجب إدراكه إذا ما أريد لمذهب من المذاهب أن يضع الإنسان في تجربة ناجحة إزاء قضية وجوده الفردي والجماعي. تلك هي نسبية طاقاته الذاتية تجاه نواميس الكون والحياة، وعدم قدرتها التزام الموضوعية المطلقة خلال تخطيطها لقضايا الوجود الإنساني. فالعقل البشري ـ رغم قدرته الفذة على الاكتشاف والابتكار والتمعن والتخطيط ـ يجد نفسه يقف عند حدود لا يستطيع تجاوزها إلى مسافات أبعد، لأنه ليس في تركيبه ولا في قدرته التقدم خطوات أخرى إلى الأمام.. ذلك هو قدر الله في خلقه.. أن يعطيهم إمكانية المسير خطوات في مجالات الطبيعة والعالم، أن يهيئ لهم الرصة لكشف جوانب محدودة ـ فحسب ـ من نواميس الكون والوجود.. ويجيء دور الدين عند ذاك ليأخذ بيد العقل ويجيبه عن كل الأسئلة المحيرة التي أعجزته[1].. وحينذاك يتأتى للمذهب المنبثق عن هذين المرتكزين أن يكون شاملاً دقيقاً مدركاً للقوانين الأساسية التي تحكم العالم، والتي لابد من إدراكها إذا ما أريد للإنسان أن يحقق دوره كاملاً في الأرض.

ثم إن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يستشرف الإنسانية نفسها، أن يطل عليها، أن يدرك كليتها، أن يراها في الإطار الأكبر وهي تتحرك وتكدح وتتصارع، وهي تتفاعل مع الأرض والزمن وتنتج وتمتد، وهي تنحسر

(١) انظر عن هذه النقطة بالتفصيل الفصل السابق من هذا الكتاب.

وتشقى وتتألم، وهي تمد خطاها باحثة عن طريق النور، وهي تتخبط في الظلام.. أن يرى تاريخها الطويل، ويتأمل مستقبلها المجهول، ويحلل حاضرها المعقد المتشابك، يستطيع الفكر أن يدرك شيئاً من هذا، ولكنه لن يستطيع أن يدركه كله.. فبإمكانه أن يستشرف مساحات قد تكون واسعة كبيرة، ويتأمل فترات قد تكون ممتدة من تاريخها ومستقبلها، إلا أنه لا يستطيع استشرافها المطلق، لأنه إنسان من ملايين الناس، فرد من البشرية ممتزج معها، مغمور في نشاطاتها ومطامحها وأشواقها.

هذا إلى أن الفكر الإنساني ليس بمعزل عن مؤثرات الواقع (المحدود) (المعين) الذي يحياه ويتفاعل معه ويعكس آماله وآلامه، فهو الوليد الطبيعي للواقع التاريخي المحدود بحدود الزمان والمكان والجماعة المعينة.. ثم.. ما هي منافذ الفكر التي يطل منها على الكون والعالم والبشرية؟ أليست الحواس الخمس فحسب؟ أو ليست هذه الحواس معرضة دوماً لتجارب الخطأ والصواب؟ وأن أشد العمليات العقلية بعداً من الحسية، ليست في حقيقتها إلا استبطان داخلي وإعادة صياغة لمكتسبات حسية فيها ما هو قائم على الحق، وفيها ما هو منبثق عن التخبط والضلال؟ وليس للباحثين عن المذاهب والأفكار إذاً إلّا أن يعترفوا بقدرات الإنسان المحدودة هذه كيلا يوقعهم العمى والغرور في الهاوية التي لا قيام للإنسان بعدها..

وثمة ـ أخيراً ـ سمة أساسية رابعة في طبيعة التكوين الإنساني، تلك هي أن هذا التكوين ـ القائم ابتداء على التوازن الأصيل بين الروح والمادة ـ قد يصاب أحياناً بانحرافات خطيرة عن خصائصه الأصيلة هذه نتيجة تعاملها مع مبادئ ونظريات لم تدرك أبعاد النفس الإنسانية على حقيقتها. ولقد كانت المبادئ الوضعية تتسم دوماً بذلك الاختلال وعدم التوازن الذي يتمثل أحياناً بطغيان القيم المادية على القيم الروحية، ويتمثل أحياناً أخرى بطغيان القيم الروحية على القيم المادية، ويتمثل أحياناً ثالثة بالفصل القسري بين هذه

القيم، واصطناع الحواجز المزيفة بين عوالم الروح والمادة كما هو الحال في التجارب العلمانية.

وفي الحالات الثلاث، كان الإنسان ـ بسبب الضغوط الخارجية المتمثلة بالنظام والسلطة والأعراف العامة ـ يجد نفسه مضطراً على الانحراف عن تكوينه المتوازن الأصيل، والانزلاق إلى دركات المادية الآلية والحيوانية الهابطة، أو التلاشي والفناء في أجواء الروحانية السالبة، والانعزالية الرهبانية المنغلقة.. أو البقاء ـ كما في المجتمعات العلمانية ـ في نقطة الازدواج والتمزق والثنائية.. وفي الحالات الثلاث يصاب معظم الناس بالشلل المادي أو الروحي، ويكون لهذا تأثيره المباشر على التكوين الحضاري للأمة وسيره الصاعد. وفي الحالات الثلاث ـ أيضاً ـ كان لابد وأن يحدث (رد الفعل) الذي يتسم بالعنف والتطرف كيما يحول عقرب الطبيعة الإنسانية من أقصاه إلى أقصاه.. وتكون النتيجة انحرافاً من نوع جديد.. يهرب المتمردون على المادية إلى أجواء الروح المثالية التي لا رصيد لها من الواقع، ويهرب المتمردون على الفناء الذاتي باسم الروح إلى عوالم المادية التي رفضت فيها كل اهتمامات الإنسان البعيدة، ومطامحه الروحية، وأشواقه الذاتية، وحسه الغيبي العميق..

أما الخارجون على النظم والتجارب العلمانية التي فرضت عليهم التوجيه الثنائي المتناقض والازدواج، فإنهم يعلنون رفضهم لأية عقيدة أو نظام أو التزام قائم على قيم خلقية مسبقة، أو أعراف أجمع عليها كافة المنتسبين إلى ذلك النظام.. وهكذا فالتمرد على الانحراف لا يأتي إلا بانحراف جديد، ولن يكون هذا الانحراف إلا أداة للهدم في كيان الإنسان الداخلي وفي نشاطه الخارجي على السواء.. وليس بمستطاع مذهب أو نظام ـ غير الدين ـ أن يكسر الطوق، ويخرج الإنسان من هذه الحلقة المفرغة. ويعيد إلى طبيعته توازنها الأصيل القائم على التداخل

العضوي الحيوي المعقد بين قوى الروح والمادة التي هي أشبه بنسيج محبوك لا ترى لحمته من سداه في كيان الإنسان. . لن يتأتى ذلك كله لغير الدين، لأن الدين هو المنهج الوحيد القائم على الموضوعية المطلقة، والنظرة الشاملة، بما أنه صادر عن الله سبحانه، أما النظم والمذاهب الوضعية فلابد ـ وقد افتقدت هذين الشرطين ـ أن تجيء متأثرة بالواقع الذي تخطط له، فلا تكون ـ من ثم ـ إلا رد فعل لهذا الواقع أو انعكاساً سلبياً له. . وفي كلتا الحالتين لن يستطيع تخطيط غير موضوعي ـ كهذا ـ أن يكسر الطوق وينقذ الإنسان.

الإنسان إذاً هو ـ **أولاً** ـ تلك الوحدة المتكاملة القائمة على تداخل وامتزاج وتشابك دقيق الحبكة شديد التعقيد بين المادة والروح. وهو ـ **ثانياً** ـ يشمل في تكوينه هذا جوهراً ثابتاً أزلياً ووجوداً حركياً متطوراً. وهو ـ **ثالثاً** ـ تلك القوة النسبية في مداها العقلي، والتي لابد وأن تستند في أصول رؤياها ومعرفتها إلى مصادر أخرى غير محدودة تتمثل بالوحي الإلٰهي الكامل. وهو ـ **رابعاً** ـ يمثل الاستعداد التام للانحراف عن توازنه الأصيل بمجرد تعامله مع مذاهب ونظم ووقائع منحرفة، وقدرته ـ في الوقت ذاته ـ على استعادة توازنه بمجرد التزامه ديناً ـ أي منهجاً إلٰهياً ـ قد استكمل شروطه الموضوعية.

هذه ـ باختصار ـ هي الخصائص الأساسية في طبيعة الإنسان، ولا يتأتى للتقييم العقائدي أن يكون دقيقاً شاملاً إلا على ضوئها. ومن ثم يبدو أن العلمانية ـ التي هي موضوع هذا البحث ـ قد أغفلت أساساً معظم خصائص الإنسان، وغدت بذلك انحرافاً خطيراً شهدت الحضارة الغربية المعاصرة الكثير الكثير من ثماره المرة، وعانت الكثير الكثير من معطياته التي لم تكن سوى معاول للهدم في كيان الإنسان وفي نشاطه الخارجي على السواء.

والعلمانية تعتقد بأن أي مخطط من مخططات الحياة الإنسانية: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية.. إلخ، يجب أن يصدر عن عقل الإنسان المجرد عن رواسبه التي هي نتاج تفاعل مادي مع وقائع مادية. وتدعو إلى أن تكون العقيدة، وجميع النشاطات الروحية، مقصورة على نطاقها الفردي الخاص دون أن تكون لها أية علاقة بالمجتمع أو الدولة أو النظام، وأن تصدر كافة المخططات الجماعية عن مصدر واحد للمعرفة هو (العقل). العقل الذي يشترط فيه أن يكون «مجرداً عن الرواسب العاطفية المنفعلة، والآراء المسبقة التي تغذي اتجاهات الاستعلاء والانغلاق الطبقية، والعنصرية، والدينية»[١]!!

ومع اعتقادنا بعدم وجود (عقليات) لا رواسب فيها، (عقليات) غير متأثرة بالواقع الذي تتصل به عن طريق منافذها الوحيدة المتمثلة بالحواس الخمس، فلنتجاهل بديهيات (علم النفس)، ولنفترض بأنه قد تحقق في واقعنا البشري ـ فعلاً ـ عقليات كهذه، مجردة عن الرواسب والاستلامات الحسية المسبقة، فهل أن إنسانية مذهب ما يمكن أن تستكمل شروطها الموضوعية بمجرد صدورها عن عقل لا رواسب فيه؟! إن العقل قوة حركية نسبية، كما هو في الحقيقة، أو قوة عاكسة للأشياء والتشكيلات المادية الخارجية، كما يعرفه الماديون والمتطرفون من العلمانيين.. لكنه في كلتا الحالتين لا يعدو أن يكون طاقة محدودة، نسبية القدرة إزاء الوضع الإنساني في الكون والعالم، نسبية حتى إزاء الإنسان الفرد نفسه[٢]، فأنى لها أن

(١) د. كلوفيس مقصود: الاشتراكية أداة العقل الغربي لتبوء مركزه الطليعي (مجلة العلوم، العدد العاشر، السنة الخامسة، تشرين الأول، ١٩٦٠م).

(٢) كلنا يعرف ما قاله الدكتور ألكسيس كاريل (الحائز على جائزة نوبل) في كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول) عن عجز العلم الحديث إزاء هذه النقطة بالذات، وعن فشله الذريع في إحداث توازن بين كشوفاته وبين القدرة على تخطيط مناهج للحياة الإنسانية تضع الإنسان في مكانه الطبيعي على الأرض: سيداً، متفرداً، متوحداً، وسعيداً.. «إننا بتعلمنا
=

= سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة.. فيما عدا أنفسنا.. إن علم الكائنات الحية بصفة عامة ـ والإنسان بصفة خاصة ـ لم يصب مثل هذا الفهم.. إنه لا يزال في المرحلة الوسطية.. فالإنسان كل لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي، ولكي نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة. ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط، وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة.. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية، بحيث لا يمكن إهمالها.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!! وواقع هذا الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، ما زالت غير معروفة، فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة عن أسئلة كثيرة.. ستظل جميعاً بلا جواب.. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان، غير كافٍ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب.. وقد يعزى جهلنا في الوقت ذاته، إلى طريقة حياة أجدادنا، وإلى طبيعتنا المعقدة، وإلى تركيب عقلنا.. وثم سبب آخر للبطء الذي اتسمت فيه معرفتنا لأنفسنا.. وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير في الحقائق البسيطة، إذ إننا نشعر بضرب من النفور حين نضطر إلى تولّي حل مشكلة معقدة مثل تركيب الكائنات الحية والإنسان.. فالعقل ـ كما يقول برجسون ـ يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة.. وبالعكس فإننا نحب أن نكشف في جميع العوالم، تلك الأشكال الهندسية الموجودة في أعماق شعورنا.. ونحن لا نملك أي فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه.. وعقلنا الذي يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية، ينتابه الفزع حينما يفكر في تلك الأكداس الهائلة من الخلايا، والأخلاط، والإحساسات التي يتكون منها الفرد.. ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط، الأفكار التي ثبتت فائدتها في مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات.. كذا في النظم الفلسفية والدينية.. ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً، لأن أجسامنا، لا يمكن أن تختزل إلى نظام طبيعي ـ كيماوي، أو إلى كيان روحي.. معرفة نفوسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة، والتجرد، والجمال، التي بلغها علم المادة،

تجيء بمبادئ إنسانية موضوعية لا تقبل جدالاً ولا نقضاً؟! وإذا لم يكن الإنسان نفسه هو المقياس الموضوعي لنجاح المبادئ والأفكار، أو إخفاقها، فمن يكون المقياس إذاً؟! إن من الأمور المتفق عليها تقريباً أن موضوعية مذهب ما ومدى (إنسانيته) إنما تقاسان بمقدار (انطباق) ذلك المذهب و(انسجامه) مع الطبيعة البشرية المعقدة الصعبة..

فالإنسان إذاً (كوحدة) من العقل والروح والجسد والأعصاب هو الذي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار. أما العقل ـ بمفرده ـ فهو ليس سوى جزء من (وحدة) الإنسان وليس بمقدرته رسم مخطط ينطبق (موضوعياً) على هذه الوحدة (ككل)، مخطط ينسجم مع تكوين الإنسان المتشابك، إلا بالاستعانة بمصدر آخر للمعرفة، مصدر يشرف على الإنسان من أعلى، فيراه كوحدة من جهة، ويعلم ـ يقيناً ـ أبعاد وجوده الفذ، الذي عجز العلم البشري عن اكتناهها، من جهة أخرى.. ولن يكون ذلك المصدر اليقيني سوى الوحي الذي يصدر عن الله الخلاق والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!

ومن ثم يبدو عبثاً وسخفاً، ما يقوله (كلوفيس مقصود) في مقاله المذكور، ويبدأ فيه ويعيد، من أن هنالك رواسب دينية يجب على العقل أن يتجرد منها لدى تخطيطه للمذاهب والأفكار، باعتبارها عوامل لا يولدها العقل ولا يقرها في مجالات التقييم.

= إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان.. فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان (هو أصعب العلوم جميعاً)..». (مقتطفات من الكتاب المذكور، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت).. ونحن لا نستطيع أن نطمئن ـ بأي حال من الأحوال ـ إلى رأي كلوفيس مقصود ونرفض آراء طبيب متخصص أفنى عمره في ميدان تخصصه..!! من أجل أن يقال: إننا نسعى إلى إقامة (حضارة عربية أساسها العلم الحديث)!!.

ولنستمع إلى محمد البهي إذ يقول: «ومع أن مثنوية (أي ثنائية) الإنسان ـ التي قام عليها الفصل بين الدين والدولة ـ تعتبر فكرة غير سليمة من الوجهة العلمية، وغير عملية من الوجهة التطبيقية، فإن دعاة التجديد لم يزالوا يرونها تجديداً، لأن الغرب المتحضر قال بها يوماً، ولم يزالوا يرون (الوحدة) في الإنسان وفي القيادة تخلفاً لأنها من فكر الإسلام»[1].

فليست المسألة إذاً قضية جهد علمي، وإخلاص مسؤول في تنقية العقل من رواسبه التي تشذ به عن التقييم الصحيح للمناهج والمخططات الوضعية، لأن الدين ـ كأساس للتقييم ـ لا يعد بأية حال من الأحوال مجرد رواسب استقرت ـ على حين غفلة من الزمن ـ في بنية العقل الإنساني، وإنما هو ـ أي الدين ـ منهج شامل للتقييم، ينبثق عن مصدر للمعرفة ليست عقول البشرية جميعاً سوى تعبير بسيط عن (علمه) الخلاق الكامل. . والعلمانيون يعرفون جيداً هذه الحقيقة، التي عبر كبار علماء الغرب عن جانب منها، لكنهم يرفضونها لأنهم ـ كدعاة تقدميين ـ ما يزالون يرونها تجديداً لأن الغرب المتحضر قال بها يوماً، ولأنهم لم يزالوا أيضاً يرون (الوحدة) في الإنسان وفي القيادة تخلفاً لأنها من فكر الإسلام!

❁ ❁ ❁

والإنسان هو الإنسان. . ذلك الكائن المتفرد الذي خلقه الله سبحانه كائناً سوياً، متوازناً، يقوم على أساس من العقل والروح والجسد، دون فواصل بينها ولا حدود، تتآلف كلها وتتكامل في نسيج الإنسان المعقد المتشابك. . العقل والروح والجسد، وبإهمال أي منها لا يكون الإنسان إنساناً ولا يكرم على العالمين. . والمقياس الموضوعي الوحيد لإدراك مدى

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ط ٣، ص ٢٤٤.

نجاح المذاهب أو إخفاقها هو ـ كما ذكرنا ـ الإنسان ذاته.. فالعقيدة التي توافق طبيعة الإنسان هذه، وتدرك عناصره المتداخلة المتكاملة عقلاً وروحاً وجسداً، هي وحدها التي بإمكانها أن تتعامل مع الإنسان تعاملاً إيجابياً يمكنها من الاستجابة لدوافعه الذاتية من جهة، وإتاحة المجال للتعبير عن طاقاته ونشاطاته في الخارج الحضاري من جهة أخرى، وتلك هي ولا ريب عقيدة الإسلام ومنهجه وتصوره.. وأما النظم الوضعية التي تقع ـ بحكم قصور مصادرها ـ في خطأ الجهل بطبيعة الإنسان المتنوعة والمتوحدة في الوقت ذاته، فهي نظم سالبة، لن تستطيع أن تتعامل مع الإنسان سوى ذلك التعامل المضطرب المنقوص الذي يكبت دوافعه الذاتية، ويسد الطريق أمام التعبير الكامل عن تجاربه وإمكاناته..

والنظم العلمانية بسبب من صدورها عن هذا الخطأ الهدام لابد وأن تمارس عدداً من الانحرافات:

إنها تضع الحواجز المقفلة بين عالمي الروح والمادة، ولا يملك الإنسان في كيانه حواجز كهذه تفصل عقله عن روحه عن جسده.

إنها لا تنظر إلى القيم الروحية نظرة إيجابية، فهي إذ تعتبرها قيماً سالبة، لا تشركها في التخطيطات والنشاطات ذات الطابع الجماعي. ومتى فقدت القيم الروحية إيجابيتها وفاعليتها في كيان الإنسان؟

وهي إذ تقوم بتخطيط الأنظمة والقوانين التي تنظم العلاقات الاجتماعية مجردة عن القيم الروحية، تحكم على الإنسان بالتشتت، وتصيبه بقلق ازدواج السلطة ذي النتائج السيئة على وجود الإنسان الباطني ونشاطه الحضاري على السواء.

وهي، بإبعادها للقيم الروحية عن قوانينها وتنظيماتها، تقرر الفردية المطلقة لهذه القيم، وتغض النظر عن تلك التي تعد قاسماً مشتركاً للمجتمع

الذي تسوده، والتي يجب أن تحافظ على إيجابيتها بسبب من طابعها الجماعي (كالتكافل الاجتماعي، والتعاونية، والتضحية والإيثار، والشعور بالمسوؤلية، ويقظة الضمير، . . الخ) كما أنها ـ بإغفالها هذا ـ تفتح المجال لحدوث تصادم بين هذه القيم ـ ذات الطابع الجماعي ـ وبين القيم المادية المفروضة من الخارج.

وهي عندما تجرد نظمها وقوانينها من كل القيم الروحية، والمرتكزات الباطنية، تسند تطبيقها للقوة والضبط الخارجي فحسب، وباستطاعة أي إنسان أن يخالف عن قوانين كهذه متى أحس أنه بمأمن من الرقابة الخارجية. . وما أكثر ما يجره الانحراف عن التنظيمات العامة من أضرار في شتى الاتجاهات. .

وهي إذ تفرض على الإنسان التعامل مع قوانين وأنظمة لا تلائم تكوينه الذاتي القائم ـ كما ذكرنا ـ على التوازن الدقيق بين المادية والروحية تغدو عرضة للتمرد والعصيان، الأمر الذي يدفعها ـ دوماً ـ إلى إعادة صياغة نظمها وقوانينها من أجل ضمان الطاعة والتوافق. . وخلال عمليات (إعادة الصياغة) هذه، يتبدد الكثير من الوقت والجهد والإمكانات. .

وهي تنادي بفصل الدين عن السياسة، لكي يتحرر ـ كما يقول دعاتها ـ من ظروف السياسة وملابساتها، «ولكي يسمح له بالانطلاق في مجاله الحيوي». وهي ـ بهذا ـ تقع في تناقض سافر صريح؛ إذ هي تعترف ـ بوضوح ـ بأن السياسة أداة لا أخلاقية، ولابد أن تمارس الانحراف عن القيم الخلقية المتعارفة لأسباب «تقتضيها ظروفها وملابساتها»، وما دامت هكذا فمن الخطأ ـ إذاً ـ إنزال الدين ـ «عن سمواته العليا إلى دركها»، درك هذه السياسة التي لا تتورع عن استخدام أي أسلوب دنيء يمكنها من الوصول إلى أهدافها بأسرع وقت مستطاع، ومن ثم فالعلمانية تعترف ـ أرادت أم لم ترد ـ بمبدأ ماكيافللي الشهير (الغاية تبرر الواسطة)، وهو مبدأ

يرفضه العرف الإنساني أشد الرفض لأنه مناقض لهذا العرف أساساً، ذلك أن للبشرية جوهراً مشتركاً يجعل الإنسان رهناً للمساواة بأخيه الإنسان، ومن هذه الزاوية يتضح الخطأ الفاحش عندما تسعى العلمانية ـ عن طريق السياسة ـ إلى إقامة صروحها، وتحقيق أهدافها على أشلاء الإنسان ومطامحه وقيمه ومصالحه العامة والخاصة.. عندما تدوس على القيم الأخلاقية في سبيل ما تعتقده غاية إنسانية نبيلة!! وكثيراً ما تتهيب العلمانية استخدام هذا المبدأ المنحرف على المكشوف، فتلجأ إلى تحقيقه من وراء ستائر الزيف والخداع، وأحياناً كثيرة من وراء لافتات كتبت عليها كلمات التحرر، والتقدمية، والإنسانية، والرغبة في القضاء على القيم والتقاليد ذات الطابع الرجعي!!

وواضح أن الاعتقاد بأن الدين أبعد ما يكون عن السياسة، وأنهما ضدان لا يجتمعان، اعتقاد باطل يقوم على جهل تام بطبيعة كل من الدين والسياسة، أو محاولة تطبيق موقف بعض العقائد ـ ذات الطابع الفردي ـ من السياسة، على الإسلام.. ذلك أن الدين ـ في حقيقته ـ منهاج شامل للحياة البشرية في شتى مجاليها، وليست السياسة سوى وسيلة واحدة من مجموعة طرائق يعتمدها هذا المنهج لتطبيق وتحقيق أهدافه الحيوية الشاملة.. وسيلة لتحديد علاقة الحاكم المسلم بالمحكوم في الداخل، وبالشعوب الأخرى في الخارج.. ومن ثم نزول الشبهة الأخرى التي تقول بأن السياسة أداة (لا أخلاقية).. وأنها لا يمكن ـ بحال ـ أن تتعاون وتتعاضد مع الدين.. تزول تلك الشبهة لأن السياسة ـ كما عرفناها ـ أداة علاقات ليست بحد ذاتها وسيلة لا أخلاقية، وإنما الذي يصدها عن الأخلاق إنما هي المذاهب الوضعية التي تحمل في تركيبها جرثومة العفن والفساد. وتزداد المشكلة سوءاً عندما يتسلم قيادة هذه المذاهب (طواغيت) لا اعتبار لديهم لأية قيمة خلقية متعارف عليها.. أما النظام الإسلامي، والزعامات الإسلامية، فلا يمكنهما بحال أن **ينحرفا بالسياسة عن التزامها الخلقي، لأنهما بذلك**

سوف يفقدان الدين الإسلامي طابعه الأخلاقي الأصيل. وهذا ينقلنا بالضرورة إلى النقيصة التالية:

وهي أن العلمانية تحدث ازدواجاً خطيراً في زعامتها، حيث نجد أولئك الذين يبلغون أعلى المناصب والمستويات العقائدية، يغرقون ـ في الوقت ذاته ـ في أدنى وأحط المستويات اللا أخلاقية.. ابتداء من التهافت على الملذات الدنيا وانتهاء بالنكوص عن تطبيق المناهج ـ التي أوصلتهم إلى الحكم ـ تطبيقاً ذاتياً على نفوسهم وأهليهم وذويهم، لأنهم لا يمتلكون في نفوسهم الدافع الذاتي للتغيير.. ومن ثم تنقطع الصلات العملية بين وجودهم الذاتي الذي ازداد نفعية وحسية واستغلالاً، وبين التغيير الخارجي الذي دعوا إليه يوم أن كانوا في القاعدة.. ولا يخفى ما في ازدواجية كهذه من مخاطر على مصير الأمة التي يتسلم زمام قيادتها قادة مزدوجون يحملون أسفاراً، ويقولون ما لا يفعلون!!

ثم إن العلمانية تغفل طبيعة الإنسان ـ مرة أخرى ـ عندما تعتقد بفكرة التطور المطلق الذي يشمل كل الخصائص والمقومات المادية والبشرية. فهي لا تلتفت إلى الخصائص الجوهرية الثابتة في كيان الإنسان، وتعتقد بأنه كائن متطور لا حدود لتطوره ولا انتهاء، وترسم مناهجها على هذا الأساس، وهي في حقيقتها مناهج قاصرة ومنحرفة ومتأرجحة، لأنها لا ترتكز على تلك الخطوط الثابتة المنبثقة عن الخصائص الأصيلة في كيان الإنسان. ففي الفترات التاريخية التي يلحظ فيها بوضوح انهيار القيم الأخلاقية ـ على سبيل المثال ـ تخرج العلمانية على الناس بمبادئ ومناهج تعكس هذا الانهيار، وتلتزمه، وتنظر إلى تلك القيم نظرة سالبة.. وتبرز مناهج وأفكار أخرى كرد فعل لهذا الانهيار، لكنها ـ هي الأخرى ـ تقع في خطأ (الانفعال) فتغرق في خضم من القيم المثالية (الطوبائية) التي لا رصيد لها من الواقع، والتي لا يكون مصيرها إلا الاصطدام بطبيعة الإنسان الحية

الواقعية.. وفي كلتا الحالتين دمار ذاتي للإنسان، وضياع للطريق الواضح، وبعثرة للطاقات البناءة، وشلل لقدرة الإنسان على الحركة والعمل.

والعلمانية ـ وهذه نقطة مهمة لأنها تتعلق بالشرق الإسلامي بالذات ـ تسعى إلى إغفال قضية التجربة التاريخية للأمة بجانبيها الحضاري والعقائدي، تلك التجربة التي يجمع المفكرون وفلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع والقانون على أنها المنطلق الرئيسي لمناهج تلك الأمة وسير حكوماتها في كل مكان وزمان. ذلك أن الأمة ـ بما تملكه من رصيد العقيدة والحضارة ـ إنما هي نتاج تعامل دائم مع تاريخها، ولو جردنا أية أمة من هذا التاريخ وما يحتويه من قيم وخصائص ذاتية، وحاولنا إقامة مناهج ومذاهب جديدة كل الجدة، منقطعة الجذور عن هذا التاريخ، لا تربطها به رابطة، ولا يشدها إليه سبب، فإن النتيجة المحتمة ستكون هوة سحيقة ـ لا يربط فوقها بجسر ـ تفصل الأمة وجدانياً وفكرياً وعملياً عن هذه المناهج والنظم، لأنها لم تتعامل معها يوماً، ولا تمثلت قيمها على المدى الطويل بحيث غدت جزءاً من تكوينها النفسي والاجتماعي، وخلايا حية في دمها وأعصابها..

وليس ثمة في تجارب رعناء كهذه، سوى تشتيت لطاقات هذه الأمة، وصدام دائم عنيف بينها وبين سلطات القوة التي تستهدف قهرها على اتباع مبادئ ونظم لا تنسجم وتكوينها الذي لعبت التجربة التاريخية دوراً أساسياً في صياغته وتعميقه وإغنائه بالخبرات والأحداث. وهذا هو الذي يفسر لنا الفشل الذريع الذي انتهت إليه ـ في الشرق الإسلامي ـ سائر المناهج والمحاولات العلمانية سواء كانت ديمقراطية برلمانية أو انقلابية عسكرية، ثم ما لبثت أن جاءت الثمرة المرة يوم قيل لقادة هذه النظم وزعمائها: اجتازوا بأمتكم الطريق الصعب، وجابهوا بمناهجكم المنبثة هذه تحدي يهودا!!



وفي الجهة المقابلة يقف الإسلام، هذا المنهج الإلٰهي المتفرد الذي يعرف كيف يخاطب الإنسان، ويتعامل مع تكوينه المعقد، ونسيجه الدقيق، وبنيته المعجونة من طينة الأرض والممزوجة بنور السماء.. المنهج الذي يتميز بخصائص تجعله يختلف ـ أساساً ـ عن كل مذهب وضعي خطه يراع إنسان، وهي الخصائص ذاتها التي تجعل من السخف والبلادة المتناهية ما يدعيه البعض من أنهم يؤمنون بالإسلام باعتباره دينهم الروحي فحسب، تلك هي التكامل والتداخل والتوازن.

فالذين يدركون حقيقة الإسلام، ويعيشون تجربته، يعرفون تماماً أنه نسيج وحده، وأن قطع أي خيط من خيوطه المحبوكة بإعجاز رائع كفيل بتمزيق هذه الوحدة المتجانسة.. إن الإنسان الذي يؤمن بالإسلام ذلك الإيمان المبتور، المشوه، سرعان ما يجد أمامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين، ذلك أنه محا الإيمان ـ في قرارة نفسه ـ من بعض عناصر ومقومات الإسلام، وأكده في عناصر ومقومات أخرى، وهو بعمله هذا لم ينل من وحدة الإسلام الدائم شيئاً، ولكنه وجه ضرباته إلى صميم الكيان الإنساني، وإلى وحدة الذات الإنسانية، ذلك أنه سيجد نفسه مضطراً إلى الاستعاضة عن العناصر والقيم التي رفضها، بعناصر وقيم أخرى يجيء بها من هنا وهناك، ويرصها رصاً.. عناصر لا تملك ـ بمجموعها ـ توحد القيم الإسلامية وتكاملها، لأنها لم تنبثق عن تصوره الأصيل.. ثم هي فيما بينها تعاني تناقضاً محزناً، لأن كل عنصر، أو كل مجموعة من القيم، جيء بها من تصور فرد من الأفراد، إنسان من ملايين الناس، وما هي في الحقيقة سوى نتاج ردود فعل نفسية وفكرية لهؤلاء الأفراد مع واقع معين بأمدائه المحدودة بحدود الزمان والمكان.. ومن ثم سيتشتت هذا الإنسان (الآخذ)، وسيضيع.. إنه آمن بوحدة عقائدية متكاملة ظاهراً، لكنه ـ في حقيقته ـ تكامل زائف، لأنه سعى إلى رص عناصر

لا انسجام فيما بينها ولا تآلف في تركيبها، وحاول ـ جهلاً وعناداً ـ أن يجعل منها منهجاً موحداً لحياة موحدة لا تقبل التجزئة!!

و(التداخل) هي الصفة الأخرى للمنهج الإسلامي.. وعلى الرغم من تقسيم الفقهاء والمشرِّعين المعروفين للإسلام إلى قطاعات أربع تشمل العقائد والعبادات وآداب السلوك والتشريعات: لغرض التوضيح والتنسيق، إلا أن هذه القطاعات جميعاً متداخلة فيما بينها تداخلاً عضوياً صميماً، كل منها مؤثرة في الأخرى ومتأثرة بها، لا تنفصل إحداها عن الأخريات، ولا تنزوي هنالك في الظلام كي تتيح للإنسان حرية العمل في القطاعات الأخرى كما يشاء وحسبما يملي عليه هواه.. إن العبادات ذاتها، كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه، إنما تعني ـ في الإسلام ـ ذلك المولد الحيوي الدائم الذي يبعث في كيان الإنسان المسلم الطاقة المتجددة التي تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضاري، وتلزمه بالعمل بكل أمانة وتجرد وإخلاص. فالشعور بالمسؤولية، ويقظة الضمير، والإحساس الحاد بالزمن، إنما هي أهداف أساسية لهذه الصلات اليومية بين الإنسان والله، أهداف تضفي على الحضارات (الدينية) طابعاً خاصاً من الحيوية والتجدد والاستمرار..

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، ووصف الأمة الإسلامية بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر..

إن العقيدة ـ فضلاً عن دورها الإيجابي في توجيه الطاقات البشرية نحو العمل والحركة الدائبة ـ فإنها تقف ـ في الوقت ذاته ـ سداً منيعاً يصد الإنسان، فرداً وجماعة، عن الانحراف عن الطريق المستقيم، ويشد أنظاره دوماً بالأفق الأعلى، فيوفر عليه طاقاته، ويحفظ سنيه المعدودة، على الأرض من الضياع، وذلك هو المعنى الحضاري لمفهوم التداخل في

الإسلام، ذلك الدين «الذي يصبغ كل حركات الأفراد، ويطبع أعمالهم بالطابع الإلٰهي، إنه ليصعد كل عمل من أعمال الدنيا إلى الله، وبذلك يكون الإسلام رسالة عالمية، يحمل فكرة عالمية، لخير الحياة كافة»[١]. . .

الدين الذي اضطر مؤرخٌ ك (جب) إلى أن يقول عنه، في كتابه (مستقبل الإسلام): «إنه ليس ديناً بالمعنى المجرد الخاص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال، يقوم على أساس ديني، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية».

إن الإسلام ـ كما يقول محمد إقبال ـ يبدو للإنسان ـ فرداً وجماعة ـ حقيقة واحدة، وليس هناك ـ إذاً ـ دين ودولة، فالحقيقة ـ في نظر الإسلام ـ هي بعينها تبدو ديناً إذا نظرنا إليها من ناحية، وتبدو دولة إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى، وليس صحيحاً أن يقال: إن الدين والدولة جانبان أو وجهان لشيء واحد. فالإسلام حقيقة مفردة ـ غير مركبة ـ لا تقبل التحليل، وهو يبدو في صورة أو في أخرى بحسب اختلاف نظرك إليه.. وهذا الأمر بعيد الأثر، وتوضيحه توضيحاً وافياً يزج بنا في بحث فلسفي عميق، وحسبنا أن نقول:

إن هذا الخطأ القديم ـ وهو الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ـ نشأ عن تفريع وحدة الإنسان إلى حقيقتين منفصلتين متمايزتين، تتصل إحداهما بالأخرى على وجه ما، ولكنهما أساساً متضادتان!! والحق هي أن المادة هي الروح مضافة إلى الزمن المكاني، والوحدة ـ التي نسميها الإنسان ـ هي جسم، إذا نظرت إلى عملها بالنسبة لما نسميه العالم الخارجي، وهي عقل أو نفس، إذا نظرت إلى عملها باعتبار ما له من غاية، وإلى المثل الأعلى الذي يستهدفه هذا العمل.. وروح التوحيد، بوصفه

(١) طه عبد الباقي سرور: دولة القرآن، ج ١، ط ٢، ص ٦٧.

فكرة قابلة للتنفيذ هو المساواة والاتحاد والحرية، والدولة في نظر الإسلام هي محاولة ـ تجربة ـ تبذل بقصد تحويل هذه المبادئ المثالية إلى قوى مكانية زمانية، هي الهام لتحقيق هذه المبادئ في نظام إنساني معين..»[(١)].

أما (التوازن)، صفة الإسلام الأساسية الثالثة، فهي تعني أن الإسلام لا يسمح بتحكم وطغيان بعض قيمه على حساب القيم الأخرى، الأمر الذي يجر مساوئ قد تلحق بوحدة الإنسان أو بنشاطه الحضاري، كأن تطغى الاهتمامات الروحية للإنسان على نشاطه المادي، وتصده عن الاستجابة (الطبيعية) لمتطلبات هذا النشاط الذي يتراجع وراء الاتجاهات الصوفية المتطرفة، أو أن تتحكم في سلوكه القيم المادية النفعية، وتسيطر على ذهنه وأعصابه فكرة الإسراف في إشباع حاجاته ودوافعه الغريزية، ولا يستطيع ـ من ثم ـ أن يستشرف الآفاق الإنسانية الرحبة التي جاء الإسلام ليسد مطامحه إليها.

۞ ۞ ۞

إن مجيء الإسلام على صورته هذه (المتكاملة) التي تضم جوانب الوجود الإنساني، (المتداخلة) التي لا تسمح بالفصل بين هذه الجوانب، (المتوازنة) التي ترفض تحكم وطغيان قيم ونشاطات على حساب قيم ونشاطات أخرى، إنما يوضح لنا ـ في الوقت ذاته ـ مبدأ من أهم مبادئ التاريخ. فلقد رأينا ـ في مدى هذا التاريخ ـ دولاً عظيمة تنهار، وحضارات عريقة تسقط، وكيانات قومية تتفتت، وإمبراطوريات دينية تتمزق.. لماذا؟ لأن (مجموعة المبادئ) التي حكمت هذه الدول وتلك الحضارات كانت تنقصها صفة أو أكثر من هذه الصفات: التكامل، التداخل، والتوازن.

(١) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الإسلام: ترجمة عباس محمود، طبع دار التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٥م)، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

المبادئ التي حكمت (أثينا) كانت تمثل الفصل، وعدم التداخل بين القيم المادية والروحية، والمبادئ التي حكمت (روما) كانت مبادئ مادية وثنية لا تقوم على التكامل بين القيم جميعاً، والمبادئ التي حكمت الإمبراطوريات الدينية الأوربية في العصور الوسطى كانت تمثل الانحراف وعدم التوازن بين الروح والمادة.. وهكذا سقطت حضارة أثينا، وانهارت حضارة روما، وغرقت إمبراطوريات الأديان في القرون الوسطى في خضم من الشقاء والجهالة والصراع. أما الحضارة المعاصرة فليست ـ كما يقول اشبنجلر في كتابه عن تدهور الحضارة الغربية ـ سوى «غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذي يستر فقرها الروحي، فهي سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذي أصاب الحضارات السابقة، تلك سنة الوجود، ولا راد لأمر الله»!!

وهكذا جاء الإسلام يمتلك تلك الضمانات الأساسية الثلاث، وهي تكامل قيم الوجود الإنساني، وتداخلها، وتوازنها، كيما يقيم دولته على هذه الأسس، ويشيد حضارته على تلك الأركان.. وستظل البشرية بحاجة أبدية إلى هذا الإسلام المتفرد، إذا ما أرادت ـ يوماً ـ أن تستعيد بتجربته المعجزة توازنها الأصيل الذي هو حجر الزاوية لسعادة الإنسان، ولنشاطه الحضاري، ولأداء دوره على الأرض كسيد للعالمين.. ومنفذ لأمر الله الذي لا يعجزه شيء في السموات والأرض.. ومن أجل ذلك حذر الله رسوله الكريم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾..، ومن أجل ذلك أيضاً أقسم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾!!






الفصل الثالث

العلمانية والمصير

العلمانية والمصير

الإنسان لا يقوم وحده، فهو مشدود إلى مجموعة من القيم، شاء أم أبى، وهو بناء على ذلك (ملتزم)، والإنسان (اللا ملتزم) غير موجود، والعلاقة بين الإنسان وهذا الالتزام هي علاقة فرض إرادي، أو فرض لا إرادي، المهم هو صفة الفرض المسلط على الإنسان. وكما أن (الجوهر) الإنساني لا يتحقق إلا (بالوجود)، لأنه لولا تزاوجه به لم يتحقق بالحياة والإنجاب والاستمرار.. كذلك الإنسان لا يتحقق إلا بالالتزام، لأنه بالتزامه المحتوم هذا سوف لا يترنح كالأشباح، دون أن تستقر قدماه على الأرض وينطلق إلى غاية.

الإنسان لا يقوم وحده: لأنه ليس خالق نفسه، فهو مشدود إلى خالقه وإلى النواميس الكبرى التي فطر الله الكون والخلائق والأشياء عليها. ولأنه لا يستطيع أن (يعطي) إلا بالتفاعل مع خارج (الأنا) المادي، فهو مشدود إلى الطبيعة، والاجتماعي، فهو مشدود إلى البشرية. وأخيراً فهو مشدود إلى طبيعته البشرية الذاتية وتكوينه الحيوي الخاص. وهكذا فإن هناك أربع قيم كبرى هي: العقيدة، الإنسانية، الطبيعة الخارجية، والطبيعة الداخلية. ولا نستطيع ـ من ثم ـ تصور إنسان ألغى صلاته نهائياً بهذه القيم جميعاً، لأنه سوف يتنازل ـ حينذاك ـ عن وجوده كإنسان قُدِّر له أن يلعب دوره في تاريخ الكون.

قد يقول قائل: ثمة كثيرون ألغوا صلتهم بالله أو الإنسانية أو الطبيعة، فهل دمر عليهم هذا وجودهم وإنسانيتهم؟ اعتراض وارد، لكننا بتعمق المشكلة سوف ندرك ـ مطمئنين ـ أن أحداً من هؤلاء لم يلغ صلاته بكل هذه القيم، من جهة، ولم يكن إلغاؤه جذرياً تاماً من جهة أخرى. فقد نجد

إنساناً عزف عن الطبيعة الخارجية واتجه إلى الزهد والتصوف والرهبانية، وقد نجد آخر كبت عقيدته وحسه الإيماني وانساق وراء إغراءات الطبيعة الخارجية ونداءات وجوده المادي، وقد نجد إنساناً **ثالثاً** يتمرد على جميع القيم الإنسانية، كالانتماء إلى الروابط والتشكيلات الاجتماعية، والتزام القيم الخلقية الكبرى كالواجب والمسؤولية، ويسعى إلى الحرية المطلقة التي لا تشده إلى قيمة ولا تربطه بشيء مسبق.. لكننا ـ رغم ذلك ـ لم نجد إنساناً ألغى صلاته بهذه القيم جميعاً، وإنما هو توسيع دائرة على حساب دائرة أخرى. كما أننا لم نحظَ بإنسان قطع صلته الواحدة كلياً مع إحدى هذه القيم الأربع.

ذلك أن هناك ـ كما قلنا ـ الالتزام المفروض، المسلط على الإنسان، الالتزام المنبثق عن بنية الكون ونظام العالم وطبيعة الوجود الإنساني ودور البشرية على الأرض وتركيبها الجماعي والفردي.

فأما فيما يتعلق بعقيدة الإنسان فهنالك (الفطرة) التي تكمن دائماً وراء خطوط الإلحاد الفكري أو النفسي أو السلوكي، و(دارون) الذي رفض ـ باسم العلم ـ أي مصدر فوقي لخلق الإنسان يقول: «كلما تذكرت ذلك الوقت الذي فكرت فيه بتركيب العين هزتني قشعريرة، أنا لا أعتقد أنه ليس ثمة إله للكون!!».

وأما فيما يتعلق بالطبيعة، الخارجية منها أو الداخلية (البيولوجية...) فهنالك ضرورات الإنسان تكمن دائماً وراء الرؤى الزائفة والمطامح الشاذة والانحرافات التي لا يتأتى لأحد أن يكون بمنأى عنها.. لقد عاد رهبان (العصور الوسطى) إلى الطبيعة، بقسوة متناهية وتهافت عجيب، على حساب الشعوب المسيحية، واندفعوا في طريقهم الجديد حتى جعلوا من الدين (أفيوناً للشعوب).. وأما فيما يتعلق بالقيم الإنسانية والخلقية، فهناك العلائق البشرية المتداخلة، والمصالح المشتركة، والأعراف العامة، والمصائر

الموحدة، تقف دوماً ترقب الخارجين عن القيم وتعيدهم إلى الحدود التي أبعدهم عنها تركيبهم النفسي أو وضعهم الاقتصادي، هذا فضلاً عن الإلزام الذي تمثله القوانين والمؤسسات الخارجية في هذا المجال.

❊ ❊ ❊

فالمشكلة التي أمامنا - إذاً - هي مشكلة (المحافظة على التوازن)، فلكي نجعل العلاقة بين الإنسان وبين القيم الآنفة علاقة ملتزمة بشكل إيجابي، علينا أن نحفظ توازنها، ولا يتأتى هذا التوازن إلا بالتخطيط العقائدي الذي يشمل كل جوانب الحياة والحركة. لقد لعب عامل (الانحراف) دوراً خطيراً في التاريخ، والتفسير التاريخي لابد وأن يعطي لهذا العامل دوره الفعال في سقوط الدول والحضارات.. فالحضارة (الكلاسيكية) سقطت لأنها خرجت عن القيم الخلقية والإنسانية، وغدا التزامها بها سلبياً. وحضارة (عصر الأحياء) سقطت لأنها خرجت عن العقيدة وغدا التزامها بها سلبياً. والحضارة (المسيحية) سقطت لأنها خرجت على الطبيعة - ببعديها الخارجي والداخلي - وغدا التزامها بها سلبياً.. فعندما تتضخم دائرة العقيدة على حساب الطبيعة، أو بالعكس، وعندما تتضخم دائرة الطبيعة على حساب القيم الإنسانية والخلقية - الأمر الذي تمارسه الحضارة الغربية المعاصرة - أو بالعكس، وعندما تغدو العلاقة بين هذه الدوائر جميعاً قائمة على الصدام والرفض والتناقض، أي عندما يحدث (الانحراف) ويفتقد عنصر (التوازن)، فإن الوجود الإنساني - آنذاك - سوف يفقد تكامله ويكف - بالتالي - عن عطائه الحضاري.

لقد كان قسم كبير من المسلمين، في القرون المظلمة التي أعقبت الاجتياح المغولي للحضارة الإسلامية، وسقوط بغداد، يخافون الطبيعة.. فصلوا بينها وبين العقيدة، وأقاموا العلاقة بينهما على الرفض والتناقض،

فلم يتحقق وجودهم الذاتي والحضاري بالتكامل، ولم يستطيعوا أن يسهموا في تعميق وإغناء الحضارة البشرية التي كان مركز ثقلها قد انتقل آنذاك إلى أوربة. ولقد عبر المفكر الإسلامي (محمد إقبال) عن هذه المشكلة تعبيراً دقيقاً في كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام)، ورفع صوته مطالباً المسلمين بالعودة إلى الطبيعة التي لا تصطدم مع التجربة الدينية، بل على العكس، فإن التجربتين متكاملتان في مداهما القريب والبعيد.

من هنا كان التخطيط الذي يستهدف التوازن لا يستطيع تحقيق أهدافه إلا إذا نظر إلى العقيدة والطبيعة والعلاقات الإنسانية نظرة شاملة ترى في هذه العناصر جميعاً قيماً متكاملة موحدة، ذات صلات التزامية عضوية، وإلا إذا استبعدت النظرة المجزأة الخاطئة التي تفترض التصادم والتناقض بين هذه القيم. ومن هنا أيضاً اعتبر التخطيط العلماني الذي يفصل بين العقيدة والطبيعة، وبين الدين والقيم، والمواضعات الإنسانية الجماعية وعلى رأسها (الدولة)، أو الفردية وعلى رأسها (العقل)، عاملاً من أهم عوامل عدم تكامل الوجود الإنساني، وفقدان العطاء الحضاري لمرتكزاته الطبيعة، فانهيار الحضارة بالتالي، «وما مرحلة الحضارة الحالية إلا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذي يستر فقرها الروحي. فهي سائرة بخُطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذي أصاب الحضارات السابقة، تلك سنة الوجود، ولا راد لأمر الله»[1].

فمصير الدول والحضارات إذاً، ومصير الوجود الفردي والجماعي، قبل ذلك، مرتبط بحالتين اثنتين:

أولاهما: سلبية لا يكون الالتزام فيها بين الإنسان والقيم المذكورة قائماً على أساس من التخطيط العقائدي، وهو في هذه الحالة معرض للانحراف،

---

(١) إزوالد أشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، عن كتاب طه عبد الباقي سرور: دولة القرآن، ص٢٦.

كما هو الحال في المجتمعات الرأسمالية حيث نجد التناقض قد بلغ أقصاه، وحيث نستطيع أن نميز عدة مجاميع وتشكيلات ومؤسسات يسود الرفض والتصادم العنيف علاقاتها جميعاً، الأمر الذي دعا المربي الأمريكي البراجماتي (جون ديوي) إلى تركيز جل اهتماماته لإيجاد وسيلة يخلص بها المجتمع الأمريكي من هذا التصادم. فهناك رجال الدين ورجال الصناعة، وعلماء الأخلاق ورجال السياسة.. إلخ. وقد خرج من محاولته هذه بفلسفته العملية (البراجماتية) التي لا تعدو أن تكون ـ هي الأخرى ـ صورة من صور الانحراف، وذلك بجعلها الإنسان قيمة (نفعية) فحسب[١].

أما الحالة الثانية: فهي ذات شقين يستهدفان معاً جعل الالتزام ينبثق عن تخطيط شامل، إلا أن أولهما يقيم تخطيطه هذا، إما على أساس مادي محض، وهو بهذا يفتح المجال لحدوث الانحراف بشكله المطلق نتيجة عدم الإيمان بدائرة (العقيدة) ابتداء، وبقطاع واسع من القيم الخلقية والإنسانية، كما هو الحال في المجتمعات الشيوعية حيث يمسخ الإنسان، وحيث تسحق الحرية الفردية من أجل «إقامة الملكية الشيوعية مقام الملكيات الخاصة، وذلك لأن هذا التحويل الاجتماعي الهائل، على خلاف الطبيعة الإنسانية العامة إلى الآن على الأقل ـ كما يعترف بذلك زعماؤه ـ باعتبار أن الإنسان المادي لا يزال يفكر ذاتياً ويحسب مصالحه من منظاره الفردي المحدود. ووضع تصميم جديد للمجتمع، يذوب فيه الأفراد نهائياً، ويقضي على الدوافع الذاتية قضاء تاماً، موضع التنفيذ، يتطلب قوة حازمة تمسك زمام المجتمع بيد حديدية، وتحبس كل صوت يعلو فيه، وتخنق كل نفس يتردد في أوساطه، وتحتكر جميع وسائل الدعاية والنشر، وتضرب على الأمة نطاقاً لا يجوز أن تتعداه بحال، وتعاقب على التهمة والظنون لئلا يفلت

(١) انظر كتابي: (تجديد في الفلسفة) و(فلسفة التربية) لجون ديوي.

الزمام من يدها فجأة. وهذا أمر طبيعي في كل نظام يراد فرضه على الأمة قبل أن تنضج فيها عقلية ذلك النظام وتعم روحيته»[١].

أو أن يقيم تخطيطه على أساس علماني، وهو بهذا أيضاً يفتح المجال لحدوث الانحراف بشكله النسبي، إذ إنه يستبعد العامل الديني من دائرة النشاط الجماعي والمؤسسات العامة، كما هو الحال في بلادنا العربية والإسلامية، وفي معظم دول العالم الثالث التي أرادت أن (تفلسف) كيانها السياسي.

أما الشق الآخر فهو وحده الذي يسعى إلى إقامة تخطيطه على أساس متوازن موحد شامل، لا يفصل بين العقيدة والطبيعة والقيم، بل على العكس، يرى بوضوح تام تلاؤمها وتداخلها وتكاملها، ومصدرها الواحد، ومصيرها المشترك. وهو بهذا لا يتيح أي مجال لحدوث تصادم فيما بينها، ويكون ـ بهذا ـ قد جعل من التزامها الإيجابي من قبل الإنسان عاملاً أساسياً في تكامل الوجود الإنساني وإقامة حضارة أصيلة تحمل في تكوينها عناصر الحركة والتطور الأبديتين. هذا ما يهدف التخطيط الإسلامي إلى تحقيقه في هذه الفترة التي حكمت العالم فيها ثلاث قوى رئيسية هي الرأسمالية الارتجالية، والشيوعية المادية، والقومية العلمانية، وهذا التخطيط بالذات هو الذي تحقق في فترة من التاريخ وصل فيها التكامل الإنساني والعطاء الحضاري القمّة السامقة.

❁ ❁ ❁

التزام الإنسان ـ إذاً ـ بالعقيدة والطبيعة والقيم الإنسانية لا يكون إيجابياً متحققاً بالوجود والعطاء الحضاري إلا باستناده إلى دين شامل، إلى تخطيط

(١) محمد باقر الصدر: الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية، ص ٥٩ ـ ٦٠.

عقائدي متكامل. ذلك أن التخطيط لا يحقق هدفه بالتوازن بين القوى، وعدم الانحراف، إلا إذا كان قائماً على تصور موحد شامل للكون والحياة والإنسان. أما إن كان ـ عكس ذلك ـ تصور محدود، يسعى إلى الفصل بين القيم وإلى خلق عوامل الرفض والتصادم القسري فيما بينها فإن النتيجة الحتمية هي فقدان الالتزام الصحيح المسؤول، واختلال التوازن، ومن ثم ضياع الإنسان وحضارته، وهو المصير الذي انتهت إليه الدول والحضارات العلمانية في التاريخ، وستنتهي إليه لا محالة.

إن الإنسان المتكامل، المتوازن، لا يتحقق إلا بصدوره، عن دين (منهج أو تخطيط) يجعل من الالتزام بالعقيدة والطبيعة (الخارجية والداخلية) والقيم الإنسانية ذا صفة إيجابية. هذا الإنسان الذي يشكل ـ في الحقيقة ـ الضمانة الوحيدة لبقاء واستمرار الحضارة البشرية. ولتوضيح ذلك يمكن القول بأن العقيدة + الطبيعة (الداخلية والخارجية) + القيم الإنسانية (التي هي حصيلة تراث البشرية وأعرافها وتقاليدها وتجاربها)، لن تؤتي ثمارها الحضارية الناضجة إلّا بواسطة دين (أي تخطيط أو منهج شامل) يقوم بتنظيم التزام الإنسان، المتوازن المتكامل، بهذه العناصر الثلاثة في المعادلة. وما من شك في أن افتقاد إحدى هذه العناصر أو رفضها أو إضعاف فاعليتها، سوف يعطل (طبيعية) التفاعل وبالتالي يجمد النشاط الإنساني في ميدان الحضارة، وهو المصير الذي انتهت إليه سائر الحضارات الوضعية والعلمانية.

ولسنا هنا بصدد تحليل عناصر المعادلة الحضارية آنفة الذكر، وإنما توضيح دور الدين كـ (معامل) لابد منه في الوصول بالمعادلة إلى هدفها الإيجابي، ودور العقيدة كجانب من أهم جوانب الارتباطات بين الإنسان والكون الذي يضطرب فيه، ولكي نعرف كم هي مرة النتائج التي انتهت إليها التجارب العلمانية التي رفضت الدين والعقيدة كعناصر أساسية في إقامة البناء.. ولقد مر بنا ـ من قبل ـ كيف أن الإنسان ـ أنى كان ـ ملتزم بالله

عقلاً أو فطرة أو وجداناً. وقد كانت الظاهرة التي عبرت عن هذا الالتزام، طوال الفترة التي سبقت مجيء الإسلام، هي (الإيمان) بصيغته الداخلية (السلبية) التي لا تتحقق بالعمل. ولقد نتج عن هذه الظاهرة وقوع عدد من المفكرين في خطأ الاعتقاد بأن الأديان السماوية التي سبقت الإسلام نزلت أساساً لكي تقتصر على دائرة القلب والباطن دون أن تتعداها إلى دوائر الطبيعة والعلاقات الجماعية.

والحق أن الأديان السماوية جميعاً لم تسعَ يوماً إلى هذه الثنائية المصطنعة بين الباطن والظاهر، والفردية والجماعية، والأرض والسماء.. لأنها جميعاً صدرت عن إرادة الله الواحد الذي هو في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه.. وليس من المقبول أن تجربة يمارسها الإنسان في عالمه الباطني لا تلقي تأثيراتها على عالمه الخارجي وعلاقاته وارتباطاته.. إلا أن القسر الذي استخدم ضد تلك الأديان، وطبيعة الظروف التاريخية التي أحاطت بها، والانحرافات التي مارسها أتباعها أنفسهم، هي التي خلقت هذه الثنائية الزائفة وأتاحت لبعض المفكرين قولاً كهذا.. من أن سائر الأديان التي سبقت الإسلام لم تكن سوى فعاليات روحية شعائرية، جاءت لتنظم العلاقة بين الإنسان الفرد وخالقه، تاركة (الفعاليات الدنيوية) للقوانين الوضعية.

وهكذا وعن طريق تلك الأخطاء التاريخية والتصورية التي مارسها أتباع تلك الديانات، لم يعد ثمة سوى طريق واحد للتعبير عن الالتزام الديني، ألا وهو (الإيمان)، بمعنى الإقرار القلبي الذي لا يتعداه إلى (إسلام) الفرد لله سبحانه في شتى مجالات حياته، وقد نتج عن هذا الإيمان مظاهر من السلوك لم تتعدّ محيط الدائرة الأخلاقية. وهكذا غدا الدين ـ والحال هذه ـ أحد مقومات المجتمع العلماني، حيث كان يرى بوضوح الفصل بينه وبين الطبيعة من جهة، وبينه وبين القيم الإنسانية وعلى رأسها العقل والدولة من جهة أخرى.

وغدا الإنسان الديني يعيش أزمة عنيفة؛ فهو لم يستطع أن يتوحد مع ذاته، ففعالياته الروحية غير منسجمة ولا منسقة مع ممارساته الدنيوية، كما أنه لم يستطع أن يتوحد مع مصيره، إذ كان يشده مصيران: مصير الدنيا ومصير الآخرة. إنسان موزع بكل معنى الكلمة. وقد أصبح عليه أن يختار أحد المصيرين لأنه فهم أن التناقض بينهما عميق، بعيد الأغوار، لا مجال معه للتوافق والانسجام. وإذا رأى في الدنيا عرضاً زائلاً، وفي الآخرة حياة خالدة، فقد ضحى بمصيره الأول في سبيل المصير الآخر، وركز فعالياته ونشاطه جميعاً ليشد ذاته بهذا المصير. وهذا هو الذي يفسر لنا انتشار (الرهبانية) كنظام للحياة، بعد فترة قصيرة من ظهور المسيحية، وكان نتيجة ذلك كله أن غدا الإنسان الديني إنساناً سلبياً، وأصبح الدين نفسه قيمة سالبة، وتبلورت القطيعة المرة بين الالتزام الديني والعطاء الحضاري، وهي النتيجة المحتمة للتناقض الذي اصطنعه ذلك الإنسان بين الدين والطبيعة والعقل..

ـ *«صباح الخير أيها الأب فالكس. انظر إلى البحر..»*.

«كان ضوء النهار والألوان قد ظهرت مع الشمس. كنا واقفين في مقدمة السفينة يداعبنا نسيم الصباح.. وحاولت أن أعين في ذات نفسي حركة الألوان في الأمواج المتكسرة: أزرق؟ أخضر؟ رمادي؟ وشعرت بشيء من القلق الجسماني لعدم استطاعتي أن أمسك بهذا التلاعب اللوني للبحر، وتبدله المنتظم الأبدي.. لأن التركيز المتعمد، أعني عادة وصل مفهوم منعزل بآخر، لم يؤدِّ إلى شيء سوى صور منفصلة متقطعة. ولكن فكرة بدت لي بوضوح كبير نتيجة لهذه الصعوبة، هذا الاختلاط المقلق إلى درجة غريبة.. فقلت بطريقة تكاد تكون لا إرادية:

ـ *«إن كل من يستطيع أن يفهم كل هذا بمشاعره ربما يكون قادراً على السيطرة على مصيره؟»*

فأجابني الأب فالكس:

- «إنني أعرف ماذا تعني. ولكن لماذا يجب أن يرغب المرء في السيطرة على مصيره؟ الهرب من الألم؟ ألا يكون من الأفضل أن يكون المرء حراً من المصير؟».

- «إنك تتكلم كالبوذي أو تكاد، أيها الأب فالكس، هل تعتبر أنت أيضاً الفناء هدف كل كائن حي؟».

- «آه.. كلا.. طبعاً لا.. نحن المسيحيين لا نهدف إلى خمود الحياة والحس. نحن نرغب فقط في أن نسمو بالحياة من نطاق المادة إلى عالم الروح..».

- «ولكن أليس هذا نبذاً للحياة؟».

- «إنه ليس نبذاً للحياة، يا صديقي الشاب.. إنه الطريق الوحيد إلى الحياة الحقيقية، إلى السلام.. أترى؟ إن أعمق رمز للشوق - شوق جميع الناس - هو رمز الفردوس. إنك تجده في جميع الأديان، دائماً في صور مختلفة ولكن المعنى هو نفسه دائماً: الرغبة في الإفلات من المصير. إن الناس في الفردوس لم يكن لهم مصير. إنهم لم يكتسبوه إلا بعد أن خضعوا لإغراء الجسد ووقعوا بالتالي فيما نسميه الخطيئة الأولى: تعثر الروح بدوافع الجسد التي هي في الحق ليست سوى البقايا الحيوانية في الطبيعة الإنسانية. إن الجزء الجوهري الإنساني، الإلهي الإنساني، في الإنسان، هو روحه وحدها. إن النفس تسعى نحو النور الذي هو الروح. ولكن بسبب الخطيئة الأولى، تعترض طريقها عقبات ناشئة عن تركيب الجسم ودوافعه المادية غير

الإلـٰهية. وإذاً فإن ما يهدف إليه التعليم المسيحي هو تخليص الإنسان نفسه من وجود حياته العرضية الزائلة الحيوانية، وعودته إلى ميراثه الروحي..».

- «قد يكون ذلك أيها الأب فالكس. ولكنني أشعر، وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي، أشعر أن هناك خطأ ما في التمييز بين (الجوهر) و(العرض) في تركيب الإنسان، وفي التفريق بين الروح والجسد. باختصار، إنني لا أستطيع أن أقر أن الدافع الجسماني والجسد والمصير الدنيوي خالية من كل صلاح. إن رغبتي تسير في اتجاه مخالف، إنني أحلم بشكل من الحياة، ولو أنني يجب أن أعترف بأنني لا أراه بوضوح إلى الآن - فيه يسعى الإنسان كله - روحاً وجسداً - ويجاهد في سبيل تحقيق ذاتي أعمق، شكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيره، بحيث إنه يستطيع أن يقول في أوج أيامه: إنني أنا مصيري»][(١)]!!

في هذا الحوار تتجسد أمامنا نظرة الإنسان الأوربي الديني إلى الحياة والوجود، فهو يرى أن الهدف الرئيس، بل الأوحد، للإنسان، هو أن يسمو بالحياة من نطاق المادة إلى عالم الروح، ويراه الطريق الوحيد إلى الحياة الحقيقية والسلام. فحقيقة الحياة وسلام الإنسان لا يتحققان إلا بهذا الفصل القسري بين المادة والروح، وتخليص الروح من شد المادة التي يعتبرها بقايا حيوانية في الطبيعة الإنسانية. وإنه ليعتقد بأن هذه (البقايا الحيوانية)

(١) محمد أسد: الطريق إلى مكة، ص ١٠٨ - ١١١ (ترجمة عفيف البعلبكي).

ما هي إلا العقاب الذي فرضه القدر على الإنسان بسبب خطيئته الأولى. ذلك أن الجزء الجوهري في الإنسان، وهو الروح، يتعثر في طريقه إلى مثله الأعلى بعقبات ناشئة عن تركيب الجسم ودوافعه المادية. وهو إذ يعاني تجربة الصراع المرير مع مصيره، من جراء التناقض الذي اصطنعه بين الدنيا والآخرة، وبالتالي بين مصيره هنا ومصيره هناك، بين (قيصر) الذي يشده إلى اليمين و(الإله) الذي يشده إلى الشمال، هو إذ يعاني هذه التجربة، ويستشعر معها مأساة الوجود الممزق والشخصية المزدوجة، وضياع المصير، يتخذ من الفردوس، كرمز مجرد، وسيلة لا لتحقيق وجوده الأرضي، وتشكيل مصيره، بل لرغبته ـ كما يقول الأب فالكس ـ في الإفلات من المصير!!

❁ ❁ ❁

هذا هو أحد جانبي الصورة التحليلية للإنسان في المجتمع العلماني، أما الجانب الآخر من الصورة فهو الذي يعطينا ملامح الإنسان (المدني)، ذلك الذي لا يلتزم بالدين ولا يصدر عنه، إنما يصدر عن مجموعة من الأنظمة المدنية في علاقاته الجماعية، وعن التسيب والارتجال في سلوكه الفردي. هذا الإنسان، هو الآخر، يعيش في (أزمة) إذ هو لم يتمكن من تحقيق التوافق والانسجام بين تجربته الواقعة وبين حاجاته الذاتية ومطامحه الروحية الملحة، بما أنه نسيج معقد متشابك من المادة والروح. فهو إذ يشبع احتياجاته المادية، ويستجيب لدوافعه المباشرة، القريبة، يبقى متعطشاً لإشباع احتياجاته الروحية، والاستجابة لدوافعه البعيدة الكامنة في الأعماق، سواء أدرك هذا الإحساس بوضوح أم بشكل غامض غير ملموس..

ومن ثم يظل كطير مهيض الجناح إذ يرى المجال الديني قريباً منه ولكنه لا يستطيع الاقتراب والمشاركة الدينية لاعتقاده العميق أن مشاركة كهذه سوف تبعده عن تحقيق وجوده المادي المباشر، وتفصله عن مصيره القريب،

وتعلقه بالغيب البعيد، بل هي تمنعه حتى من إشباع أشد ضروراته الحيوية (البيولوجية) قرباً وإلحاحاً. ذلك أن هذه الضرورات ـ في نظر الدين الغربي ـ ليست ـ كما مر بنا ـ سوى بقايا حيوانية مترسبة في أعماق الإنسان، وأن مجرد التفكير بإشباعها والاستجابة لنداءاتها الملحة يعد خطيئة كبرى.

يظل هذا الإنسان لا منتمياً، إذ ليس ثمة مجال للانتماء.. الانتماء إلى فكرة أو دين أو مذهب عام يفسر الكون والوجود والعالم تفسيراً مقبولاً.. مذهب يطلقه من سجنه، ويكسر جدران عزلته، ويبعث إنسانيته، ويحقق له وجوده.. وهو لا يجد منافذ طبيعية لطاقاته المكبوتة يصرفها بالإيجاب.. ويشعر أنه ضائع، وأن الحياة ليست سوى وحش مخيف يفترس كل الأشياء الجميلة، وأن الإنسان ليس سوى لعبة بيد القدر يشكل مصيره كيفما يشاء.. باختصار هو (سيزيف) الشقي بطل العبث واللا جدوى.. وهذا هو الذي يفسر لنا ظهور (اللا منتمين) وتزايدهم الدائم في المجتمعات العلمانية. وكان نتيجة ذلك كله أن غدا الإنسان المدني، تماماً كالإنسان الديني، معذباً مهزوماً، بعيداً عن الإسهام المسؤول في تحمل أعباء البناء الحضاري، وتعميقه وإغنائه.. وكيف؟ وهو قد «استغرق في الواقع ـ أي في مصدر الحس الظاهر للعيان ـ فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد. وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ـ هذه ـ هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه، والذي أدركه (هكسلي) وأعلن سخطه عليه»؟[1]. وهو أمر حتمي بسبب التناقض الذي اصطنعه ذلك الإنسان بين الدين والطبيعة والقيم.

وهكذا.. ففي المجتمع العلماني نجد ثمة طاقات إنسانية شتى (جمدت) أو أبعدت قسراً عن العطاء الحضاري لأنها ـ تارة ـ تبنّت الدين الذي فصلته

(١) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الإسلام، ص ١١٥ ـ ١٢٦ (ترجمة عباس محمود).

عن الحياة، وتارة أخرى تبنت الدنيا التي فصلتها عن الدين. وفي كلتا الحالتين لم يكن ثمة تخطيط صحيح يكفل التوازن والوحدة والتكامل في التزام الإنسان للعقيدة والطبيعة والقيم الإنسانية.. وكما كان لهذا الالتزام السالب أثر مباشر على الجانب الحضاري، فقد كان له ـ كما رأينا ـ أثر مباشر أيضاً على صميم الكيان الإنساني الذي فقد وحدة ذاته من الأعماق، وأحاط بالاضطراب وسوء التفاهم علاقاته الطبيعية بالوجود الخارجي المادي والاجتماعي والإنساني.. وفوق هذا وذاك، فقد ضاع منه المصير هنا في الأرض وهنالك في السماء..

في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الإنسان، بناء على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته اعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح، والجدران التي أقامها بين تجربتي الحس والوجدان، والجفاء الذي باعد به ـ زيفاً ـ بين عالمي الحضور والغياب، بين ما هو قريب مرئي وما هو بعيد لا تراه العيون.. والتصور الذي يصدر عنه ذلك الإنسان لا يوائم ـ بحال ـ بين العلاقات المعقدة المتشابكة التي تحكم الكون والعالم والحياة، بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعاً، يمزقها تمزيقاً، ويعمل فيها تقطيعاً وتشويهاً، فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة، وما بينها جميعاً من وشائج وارتباطات، تغدو في حس (العلماني) وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصدام والجفاء.. الدين يتناقض مع العلم، والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس، والمذاهب الطبيعية لا تلزم نفسها بقيم خلقية أو إنسانية.. وهكذا.. سلسلة من المصادمات لا تقتصر آثارها السيئة على العالم الخارجي فحسب، بل في أعماق الإنسان وتجربته الذاتية كذلك.. ذلك أن كل قيمة أو طاقة أو فاعلية ممّا ذكرنا ترسم له مصيراً معيناً وتسعى إلى شده إليه، فيغدو بالتالي مشدوداً إلى مصائر شتى، متفرقة، متناقضة، لا يسودها التوحد والانسجام. وهذا

هو السبب العميق الذي يؤدي ـ في العلمانية ـ إلى التمزق والازدواج. فالإنسان العلماني يقسم فعالياته الحياتية إلى قطاعات ومساحات منفصلة يسعى في كل منها إلى تشكيل مصيره في إطار ذلك القطاع، أو تلك المساحة، وبطريقة (انعزالية) تماماً عن سائر الفاعليات. وهو، خلال ذلك، لابد وأن يشعر بالتناقض المرير بين فاعليات حياته جميعاً.. وينظر ـ أخيراً ـ فيرى حياته وقد تشتّتت، وكيانه الذاتي وقد أصيب بالازدواج «أشعر، وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي، أشعر أن هناك خطأً في التمييز بين (الجوهر) و(العرض) في تركيب الإنسان، وفي التفريق بين الروح والجسد.. إنني أحلم بشكل من الحياة فيه يسعى الإنسان (كله) روحاً وجسداً في سبيل تحقيق ذاتي أعمق، بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منها للآخر، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيره»[١].

لقد فتح ذلك الإنسان وعيه على حقيقة محزنة وهي أن ليس ثمة مصير موحد يتحقق به وينتمي إليه، ومن ثم غدت حياته مزقاً مبعثرة لا يجمعها رباط، ولا يشدها مصير.. يدخل المحراب ليسجد لله ويلعن الطبيعة، ويخرج إلى المصنع لينحني للآلة ويكفر بالله.. يركض وراء (العقل) ليخطط له منهاجاً في الحياة الجماعية، ويسعى إلى الدين ليهبه الطريق في حياته الفردية.. دنياه تتجه إلى الشمال وأخراه تتجه إلى اليمين، فإن أراد الدنيا ابتعد عن الآخرة، ضاع منه مصيره الخالد.. وإن أراد الآخرة ابتعد عن الدنيا، ضاع منه مصيره الحيوي الواقعي القريب.. وإن وقف في المنتصف يريد أن يوحد مصيره: هنا وهناك، روحه وجسده، عقله وإلٰهه، محرابه ومصنعه، تمزق!! لأنه يعتقد ـ حتى قرارة ذاته ـ أن إرادة الله تسير باتجاه معاكس تماماً لإرادة الإنسان. ولما كانت حياة الإنسان لا (تفرغ) من

(١) الطريق إلى مكة، ص ١١٠ ـ ١١١.

المعنى، بل هي استمرار شعوري أو فكري أو عملي، ولما كان هذا الإنسان في حالة الاستمرار التي يحياها، يسعى إلى تشكيل مصائر شتى اصطنع بينها التناقض والصدام.. فيمكن القول ـ عندئذ ـ: إن وحدته قد غدت زائفة تماماً، وأنه قد حرم من مصيره عن طريق تشويه وتمزيق التزاماته بالقيم التي تسود الكون والحياة والعالم، بحيث يستطيع أن يقول في أوج ضياعه: أريد أن أفلت من المصير!!

إنسان سحقه القلق وأرهقه العناء: «.. وعندما نظرت إلى وجهه خيل إلي أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقاً، لا قلقاً فحسب بل شقياً بصورة حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان ألماً، ألماً غير جسماني.. وأشحت بوجهي عنه، فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظرف. لقد كان وجهها هي أيضاً يعبر تعبيراً غريباً عن عدم سعادتها، كأنما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم.. وعندئذ أخذت أجيل بصري في جميع الوجوه الأخرى ـ وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الحسنة ويقتاتون بالغذاء الجيد ـ وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيراً عن الألم الخبيء، الخبيء إلى درجة أن صاحبه بدا وكأنه لا يشعر به. والحق أن هذا كان غريباً، فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه التعسة من حولي، أو لعلي لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك الجهارة..؟ انهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم..

وإنني لأتساءل هل يعرفون هم أنفسهم ماذا يعتمل في نفوسهم؟ لقد عرفت أنهم لم يكونوا يعلمون، وإلا لما كان باستطاعتهم أن يستمروا في إضاعة حياتهم وتبديدها، كما كانوا يفعلون، دونما أيما إيمان بالحقائق الرابطة، دون أيما هدف أبعد من الرغبة في رفع (مستوى معيشتهم)، دون أيما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية، والمزيد من الممتلكات، ولربما المزيد من

القوة.. ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾..»[1].

❁ ❁ ❁

إن هذا الصراع المرير الذي شهده (الغربي) بين الروح والمادة، والذي بدأ بعالمه الباطني وانسحب على كل الالتزامات والعلائق الخارجية، لا يعود ـ كما ذكرنا ـ إلى طبيعة المسيحية التي جاءت ـ كأي دين سماوي ـ منهجاً لمجابهة انحرافات المبادئ الوضعية في أطرها التاريخية، وإنما يعود إلى بنية وتركيب التاريخ الطويل الذي مرت به الجماعات الأوربية منذ فجر الحضارة.

فمنذ ذلك الوقت كان الإنسان الأوربي يفترض مجموعة هائلة من الآلهة التي اتخذ إزاءها موقف الصراع والمقت والعداء، حيث اعتقد بأن أغلبيتها الساحقة تسعى لتحقيق (مصالحها الذاتية) على حسابه.

ولقد عبرت معطيات اليونان الحضارية الأولى ـ حيث يشكل الفن إحدى قممها ـ عن هذا الصراع الحاد، اللا منتهي بين الإنسان وآلهته. وإذ كان الأدب المسرحي ـ الأسطوري المقام على الميثولوجيا اليونانية يشغل حيزاً كبيراً من حياة اليونانيين وثقافتهم، فلا غرابة أن نجده يعبر ـ قبل كل شيء ـ عن أهم ما كان يشغل الوجود اليوناني ألا وهو الصراع بين الإنسان وآلهته.

و(أوديب) كبرى التراجيديات اليونانية، تقوم عقدتها ـ أساساً ـ على «الاختلاف بين (أوديب) الذي يعتد بنفسه حتى يبلغ الغرور، وحتى يجحد الآلهة، والكاهن الذي يريد أن يبسط سلطان الدين، وأن يسيطر من طريق هذا السلطان على كل شيء، وعلى كل إنسان.. وليس الوباء الذي ألمَّ

(١) الطريق إلى مكة، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

بالمدينة، وليس البحث عن مصدر هذا الوباء، وليست استشارة الآلهة لتعرف هذا المصدر، وليس استكشاف المجرم الذي قتل أباه وتزوج أمه، ليس هذا كله إلا مظاهر لهذا الصراع بين حرية الإنسان واعتداده بنفسه حتى يبلغ الغرور، وبين سلطان الإلٰه وتفوقه على غرور الإنسان»[1].

في تراجيديا (سوفوكل) الكبرى (أوديب) نجد إذاً ذلك الصراع المحزن بين الإنسان وآلهته والذي ينتهي بتضحية البطل بأثمن ما يملك حينما يفقأ عينيه من أجل أن يتحدى إرادة القدر التي ترمز للآلهة، ويجيبها بالمنطق الرهيب الذي لا تفهم سواه. وإن قارئ المسرحية لا يستطيع ـ بحال ـ أن يتجنب مشاعر الحقد ضد الآلهة التي تعبث بمصير الإنسان، وشعور الأسى على الإنسان المقهور، ذلك أن العلاقة بين الإنسان وآلهته علاقة صدام قاس عنيف، يبدأ بالوباء الذي تصبه الآلهة على الشعوب وينتهي بالوعي المباشر للسقطة الأخلاقية الكبرى التي حاكتها الآلهة وقدرتها لكي تلهو بمنظر أوديب المحزن وهو يغرز المسامير في عينيه!!

ثم إننا نلمس في هذه المسرحية ـ وغيرها من الأعمال الغربية ـ طبيعة نظرة الإنسان الأوربي المدني إلى رجال الدين، أو الكهنة، إنه يعتبرهم (جماعة من الأنانيين) مثلها الأعلى هو (مصلحتها الذاتية). وهي مستعدة لأن تسلك أي طريق من أجل تحقيق أهدافها تلك، حتى ولو كان طريقاً لا أخلاقياً مناقضاً ـ منذ الخطوة الأولى ـ لما يدعون إليه، بل إن وجودهم أساساً (وجود لا أخلاقي) لأنه قائم على فكرة استغلال القيم الدينية المقدسة في سبيل تطمين شهواتهم الدنيئة. فها هنا نجد الكاهن «يريد أن يبسط سلطان الدين، وأن يسيطر من طريق هذا السلطان، على كل شيء وعلى كل إنسان». .

---

(١) طه حسين: مقدمة أوديب لسوفوكل وأندريه جيد، ص ٢٠ ـ ٢١ (مطبوعات كتابي).

كذلك كان موقف الأكثرية الساحقة من رجال الكنيسة في العصور الوسطى، وفيما بعد العصور الوسطى، بدليل اقتران تنظيماتهم الكنسية بالإقطاع ومصالح الملكيات الكبيرة. وهكذا فإن نظرة (المدني الأوربي) لها سندها التاريخي، وهي التي طبعت موقفه الدائم من رجال الدين، وكان لها دورها الفعال في (نفور) هذا الإنسان من القيم والالتزامات الدينية ذاتها لأنها عدت وسيلة للظلم والاستغلال. وما من شك في أن الدين ـ ذاته ـ عندما يفصل عن الحياة ويغدو مجرد شعائر، وعندما يمنع الإنسان ـ من جهة أخرى ـ عن الاتصال المباشر بالله، يصبح وسيلة سهلة للاستغلال والتحكم. وما من شك ـ أيضاً ـ في أن الدين عندما يتصل بالحياة، والإنسان بالله، يغدو عاملاً أساسياً في توجيه الأفراد الذاتي وإيقاظ ضمائرهم، وتحميلهم مسؤولياتهم. هذا فضلاً عن أنه سيكتسب طابع الواقعية الجماعية، وينأى عن احتكار جماعة من المحترفين.

لقد أشرت إلى مسرحية (أوديب) بالذات لكون الصراع الثنائي فيها قائم على الأساس الذي ألفه المسرح الغربي وهو التناقض بين حرية الإنسان وبين قدره المفروض عليه بالعنف والإكراه.. حيث يسعى الإنسان دائماً إلى تحقيق حريته وتشكيل مصيره، وحيث تقف الآلهة بالمرصاد لهذا السعي وتسوقه أبداً إلى المصير الذي لم يكن الإنسان يريد الذهاب إليه.. وهي هي المشكلة التي امتدت عبر القرون الطويلة، فعبرت عن نفسها في (استسلامية) العصور الوسطى، ثم امتدت لتعبر عن نفسها في (وجودية) القرن العشرين. فالركيزة الأولى للفلسفات الوجودية هي (الحرية) التي لا يتحقق وجود الإنسان إلا بها. ومن خلال نضال الإنسان للتحقق بالحرية نلمح آثار ذلك الصراع الرهيب بين الإنسان وآلهته، إلا أنه انتقل من التعبير الفني المسرحي فحسب، إلى هذا التعبير ذاته مستنداً إلى ركيزة ذهنية فلسفية، تشكل (نسقاً) خاصاً في عالم الفكر، نسقاً له أسسه وعماراته ونظرته المتميزة إلى الإنسان والعالم.

وقد انتهى صراع (سارتر) بالإلحاد وهو موقف (زائف مصطنع) كما يقول (كمال يوسف الحاج) «ولابد للسارتريين من العودة إلى الله»[١]. وانتهى صراع (كامي) بالعبث والتمرد، وهو موقف سلبي مهزوز يعبر فيه عن مشكلة (اللا منتمي) وضياع الجهد الإنساني، فلا يزيد قارئيه إلا ضياعاً.. و(كامي) يسعى إلى الرموز الأسطورية القديمة ليعبر عن فلسفته، شأن معظم الكتاب الغربيين المسرحيين عامة والوجوديين منهم بشكل خاص.. وهنا نلمح ذلك الخيط المتين الذي يربط الأعمال الفنية المعاصرة بالمسرح اليوناني الكلاسيكي القديم، ففي كليهما نظرة إلى الحياة والوجود تنسجمان مع بعضهما وتتفقان في مناصرتهما للإنسان المنكود في صراعه مع القدر.. وفي أسطورة (سيزيف) يعبر (كامي) عن (لا جدوى) العطاء الإنساني، وعن (عبث) الجهد الموصول الذي ينتهي بالإنسان دوماً إلى نقطة الصفر لكي يبدأ سعيه ـ الشبيه بالكابوس ـ من جديد.. وهو يستسلم للقدر حيناً من الدهر، لأن في هذا (الاستسلام) ائتمانه الذاتي الوحيد، ولكنه لا يتحمل ـ أخيراً ـ الظلم المسلط على الإنسان من خارج، فيصرخ، ويتمرد، ويعلن سخطه على هذه القوى الفوقية التي كتبت عليه الشقاء، سيزيف.. هو كل إنسان فتح عينيه فجأة على حقائق الوجود القاسي والتمزق الرهيب في العلاقات التي تسود الكون.

ونعود إلى الميثولوجيا اليونانية لنرى في أسطورة (بروميثيوس) الإغريقية أو (سارق النار المقدسة) تعبيراً آخر من تعبيرات الصراع بين الإنسان والآلهة لصنع المصير. فإذا ما عبرت (أوديب) عن الصراع بين القدر والحرية، فإن (بروميثيوس) تعبر عن الصراع من أجل الحصول على المعرفة.. وهنا نجد الصراع يبلغ من الشدة بحيث يلتجئ الفكر الكلاسيكي إلى استعمال مصطلحات لا أخلاقية.

---

(١) مقدمة كتاب (الوجودية مذهب إنساني) لجان بول سارتر، ص ١٦ ـ ١٩.

فالآلهة (أنانيون) تدفعهم أنانيتهم إلى (احتكار المعرفة)، وقد وقع اختيارهم على بروميثيوس الذي أعلن بأنه سيتحمل العذاب في سبيل الحصول على النار المقدسة. والآلهة سادرون في أنانيتهم، وهم في سبيل أن يعطوا المعرفة للبشرية لابد وأن يتقاضوا ثمناً ما. ولقد كان ثمنهم عذاباً لا يرحم صبوه على البطل بروميثيوس. إلا أن هذا تحمل العذاب واستطاع - أخيراً - أن (يسرق) النار ويقدم المعرفة لبني جنسه، ولقد ظل (بروميثيوس) يرمز إلى الصراع الدائم بين الدين والعلم، ذلك الصراع الذي شهده (مسرح أوربة) حيث أحرق العلماء على مرأى من الجماهير، وحيث أتت النار على أكداس من الكتب العلمية، وبعثرت ومزقت صفحات نيرة من معطيات الفكر الحر، وحيث أقيمت (محاكم التفتيش) لتخنق الحرية الفكرية، وتنشر الزيف والبدع والضلالات باسم الدين. ثم ما لبث الستار أن أسدل ليرفع ثانية عن مشهد آخر انعكست الصورة فيه حيث غدا (العلم) أساساً للتنظيم الاجتماعي، وغدت (التجربة) وسيلة (لغزو) الطبيعة لا لفهمها، ولمحاربة الله لا للإذعان لقدرته المعجزة الخلاقة!!

خلاصة الأمر أن (الثنائية) التي حكمت نظرة الإنسان الغربي للحياة والكون، وأقامت بينه وبين خالقه الجدران، واصطنعت بينهما الجفاء، والعلاقات السالبة، هذه الثنائية (العلمانية) لم تكن سوى الوليد البكر للتزاوج الذي شهدته أوربة بين ظروفها التاريخية والجغرافية. «ثم شاء الله أن تعبر المسيحية البحار إلى أوربة، بكل سماحتها وتطهرها.. وهناك وجدت الرومان ورثة الحضارة الإغريقية المادية الوثنية، كما وجدت أقواماً في أنحاء أوربة، حديثي العهد بالبربرية، يتناحرون بجموعهم الكثيفة على رقعة من الأرض ضيقة، ذات طبيعة قاسية وعرة ضنينة شحيحة. لا يملك من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة، ولا أن يلقي سلاحه لحظة، ولا أن يركن في واقع الحياة إلى نظريات المسيحية السمحة..

لقد رأى هؤلاء أن الدين لا يصلح للحياة، فقالوا: إن الدين صلة ما بين العبد والرب، وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله في الكنيسة، وأن يستروِحوا نسماته في الهيكل المقدس، وأن يواجهوا صراع الحياة ـ بعد ذلك ـ في المجتمع بتقاليدهم البربرية، وأن يدعوا السيف يقضي بحكمه في إبان همجيتهم، ويدعوا القانون المدني يقضي بحكمه بعد أن تحضروا. فأما الدين فقد بقي في عزلته الوجدانية هناك في القلوب والضمائر، وفي الهيكل المقدس وكرسي الاعتراف.

ومن هنا كانت العزلة بين الدين والدنيا في حياة الأوربيين بل كانت الحقيقة الواقعة التي تنطق بها طبائع الأشياء، وهو أن أوربة لم تكن مسيحية قط في يوم من الأيام، وبقي الدين في عزلة عن تكييف الحياة وتنظيمها من يوم دخوله إلى يومنا هذا»(١).

وهكذا فإن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب ـ كما يقول محمد أسد: «يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق»(٢). وإذا كان ثمة استشراف من هذا النوع في الحضارة الإغريقية التي سبقت حضارة (روما)، فإنه استشراف تأملي بعيد عن واقع الحياة وتكوين الإنسان، ولم يستطع ـ يوماً ـ أن يمد يديه ليكيف هذا الواقع وينظمه، وإلا فما هو مصير (جمهورية أفلاطون) وتأملات سقراط؟!

ولن ننسى هنا ـ ونحن في معرض تحليل الانحرافات التي طرأت على المسيحية ـ أن نشير إلى الدور التحريفي الكبير الذي قام به القديس بولس، اليهودي السابق الذي عرف باضطهاده للمسيحيين، والذي أصاب (وحدة) المسيحية و(واقعيتها) و(حيويتها) في الصميم، وقضى ـ بما أضافه إليها من

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ط٤، ص ٩ ـ ١٠.
(٢) الإسلام على مفترق الطرق، ط٦، ص ٤٠.

أساطير ـ على فاعليتها وقدرتها على التغيير الإيجابي للذات الإنسانية وربطها بالواقع المعيش ربطاً حيوياً.

كان بولس ـ كما يشير كولن ولسون ـ مختلفاً كل الاختلاف عن المسيح (عليه السلام)، فقد كان المسيح عملياً خالياً من كل معنى للخطيئة ومن كل قلق عصبي آخر. أما بولس فكان رجلاً متهوراً يحتد بسرعة، حساساً، قوي الإرادة. وكان مدفوعاً برغبته في فرض طاقاته على عصره. وكان مفكراً أكثر من المسيح، ولعله كان يشبه كيركغارد (الفيلسوف الوجودي الدانماركي) مشوهاً مضطرب الصحة، ذكياً، تشغل باله مسائل كئيبة كالموت والعنف والألم، وتهيمن عليه فكرة الخطيئة، ويعذبه النقد الذاتي الذي لم يكن يحرض إرادته على إعادة صنع نفسه، أجل ـ يقول كولن ولسون ـ لقد كان مختلفاً جداً عن المسيح، كما أن الدين الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس.

ولنبدأ الآن فنقول: إن بولس أكد على فكرة نهاية العالم واليوم الأخير لأن هذا كان يناسب طراز تفكيره. والنموذج الحديث من طراز بولس ومزاجه هو الشاعر الإنكليزي ت. س. اليوت، لأن كل ما نجده في (الأرض القفر) و(الفارغون) موجود بالفعل في رسائل بولس الذي كان مثل اليوت يعتبر الماضي وسيلة للتعويض عن الحاضر أي الموت العنيف الذي قاساه المسيح، ونبوءته عن اليوم الأخير[١]..

وقد استطاع بولس أن يتمخض ـ بذلك ـ عن فكرته.. وهي أن المسيح مات ليخلص البشر من خطاياهم.. فإذا كانت فكرة صلب المسيح قد ساعدت بولس على السيطرة على نفسه.. وأنقذته من تفاهته، فلماذا لا يحدث ذلك بالنسبة للبشر الآخرين أيضاً؟ ومن هنا نشأت فكرة تخليص

---

(١) لابد من الإشارة هنا إلى أن كلاً من بولس واليوت كانا متأثرين بيهوديتهما إلى حد كبير.

البشر بعذابه: أن المسيح مات لينقذ البشر، ولمّا كان بولس قد قرأ العهد القديم فقد استطاع أن يحول هذه الفكرة إلى عقيدة قوية. أما في أعماقه فقد كانت هنالك رؤياه التي كانت تشعره بأن جميع البشر يولدون تافهين حمقى، وأعطاه العهد القديم سبباً لذلك: عصيان آدم..

وأعلن بولس: أنها خطيئة آدم أن يولد البشر خاطئين. ولكنهم يستطيعون الآن إلقاء الخطايا على المسيح وبهذا يصبحون كاملين.. لكننا نعتقد ـ كما يقول ولسون ـ أن سقطة آدم كانت ضرورية: إن الإنسان لم يكن ليختلف عن النبات (لو لم يأكل من شجرة الخير والشر)، وهكذا فإن عقيدة بولس في المسيح المخلص تتهاوى كلما أوغلنا في الاختبار..

وعلى أية حال فإن عقيدة بولس قد صارت أساس المسيحية والعمود الفقري للكنيسة. ولكن هذه العقيدة نفسها عرضت الكنيسة إلى النقد أيضاً ـ الذي وجهه نيتشه ـ إذ قال: إن المسيحية هي دين الكلاب العرجاء. لقد كانت المسيحية في جوهرها دعوة إلى النظام والقوة، أما بولس فقد حولها إلى دين صار ملاذاً للمذعورين والخائفين.

أما الأقوياء الذين انتموا إلى الكنيسة ـ كالقديس أوغسطين وجورج فوكس وغيرهما ـ فقد فعلوا ذلك للسبب المعاكس، أي لأنهم أقوياء أكثر مما يجب، ولأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بقوتهم هذه، هم كالأشجار التي تنوء بحمل فاكهتها. وهذا هو أساس النجاح الذي صادفته المسيحية: اتساع دعوتها وشمولها القوي والضعيف، الذكي والغبي، ضعيف الروح وقويها.

وقد عبر نيتشه عن احترامه لمؤسس المسيحية واحتقاره للقديس بولس الذي سماه (باسكال اليهودي) وقال عنه: إنه ميال للخرافات والمكر.. وإنه رجل مصاب بشعوره بعذابه الشديد إلى درجة أن المرء ليرثي له.. (إن فكرة الخطيئة التي تلقي عبء الخلاص على عاتق المسيح وحده تناقض أساساً

تعاليم المسيح نفسه تلك التي تقول: كن قائد نفسك، وكافح لتكون كاملاً). . لكن قول المسيح هذا تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس، مسيح يقول: (اجعلوني سيدكم، وبذلك تحصلون على شفاعتي في يوم الدينونة ـ لأنني تفاهمت مع أبي الذي في السموات واتفقنا أن أموت بشرط أن أكون حاكمكم ومخلصكم ـ).

وهكذا فإن مسيح بولس يستميل قلوب الناس أكثر من المسيح الأصلي، وكانت النتيجة انتشار المسيحية الهائل. ولم تعد المسيحية بعد بولس فكرة (خلص نفسك)، وإنما صارت فكرة (دعني أخلصك)، ولهذا السبب نجد برناردشو يسميها الصليبية بدلاً من المسيحية[١].

❁ ❁ ❁

ذكرنا ـ في سياق البحث ـ كيف أن الإنسان ملتزم بالعقيدة عقلاً أو فطرة أو سلوكاً، وكيف أن الظاهرة التي عبرت عن هذا الالتزام في الفترات التي سبقت مجيء الإسلام، أو ابتعدت عن تجربته المتوازنة، اقتصرت على الإيمان بالله بشكله السلبي الذي لم يتحقق بالعمل بسبب ظروف تاريخية وجغرافية وحضارية أشرنا إلى بعض جوانبها. ولقد نتج عن هذا خطأ شائع مفاده أن كافة الأديان التي سبقت الإسلام ـ فيما عدا اليهودية طبعاً ـ لم تكن سوى فعاليات روحية شعائرية، جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان الفرد وخالقه، تاركة تنظيم النشاط (الدنيوي) للقوانين الوضعية. فلم يكن ثمة سوى طريق واحد للتعبير عن الالتزام الديني ألا وهو الإيمان فحسب.

أما في الإسلام فإن هذا الالتزام يتخذ شكلاً إيجابياً يتحقق بالعمل والسلوك في واقع الحياة، تماماً كتحققه بالأفكار والمشاعر في عالم

---

(١) كولن ولسون: سقوط الحضارة، الطبعة الثانية، مقتطفات من الصفحات ١٧٤ ـ ١٧٩ (ترجمة أنيس زكي حسن).

الإنسان الباطني. ذلك أنه ليس هناك فصل أو رفض أو تناقض بين الله سبحانه والطبيعة التي أنشأها والإنسان الذي استخلفه في الأرض. فالقيم العقيدية والقيم الطبيعية والقيم الإنسانية مظاهر أو فعاليات مختلفة لحقيقة واحدة وجوهر واحد ومصير مشترك. ليس هناك تقسيم زمني لمراحل (التزامية) متمزقة مر بها الإنسان. ولو صح افتراض (أوجست كومت) القائل بأن الإنسان التزم في فترة من فترات تاريخه الطويل بالدين حيث راح يفسر بواسطته كل مظاهر الكون والحياة وكل جوانب النشاط الإنساني، مغفلاً - ابتداء - قيم الطبيعة والإنسانية، ثم إنه انتقل - بعد ذلك - إلى مرحلة أخرى أنهى بها التزامه بالدين وانتقل إلى العقل كقيمة إنسانية. ثم إلى الطبيعة.. وهكذا.. لو صح هذا الافتراض فإنه لا يعني - أبداً - ثمة حتمية تفرض على الإنسان من خارج فتجعله ملتزماً حيناً من الدهر بالدين، وحيناً آخر بالعقل... إلخ وكل ما هنالك أن الأمر يعود إلى الافتقار إلى تخطيط عقيدي متوازن شامل ينظم الالتزام بشكله الموحد المتكامل، أو أن هذا التخطيط - على فرض وجوده - لم يرتكز على نظرة شاملة للكون والحياة والإنسان.

في الإسلام - هذا الدين الإلٰهي المعجز - يبدو بوضوح هذا التخطيط الموحد، القائم على تصور شامل للوجود والعالم، وتنظيم مبدع لالتزامات الإنسان تجاه خالقه، وتجاه الطبيعة من حوله، وتجاه البشرية المحيطة به، ثم تجاه ذاته وتكوينه الخاص.

ونحن نجد في القرآن الكريم صورة مثلى لهذا التوحد والتكامل والانسجام الداخلي بين العقيدة والطبيعة - الخارجية والداخلية - والقيم الإنسانية، هذه القيم الثلاث التي جاء الدين الإسلامي كمنهج ليخطط لما يجب أن تكون عليه العلاقات بينها وبين الإنسان المسؤول - كخليفة في الأرض - عن إعمار هذه الأرض على عين الله ورعايته..

فالعقل وقدراته في التفكر والتدبر والإدراك يبدو ـ من خلال القرآن ـ حجر الزاوية في فهم الطبيعة والتعامل معها، ومن ثم الإيمان بقدرة الله الخلاقة، بل الإيمان بوجوده ابتداء.

والإرادة الإنسانية تبدو ـ من خلال القرآن ـ الوسيلة الأساسية التي يثبت الإنسان بها إيجابيته كمخلوق عاقل متفرد، ومسؤوليته كخليفة منوط بأمانة التحضر والتقدم والأعمار.

والنزعة الجمالية المنبثقة في حس الإنسان عن أعمق تياراته الوجدانية تبدو ـ من خلال القرآن ـ ميزة عظمى تدفعه ـ من جهة ـ إلى تنسيق ضروراته و(تجميلها) لكي يرتفع عن عالم الحيوان، وتسهم ـ من جهة أخرى ـ في تعميق وجوده الإيماني وإغنائه، ذلك الوجود القائم على التساوق والتناغم والانسجام مع شتى عناصر الطبيعة والعالم الخارجي من حوله.

والعقيدة، بكل ما تحويه من شعائر يومية وموسمية دائمة، ليست تجربة عزلة وانفصام ورفض للنشاط الملموس، وتقطع للعلاقات العامة، على العكس، إنها تبدو ـ من خلال القرآن ـ المولد الذاتي الذي يدفع الإنسان دوماً إلى الارتفاع بكل دقيقة من دقائق حياته ـ الخاصة والعامة ـ وكل كبيرة من كبائرها إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان.. المولد الذاتي الذي يدفع المؤمنين أنى كانوا إلى أن يصدروا في كل فاعلياتهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، المادية والروحية، القريبة والبعيدة، عن الإيمان بخالقهم، ويتوحدوا دوماً مع مصائرهم.

أما الطبيعة فلم تبدُ يوماً ـ من خلال القرآن ـ مجرد أرض صلبة، وصخرة صماء، تتفاعل في داخلها مجموعة من القوى المادية، أو تتحرك، ذاتياً، تحت ضبط قوانين ميكانيكية أو كيماوية، وأن وظيفة الإنسان (الملتزم) لا تتعدى الاستقراء الطبيعي القائم على (التجريب) لمعرفة (كمية) و(كيفية) هذه الحركات والتفاعلات، ومن ثم تفسير كل ظاهرة، وتطبيق

معطياتها حضارياً، على أساس مادي محض دون التزام بعقيدة أو عرف إنساني، بحيث ينتهي الأمر إلى أن يقطع الإنسان «صلته بأعماق وجوده، ويستغرق في الواقع، أي في مصدر الحس الظاهر للعيان» ومن ثم إصابة دوره على الأرض ـ كإنسان ـ بالشلل التام.

لكن القرآن يعلمنا شيئاً آخر، ويقول لنا: إن هناك قوى (فوقية) تسيطر على هذا التفاعل وتلك الحركة اللتين تشهدهما الطبيعة.. قوى تصدر عن الله، وتشكل المادة على أساس من الطاقة الحركية التي هي من الدقة والإعجاز بحيث تغدو حركة الهباءات الصغيرة ـ النيوترونات والبروتونات ـ داخل الذرة إحدى مظاهرها.. قوى تشرف على حركة الأجرام الهائلة في عرض الكون الكبير الذي يتسع حجمه يوماً بعد يوم بإرادة الله وحده.. قوى تضبط التفاعلات الكيماوية في أعماق الأنسجة العضوية، وتوجه العلاقات الفيزيائية بين الأحياء والعالم الخارجي بشكل يجعل من (دارون) الذي رد الإنسان إلى أصل فردي يقول قولته تلك: «كلما تذكرت الوقت الذي فكرت فيه بتركيب العين هزتني قشعريرة، أنا لا أعتقد أنه ليس ثمة إله للكون»!! ويجعل رئيس أكاديمية العلوم في أمريكة يقول: «إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة». وهكذا يعلمنا القرآن كيف أن الاستقراء والتجريب في حقول الطبيعة الداخلية والخارجية يبدأ دوماً بالله وينتهي دوماً إلى الله.. إذا ما أريد لنشاط كهذا أن يؤتي نتائجه الكاملة.

ثم إن الطبيعة ـ هكذا يعلمنا القرآن ـ ليست المصير الأول والأخير الذي يؤول إليه نشاط الإنسان وكدحه في الأرض، ذلك أن طبيعة الإنسان، وتكوينه الذاتي، ودوره الحضاري في الأرض لا تحقق تكاملها وأهدافها إلا باعتماد القيم الثلاث: العقيدة، الطبيعة، الأعراف الإنسانية، كوسائل وكغايات في ذات الوقت، وافتراض الطبيعة مصيراً أوحداً للإنسان سوف يقصر حركته ونشاطه لتحقيق غاية معينة لا تتعدى حدود طبيعته الداخلية

(البيولوجية) أو الخارجية (المادية)، وهو في سبيل تشكيل مصيره (الطبيعي) هذا، سوف لا يعتمد إلا وسائل (طبيعية)، ومن ثم سيغض الطرف عن السعي لإشباع حاجاته الذاتية للقيم الدينية والإنسانية، لكنه لن يلبث أن يستشعر الحاجة إلى هذا (الإشباع) بمزيد من (الرغبة)، بعد أن أدرك وأحس بأن (وجوده) قد غدا مشوهاً، ناقصاً، غير متكامل. وواضح أن الشعور المتطرف هذا بالنقص، والحرص المتزايد على التعويض السريع، سوف يدفع ذلك الإنسان إلى التمرد والثورة والرغبة في التحطيم والتدمير، وسينتهي به المطاف ـ أخيراً ـ إما إلى الخروج على المجتمع والأعراف السائدة والعمل على تدمير ذلك المجتمع وتلك الأعراف، وإما إلى العزلة والإغراق الذاتي عن طريق الخمور والعقاقير، وبالتالي التحطم والتشتت، أو أن يسعى إلى تدمير نفسه ويسلمها إلى الموت انتحاراً!!

ولقد أطلعنا التاريخ على صور أخرى لردود الفعل المحزنة هذه، ذلك أن أي انحراف في التزامات الإنسان بما يحيط به، سوف يسلمه إلى انحراف باتجاه معاكس، ولم تكن تجارب الرهبانية والبوذية وبعض الحركات الصوفية إلا انحرافاً بهذا الاتجاه، إذ هي محاولات لرفض الالتزام بالطبيعتين الداخلية (البيولوجية) والخارجية (المادية)، والتشبث بعالم الإنسان الداخلي وصلاته الروحية بالملأ الأعلى، ولم يكن هذا ليحدث لولا تطرف حسي مسبق شهدته، أو عاشته هذه الجماعات، باتجاه الطبيعة والعالم المنظور والضرورات اليومية. ولم تكن الحركة (العقلية) التي طغت على أوربة في (عصر التنوير) سوى رد فعل مبالغ فيه ضد الأوهام والخرافات التي سادت القارة في عصور التحكم الكنسي المسيحي، ثم ما لبثت النزعة الطبيعية أن اكتسحت أوربة بأساليبها الحسية والتجريبية، وراحت تشدد الخناق على أنفاس الناس ومطامحهم الروحية والفكرية والأخلاقية.. ثم ما لبث الحصار الطبيعي أن انهار أمام موجات متعاقبة من المذاهب

الوجودية التي راحت تنحت قيمها التصوّرية والسلوكية الجديدة تحت ظلال إيمان مطلق بالله، أو كفر مجنون به..

إن الفكر الغربي يناقض نفسه عندما يفترض الطبيعة مصيراً أوحداً لالتزام الإنسان. ألم يشر (أوجست كومت) نفسه إلى دورية هذا الالتزام وأنه لا يقف عند قيمة من القيم، بل هو التزام دائر كدوران الشمس والقمر؟! لقد تطرف الفكر الكلاسيكي والمسيحي في إيمانه بالقيم الفوقية والعلم اليقيني.. وجاء الفكر الطبيعي ليتطرف في إيمانه بالقيم التحتية والعلم التجريبي.. ثم جاءت (البركمتية) (أي الفلسفة الأمريكية النفعية) لتوفق بين الاتجاهين، وتطرفت هي الأخرى نحو المادية المصلحية.. هكذا يعبر تاريخ الفكر العلماني عن هذا التأرجح المستمر الدائر الذي لا ينتهي إلى نقطة إلا ليبدأ من جديد.

في الإسلام لا يرتبط مصير الإنسان بقيمة واحدة من هذه القيم، بل هي جميعاً تتناسق وتتكامل وتنسجم لتشكل أخيراً مصيره المتفرد الموحد.. هذا هو الأساس العميق، في التجربة الإسلامية، الذي يحفظ وحدة الذات الإنسانية من التمزق والازدواج. فالإنسان المسلم يسهم ـ في كافة فعالياته وفي مختلف أوجه نشاطه ـ في تشكيل مصيره الخالد.. عندما يسجد لله.. عندما يستقرئ الطبيعة والتاريخ.. عندما يتفكر في خلق السموات والأرض.. عندما يجاهد قوى الشر والانحراف والطغيان.. عندما يتحقق بالقيم الأخلاقية كالإيجابية والمسؤولية ويقظة الضمير، وعندما يترع وجدانه بمشاهدات الجمال والتوافق الكوني الخلاق.

ولما كانت حياة الإنسان لا (تفرغ) من المعنى، بل هي استمرارية شعورية أو فكرية أو عملية، ولما كان هذا الإنسان ـ في حالة الاستمرار التي يحياها ـ يعمل على تشكيل مصيره، فنستطيع أن نقول آنذاك ـ مطمئنين ـ: إن وحدة هذا الإنسان قد غدت مطلقة، وأنه قد توحَّد مع مصيره

عن طريق التزامه الشامل بالقيم جميعاً وبالتالي بالكون والحياة والإنسان.. بحيث يستطيع أن يقول في أوج أيامه على الأرض: إنني أنا مصيري!!

❁ ❁ ❁

ولكن.. إذا كان الالتزام الديني في الإسلام يتخذ شكلاً إيجابياً، وإذا كانت الظاهرة العملية التي تعبر عنه لا تقتصر على الإيمان الباطني فحسب، بل تتعداه إلى مراتب أخرى لا تتحقق إلا بالعمل والسلوك في واقع الحياة، تماماً كما تحققت بالأفكار والمشاعر في كيان الإنسان الداخلي.. فما هي ـ إذاً ـ مراتب التعبير عن هذا الالتزام، تلك التي تجعل من الدين الإسلامي (حياة واقعة) و(تجربة حية) بكل معنى الكلمة، بحيث لا يمكننا إذ ذاك أن نفصله عنها وإلا ألغينا وظيفته، بل لا نستطيع حتى أن نخصص له قطاعاً واسعاً، أو مساحة ممتدة، مقتطعة منها؟ ما هي الخطوات التي تحيل التصور والعقيدة الإسلامية إلى واقع منظور، وحياة دائمة متطورة، وأناس موحدي الذات، يتحركون على الأرض وعيونهم ـ دوماً ـ إلى السماء؟ ما هي التكييفات العملية التي تتيح للدين الإسلامي أن ينظم حياة أتباعه وفق المنهج الواقعي الذي جاء به الرسول العظيم إليهم؟

لا أروع من أن نتجه بأسئلتنا هذه إلى الأستاذ (أبي الأعلى المودودي) ليجيبنا عنها بأسلوبه المتماسك الواضح بما لا يدع مجالاً لقول، ولا زيادة لمستزيد.. يقول: «هذا الذي نعبر عنه بالأخلاق الإسلامية يشتمل، بموجب القرآن والسنة، على أربع مراتب هي: الإيمان، الإسلام، التقوى، والإحسان. وهي كلها مرتبة ترتيباً فطرياً بحيث إن كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها..».

«فالإيمان عبارة عن الإقرار بالتوحيد والرسالة. فإذا ما أقر بهما المرء استوفى الشرط القانوني للدخول في الإسلام، وأصبح من عداد المؤمنين.

فإذاً يكون من حقه أن يعامل معاملة المسلمين. ولكن هل يكفيه الإقرار المجرد ـ الذي لا يعدو كونه استكمال أداة قانونية ـ في أن يشيد على أساسه صرح الحياة الإسلامية بطبقاته الثلاث الباقية؟.. أما الحياة الإسلامية الكاملة فلابد، لإبرازها وتشييد صرحها، أن يكون الإيمان شاملاً محيطاً بجميع جوانبه، وراسخاً بعيد الغور في تأصل جذوره.. وخذوا لذلك الإيمان بالله مثلاً، وهو رأس الدين واللبنة الأولى من أساسه.. فكلما كان التصور (الإيماني) ضيقاً محدوداً، كانت الصيغة الإسلامية في الحياة العملية والأخلاق أيضاً محدودة، حتى إنكم ترون أن الذين قد بلغ عندهم الإيمان بالله إلى أقصى غاياته ـ حسب التصورات الدينية الشائعة ـ لا يعدو ـ في نظرهم، نطاق الحياة الإسلامية، أن يجمعوا بين طاعة الله تعالى وبين الإذعان والتذلل للطواغيت، أو أن يضموا نظام الكفر إلى نظام الإسلام حتى يحصل منهما مركب جديد يجدون فيه كل ما تشتهيه أنفسهم. فالحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الكاملة الخالصة إلا على ذلك الإقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، والذي يحسب الإنسان بموجبه أنه هو وكل ما بيده من شيء ملك لله، ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله..».

«الإسلام هو عبارة عن ظهور الإسلام في صورة العمل، فعلاقة الإيمان بالإسلام كعلاقة البذر بالشجرة.. فحيثما كان الإيمان كان لزاماً أن يظهر في حياة الإنسان العملية وأخلاقه ومعاملاته للناس.. وكفاحه وذوقه وقواه وكفاءته.. إلخ، وإذا كانت الحياة العملية تجري بقضها وقضيضها في مجرى غير إسلامي فاعلم أن القلب خلو من الإيمان.. إنه من المستحيل وجود إيمان في القلب وعدم ظهوره بمظهر الإسلام في الأعمال.. إن الإيمان الاعتقادي، والإسلام العملي متلازمان فيما بينهما، وقد قرن الله بينهما في غير موضع من كتابه العزيز، وأنه ما وعد بما وعد من حسن

الجزاء والثواب إلا لعباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً».

«أما التقوى فهي عبارة عن حال النفس التي تتكون وتتولد من خشية الله تعالى والشعور بالتبعة. وتظهر وتتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة ومظهر من مظاهرها. فالتقوى الحقيقية هي أن يكون قلب المرء مستنيراً بخشية الله والشعور بعبوديته، وأن يكون وعيه للقيام بين يدي ربه، والمسؤولية أمامه يوم القيامة، شديداً قوياً. وأن يدرك إدراكاً تاماً أن ليست هذه الحياة الدنيا إلا مضماراً لامتحانه، حيث قد بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن. ولا تنحصر القضية في مستقبله الدائم إلا في شيء واحد وهو: كيف يستخدم قواه وكفاءاته المختلفة في هذا المضمار للامتحان؟ فكل من نشأ فيه هذا الحس وذلك الشعور فقد تنبه ضميره وزاد شعوره الديني جلاء.. وهذه الكيفية والحالة لا تظهر في حياة الإنسان بصورة خاصة، أو في نطاق للعمل ضيق محدود. بل هي تستولي على منهج فكرته، وتتجلى في مجريات حياته بأسرها، وينشأ فيه - بموجب تأثيرها - من السيرة الحنفية والخلق النزيه الطاهر مالا يوجد فيه إلا الصفاء والطهارة والنظافة بطراز مخصوص في جميع وجوهه المختلفة».

«وأما الإحسان فإنه أعلى طبقات الإسلام وأرفعها.. فهو عبارة عما يجعل المرء متفانياً في الإسلام على صلة قلبية بالله ورسوله، وحب متأصل ووفاء صادق، وبذل للمهج وتضحية بالنفوس والنفائس. فتصور التقوى الأساسي هو خشية الله وخوفه، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء سخطه. وأما الإحسان فتصوره الأساسي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته. فالمتحلون بالتقوى - وإن كانوا رجالاً يوثق بهم ويعتمد عليهم - لكن قوة الإسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم. ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الإسلام في هذا العالم إلا هذه الطبقة من المحسنين وحدها، الذين (يرفضون) الاستسلام لحاكمية غير الله،

و(يبذلون) النفوس والنفائس في سبيل إقامة الدين وإعلاء كلمة الحق. . »[١].

هذا هو مفهوم (الدين) الإيجابي في الإسلام، إنه يبدأ بأعماق الإنسان ويتدرج حتى يشمل العالم والكون، ويتغلغل في حنايا الوجود الإنساني الفردي والجماعي، ويصعد بالإنسان في طريق (عملي) موصول يبدأ بالإقرار المطلق بوحدانية الله وينتهي بالثورة التي لا ترحم ضد الطواغيت الذين أشركوا أنفسهم بخالق الملكوت. . ينطلق من الإيمان بصدور النواميس الكونية جميعاً عن إرادة الله الواحد، وينتهي ـ بعد حركة مليئة بالحيوية والنشاط والتضحية ـ بالدخول إلى صميم فطرة الكون والتوافق الرائع مع نواميسه الكبرى. . إن الدين في الإسلام غير منفصل عن الحياة أو الوجود أو الطبيعة أو القيم الإنسانية. . إنه قيمة القيم وليس قيمة وحده، إنه إطار الالتزامات وليس التزاماً جانبياً. . إنه منهج الله للإنسان في الأرض فرداً وجماعة، وليس مساحة فحسب تمثل جانباً ضئيلاً أو واسعاً من مناهج العبيد. . ومن ثم فهو لا يتحقق بأن يوجد في دائرة مغلقة، أو مساحة مضروب حولها ألف جدار. . بل في أن يحطم هذه الجدران الزائفة التي اصطنعها الطواغيت وأقرها عبيدهم وينطلق ـ كما أراد له الله ورسله ـ لكي يشمل الدائرة الأكبر التي تضم في إطارها الشامل المفتوح: الكون والحياة والعالم والإنسان.

من هنا شعرنا بالمرارة عندما اضطرتنا طبيعة هذا البحث إلى أن نضع الالتزام الديني جنباً إلى جنب مع سائر الالتزامات الأخرى طبيعية كانت أم إنسانية، نرصفه هكذا رقماً إلى جانب أرقام وكأنما نتكلم عن (شيء) منعزل له سماته الخاصة وملامحه المستقلة. . ولقد اتضح لنا الآن أن الدين ليس قيمة مفردة تقف جنباً إلى جنب مع بقية الالتزامات والنشاطات الأخرى مادية كانت أم عقلية أم إرادية أم وجدانية أم جمالية. . وإنه، لكونه المنهج والإطار الذي

---

(١) أبو الأعلى المودودي: الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، مقتطفات من الصفحات ٤٦ ـ ٦٨ (ذخائر الفكر الإسلامية: ٦).

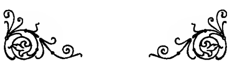
يحوي هذه القيم جميعاً، يرتبط بها ارتباطاً عضوياً حياتياً، كتب على هذه القيم والالتزامات جميعاً ـ يوم أوجدها الله ـ أن لا تتحقق وتتكامل وتأخذ مجراها الطبيعي في هذا العالم إلا بالدين.. المنهج الذي يمنع أن تكون هذه الالتزامات مزقاً مبعثرة، ويسعى إلى تنسيقها في وحدة شاملة، لا يتحقق بدونها وجود الإنسان، ولا يتوحد مع مصيره.. المنهج الذي يجعل عبادة الإنسان لله ـ بمفهومها الشامل البعيد ـ تتحقق أنى كان، ومن خلال أية فاعلية أو نشاط: في المحراب والمصنع، في البيت والشارع، في الأماكن المسقوفة وتحت السموات المفتوحة، في سلوكه الفردي وفي علاقاته الجماعية، عندما يتأمل، عندما يفكر، عندما يتحرك وعندما يثور.. كل دقائق حياته الوجدانية ومنجزاته العملية مسطورة في كتاب مصيره المحفوظ بين دفتين كتب عليهما اسمه وحده.. كل تجارب وجوده على الأرض سلباً وإيجاباً، لبنات وضعها بإرادته في صرح مصيره المنسوج على عين الله ورعايته.. دنياه وأخراه تتجهان في ذات الطريق، فإن أراد الدنيا تقدم خطوات صوب الآخرة وشكل مصيره الخالد، وإن أراد الآخرة شد إلى الدنيا، فعمق تجربته فيها وأغناها، وأتاح لمصيره الواقعي، الحيوي، القريب أن يتحقق..

هو دائماً في نقطة التوازن يهتف: لقد توحد مصيري.. روحي وجسدي، عقلي وعقيدتي، محرابي وآلتي، (أنا) والآخرين.. إنني الإنسان (المتوحد)، المؤمن حتى الأعماق بأن قدرة الله وإرادته تسير باتجاه منسجم تماماً مع قوى الإنسان المسلم وإرادته.. «إن ملكي هنا في هذه الدنيا، كما هو في الآخرة. إن ملكي يحيط بجسم الإنسان، كما تحيط روحه وتمتد إلى كل ما يفكر ويشعر به وما يفعله، إلى تجارته وصلاته، إلى غرفة نومه وسياسته. إن ملكي لا نهاية له ولا حدود»!![1].

❁ ❁ ❁

(١) محمد أسد (ليوبولد فايس): الطريق إلى مكة، ص ٣٧٢.

أما ذلك المفكر الغربي الذي فتح عينيه على المأساة التي يعانيها إنسان القرن العشرين، والذي عبر في وعيه عن شعور «جيل من الناس».. جيل أخذ يدرك بوضوح خطأ ما في التمييز بين الجوهر والعرض في تركيب الإنسان، وفي التفريق بين الروح والجسد. تلك المأساة التي يتأرجح فيها الوجود الإنساني بين العقيدة ليمحق الحياة، ويسعى إلى الخلاص والهروب من المصير، وبين الحياة ليمحق القيم الدينية والإنسانية، ويسعى إلى (التكاثر) والإغراق في جحيمه ليجد نفسه - أخيراً - منقطع الجذور بأعماق وجوده.. أما ذلك المفكر فقد وجد نفسه مدفوعاً برغبة عميقة في البحث عن الطريق الذي يسلمه إلى مصيره الذاتي بتوحد واطمئنان.. ولقد عثر على بغيته بعد بحث طويل «إن الإسلام لم يبدُ لي ديناً، بالمعنى الشائع للكلمة، بقدر ما بدا لي طريقة في الحياة. ولا نظاماً لاهوتياً بمقدار ما تبينته منهاجاً للسلوك الشخصي والاجتماعي قائماً على ذكر الله.. إنني لم أستطع أن أجد في أي مكان في القرآن، أيما ذكر لحاجة إلى (الخلاص). ليس هناك في الإسلام من خطيئة (أولى) موروثة تقف بين الفرد ومصيره، ذلك أنه (ليس للإنسان إلا ما سعى)، ولا يطلب منه أيما نسك أو إماتة لفتح باب خلفي إلى الطهارة. ذلك أن الطهارة حق يرثه الإنسان بالولادة، والخطيئة ليست سوى زلة من الصفات الفطرية الإيجابية التي يقال: إن الله وهبها لكل كائن من الناس. ليس هناك من أثر للثنائية في اعتبار الطبيعة الإنسانية، ذلك أن الروح والجسد يعتبران وحدة صحيحة كاملة»(١).



(١) المرجع السابق، ص ١٧٠، وانظر الفصل الأخير من هذا الكتاب.



الفصل الرابع

العلمانية والحركة

العلمانية والحركة

عندما نتكلم عن ثورة الإسلام وحركته يجب أن ندرك أن البعد الثالث هو الذي يعطي لتلك الثورة والحركة إحدى الميزات الرئيسة التي تفرقه عن كل الثورات والحركات الأخرى في العالم، وتصبغه بصبغة الله.. إن الطول والعرض هما البعدان اللذان تنبثق عنهما كل الثورات والحركات الوضعية العلمانية. السطح ـ بمعنى آخر ـ بطوله وعرضه، هو المجال الوحيد لفاعلية تلك الثورات والحركات.. وحتى لو أرادت أن تتجاوز هذه المقاييس الخارجية صوب البعد الثالث، العميق، فإنها ستضيع حتماً في منتصف الطريق، لأن الفكر الوضعي والمنطق العلماني لا يمكن لهما أن يعثرا أبداً على البعد الثالث.

وإزاء هذا الفشل، وإزاء فقدان الضمان في النجاح باتجاه هذا البعد الأصيل، إزاء هذا وذاك تفضل معظم الحركات الوضعية أن تقصر معالجاتها وفاعلياتها في مدى الطول والعرض، أي المساحة الخارجية فحسب.. بينما تظل حركات أخرى على محاولاتها الطائشة، غير المجدية، بحثاً عن هذا البعد الثالث. وهكذا يبدو أن معظم الثورات والحركات قد أخفقت في التاريخ، بعد أن حققت مكاسب زمنية نسبية، بسبب من أنها لم تستند إلا على الأسس الظاهرية للحركة، وهما الطول والعرض، دون أن تجد لها سنداً من البعد الثالث.

إن الثورات السياسية والحركات الاجتماعية ودعوات الإصلاح الأخلاقي، أخفقت جميعاً، بعد مسيرها خطوات فحسب إلى الأمام، أخفقت بسبب انتكاسة في حركتها، أو رد فعل في الطريق المضاد لمسيرها، أو لابتعادها عن أفهام الناس ووجدانهم واستيعابهم، ومن ثم لم تجد من

يلتزمها.. المهم أن هذه الحركات أخفقت جميعاً، ولابد وأن هناك حتمية أو (سنة) هي التي تؤدي دوماً إلى إخفاق هذه الحركات التي تعمل على مدى الطول والعرض فحسب، دون أن تصل، أو تحاول أن تصل، إلى البعد الثالث لكي تجد عناصر بقائها وخلودها ونجاحها.

إن (الثورة الفرنسية)، بمبادئها السياسية في الحرية والإخاء والمساواة، أخفقت في أوربة، والحركات الاشتراكية والشيوعية عانت تمزقاً مريعاً على النطاقين النظري والعملي هناك، ودعوات الفلاسفة الأخلاقيين من عهد (أفلاطون) إلى عهد (سارتر)!! غدت نماذج مُتحفيَّة للدراسة والتحليل النظري في مؤسسات أوربة الأكاديمية. ذلك أن هذه جميعاً: سياسيّها واجتماعيها وأخلاقيها، صبت مجهودها على المعالجة الخارجية، الحركة على السطح، الثورة من أجل إعادة تشكيل لقيم خارجية، البحث عن قيم أخلاقية شكلية أو وضعية. ودائماً كانت التيارات الباطنية، القوى الجوانية، تتحرك وتثور محطمة قشرة الجليد التي تخفيها مكتسحة في طريقها كل الأشكال المنصوبة، والقيم الموضوعة، والمفاهيم المرصوفة على سطح الجليد، في مدى طوله وعرضه!! إن حركة التيارات الداخلية هذه، تحدث يوم تحدث، بسبب إغفالها أساساً، أو بسبب عدم فهمها، والتخبط في تحديد اتجاهاتها ومساراتها وسرعة انطلاقها..

❁ ❁ ❁

لقد سعت كل الثورات السياسية صوب بناء نظريات، وإقامة مؤسسات، تستهدف تحقيق الحرية للمواطن في الداخل، أو تحرير أرضه في الخارج. وفي كلتا الحالتين كانت عملية التحرير السياسي هذه، ظاهرية في نظرياتها ومؤسساتها، دون أن تحرز أي تقدم في تحقيق المفهوم الباطني الأصيل للحرية، الذي يكمن هنالك في أطر البعد الثالث. ومن ثم كانت عملية

التحرير تلك معرضة في أية لحظة للعدوان أو للذوبان. . للعدوان لأن الذين أقاموها هم أنفسهم مستعدون لاكتساحها في أية لحظة، ولأن الذين أعطيت لهم لا يملكون الحصانة الداخلية، ولذا فهم مستعدون للتنازل عنها في أية لحظة. ومعرضة للذوبان لأنها حرية شكلية فحسب، ربما حافظت على وجودها لو كافحت إزاء أشكال خارجية، لكنها ما أن تستشعر وطأة الحس الداخلي، والقيم الباطنية، ونداءات الفطرة والروح والوجدان، حتى تجد نفسها قاصرة عن تلبية هذه النداءات والصمود للوطأة الباطنية، فتذوب كحفنة من ملح لا يستسيغها التيار الحلو المتحرك أبداً صوب مصيره.

ولقد عملت كل الحركات الاجتماعية على تخطيط نظريات وإقامة أوضاع لتكفل تحقيق العدل الاجتماعي، وتعطي لتوزيع الثروة ضمانات تمنع الاعتداء على الحق الاجتماعي والمشاركة في ثمار الأرض وخيراتها، وتحول دون تحول هذه الثروة إلى دولة بين الأغنياء، بينما تبقى سائر الطبقات تتضوَّر جوعاً ومسغبة. ولكن الحركات هذه، من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها ـ كما يقولون ـ لم تتقدم سوى خطوات فحسب صوب تخطيط نظريات (طوبائية)، وإقامة أوضاع خارجية يسودها القسر والإرهاب والفرض القانوني من الخارج، دون أن تحرز أي تقدم في تحقيق المفهوم الداخلي العميق للعدل الذي يكمن هناك في أطر البعد الثالث.

ومن ثم كانت عملية التسوية الاجتماعية تلك معرضة في أية لحظة للعدوان أو للذوبان؛ للعدوان لأن الذين أقاموها هم أنفسهم مستعدون لاكتساحها في أية لحظة، ولأن الذين أعطيت لهم لا يملكون الحصانة الداخلية، ولذا فهم مستعدون للتنازل عنها في أية لحظة. ومعرضة للذوبان لأنها عدالة شكلية فحسب، ربما حافظت على وجودها لو كافحت إزاء أشكال خارجية، لكنها ما أن تستشعر وطأة الحس الداخلي والقيم الباطنية، ونداءات الفطرة والروح والوجدان، حتى تجد نفسها قاصرة عن تلبية هذه

النداءات، والصمود للوطأة الباطنية، فتذوب كحفنة من ملح لا يستسيغها التيار الحلو المتحرك أبداً صوب مصيره.

ولقد جهدت كل الدعوات الأخلاقية (لوضع) قيم يلتزمها الإنسان، وهندسة مدن مثالية، وعوالم سعيدة، وجمهوريات أفلاطونية تسودها علاقات الحب والتعاون والخير، والسعي المشترك للوقوف إزاء كل عمل جرمي، لا أخلاقي، من شأنه أن يلحق الأذى بقيم الناس وأخلاقياتهم في تلك المدن. ولكن هذه المحاولات الإصلاحية لم تعدُ يوماً أن تكون مثالية معلقة في الهواء، أو أكاديمية ميتة لا تصلح إلا للدراسات وكتابة التقارير في فلسفة الأخلاق، أو سلبية هدامة تعطي للإنسان الحرية المطلقة باسم الالتزام بقيمة الحرية الخلقية في الاختيار، كما تفعل بعض الوجوديات، وتطلق الإنسان بعد ذلك يفعل ما يشاء في ساحات الغريزة والبهيمية. ويجب ألا تخدعنا هنا فكرة أن الدعوات الأخلاقية ـ بشتى اتجاهاتها ـ تختلف عن الثورات السياسية والحركات الاجتماعية، بكونها لا تقف عند حدود الطول والعرض، ولا تجمد على مدى المساحة الخارجية، بل تسعى حثيثاً بحثاً عن البعد الثالث الباطني أو (الجواني)، لأنها أساساً حركات أخلاقية، ولابد لها من الوصول إلى قرارة الإنسان وأعمق أعماقه كي يصلح البناء. وهذا الاعتراض وارد. وارد من ناحية محاولات وقعت بالفعل في هذا المجال، لا من ناحية النتائج.. والنتائج هي التي تهمنا قبل كل شيء، صحيح أن الثورات السياسية والحركات الاجتماعية (الوضعية) لم تتعد ـ إلا في النادر ـ نطاق السطح إلى الأغوار، ولهذا فشلت، بينما جهدت الدعوات الأخلاقية للوصول إلى البعد الثالث: منذ عهد (أفلاطون) في جمهوريته، إلى القديس (أوغسطين) في (مدينة الله المقدسة) إلى (الفارابي) ـ المقلد ـ في مدينته الفاضلة، إلى (توماس مور) في اليوتوبيا، إلى (كامي) في عالمه المتمرد ثم إلى (سارتر) في رفضه المسبقات وتبرعه بمنح الناس حريتهم المطلقة في الاختيار!!.. فلماذا فشلت هي الأخرى؟!

ليس هنالك من جواب سوى أن المحاولات لم تكن جادة، أو أنهم تحركوا لوضع قيم أخلاقية شكلية منبثقة عن تصور عاطفي شخصي، أو منطق عقلي جدلي.. وبهذه الإمكانيات لا يمكن لإنسان ـ في يوم ما ـ أن يصل إلى قرارة الإنسان، ويدرك بعده الثالث، ويعطيه ما يتطلبه هذا البعد لدى الناس جميعاً، وليس لدى إنسان يمتلك القدرة على التصور والرصف المنطقي والصياغة الكلامية!!

ومن ثم كانت القيم الأخلاقية الوضعية تلك معرضة في أية لحظة للعدوان أو للذوبان؛ للعدوان لأن الذين أقاموها، هم أنفسهم مستعدون لاكتساحها في أية لحظة، ولأن الذين أعطيت لهم، وسعوا لالتزامها، لا يملكون قوة الالتزام الداخلي، لذا فهم مستعدون للتنازل عنها في أية لحظة. ومعرضة للذوبان لأنها قيم شكلية، ربما تحافظ على وجودها لو كافحت إزاء قيم خارجية ـ كما كافحت (جمهورية أفلاطون) على مدى قرون طويلة، فصمدت على صفحات الكتب، وفي قاعات النوادي والصالات الفلسفية، وعادت لتفرض نفسها من جديد في فلسفة بعض المسلمين المبهورين بالفكر اليوناني الكلاسيكي كالفارابي وابن سينا وإخوان الصفا ـ ولكن هذه القيم الخارجية ما أن تستشعر وطأة الحس الداخلي، والقيم الباطنية الحية، ونداءات الفطرة والروح والوجدان، حتى تجد نفسها قاصرة عن تلبية هذه النداءات والصمود للوطأة الباطنية، فتذوب كحفنة من الملح لا يستسيغها التيار الحلو المتحرك أبداً صوب مصيره!!

❁ ❁ ❁

ما هو البعد الثالث، وأي الحركات هي التي التزمته وكفلت لوجودها عناصر البقاء؟

البعد الثالث هو الذي يتغلغل بعيداً في كيان الإنسان، وبنية العلاقات

الاجتماعية، وتكوين الطبيعة، وحركة الكون.. إنه إذ يتغلغل هكذا بعيداً عن أجهزة الإنسان الخارجية وحواسه من سمع وبصر ولمس، يبتعد ويميل إلى الاختفاء، ومن ثم يصعب على تلك الأجهزة والحواس أن تدركه، وعندما تستسلم لعجزها، تعلن أن هذا البعد غير موجود!! أو أنه أمر ثانوي لا أهمية له، وأن التخطيط يجب أن ينصب ـ بناء على ذلك ـ على الوجود الخارجي للإنسان، والعلاقات الاجتماعية، والطبيعية، والكون.. أي أن يقتصر على بعدي الطول والعرض، مهملاً البعد الثالث.

إن عدم الرؤية، أو عدم المعرفة التي تمنع الوضعيين والعلمانيين من إدراك هذا البعد الخطير، هي التي تطبع منجزاتهم بالفشل وتصيبها بالخسران المبين. صحيح أن هناك كثيرين من الفلاسفة والمتصوفة، ظهروا في بلاد فارس والهند ـ مثلاً ـ ومارسوا تأملات ورياضات طويلة وشاقة، وأحسوا فعلاً بثقل البعد الثالث هذا وأهميته الأساسية في بناء الإنسان والعالم والطبيعة، إلا أنهم وقعوا، وأوقعوا الآخرين، بسلسلة لا نهاية لها من الافتراضات والتجارب الذاتية التي لم تتجاوز يوماً حدود فرديتها وسلبيتها وقصورها عن تحديد معالم الطريق. ذلك أن (الإحساس) بالبعد الثالث لا يعني بالضرورة (رؤيته) على طبيعته ومداه: واضحاً نقياً، لا غبش يحيطه، ولا ضباب يغلفه[١]. وهنا نصل إلى الجواب عن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال: ما هو البعد الثالث، ومن هم الذين تمكنوا من رؤيته وأحاطوا به علماً؟

البعد الثالث ليس الروح فحسب، ولا الإلهام فحسب، كما أنه ليس

---

(١) إن هذه الحقيقة تلقي في الوقت نفسه ضوءاً ساطعاً على السبب العميق في نجاح تلك الحركات الصوفية والأخلاقية التي صدرت عن عقيدة الإسلام النقية وتصوره الواضح الشامل، وتجاوزت بذلك طابع الذاتية والسلبية والسكون إلى الجماعية والإيجابية والحركة (انظر كتاب: الإسلام ربانية لا رهبانية، لأبي الحسن الندوي).

القيم والموجودات الغيبية فحسب، ولا جوهر الطاقة التي تحكم الطبيعة، والتي لم يتكشف لحد الآن إلا جانب ضئيل منها، فحسب..

إن البعد الثالث هو، بعبارة قرآنية واضحة: (الفطرة) التي فطر الله الكون والناس والأشياء عليها.. النظام الحتمي الذي يسير الكون والناس والأشياء صوب مصائرهم.. القانون الأبدي الذي يحرك الأشياء والخلائق انسجاماً مع بنية هذه الأشياء والخلائق.. القدر بمفهومه الواسع البعيد الذي يوجه به الله خلقه جميعاً كما تشاء إرادته، وكما ترسم حكمته العليا.. العلم الإلٰهي الذي يلمح القرآن أنه موجود في (أم الكتاب) وإن الذين يمتلكون جانباً من هذا العلم تتفجر على أيديهم ما نراه نحن طاقات هائلة ومعجزات. والإنسان لا يستطيع بعقله وحواسه، ولا بتجاربه وتأملاته الذاتية الباطنية، أن يتصل بهذا العلم، ويسبر غور الفطرة.

ومن ثم كان لابد من واسطة تصل الأرض بالسماء، وتنقل للبشرية، عن طريق أفذاذ من بنيها، معالم الطريق التي تجعل الإنسان يستعيد انسجامه مع فطرته وفطرة الكون والعالم والخلائق.. إن الوحي كان هذه الواسطة، والأنبياء كانوا هؤلاء الأفذاذ.. وكانت الأديان، منذ عهد آدم وحتى عهد محمد عليهما السلام هي الثورات الوحيدة التي أدركت البعد الثالث بإرادة الله. والحركات الوحيدة التي عبرت الطريق في وفاق تام مع فطرة الكون وقانونه ونظامه.. والدعوات الوحيدة التي خاطبت كينونة الإنسان مبتدئة ببعده الثالث، صاعدة صوب عقله وسمعه وبصره، ومشكلة ـ أخيراً ـ الظروف والأوضاع الخارجية التي تمكنه من الانسجام مع فطرته الذاتية وفطرة الكون والعالم من حوله.

إن جوهر الصراع بين النبوات والمبادئ الوضعية والعلمانية يقوم على هذه المأساة: صراع بين أكثرية ساحقة لا تمتلك رؤية البعد الثالث، ولا تحس به، إلا بشكل غامض مضطرب، وبين أقلية فذة هيأها الله سبحانه

لقيادة البشرية إلى (النظام) بما تمتلكه من رؤية واضحة لهذا البعد، وإحساس أصيل به.

وكما أن هذا الصراع هو مأساة التاريخ البشري، فإنه روعته أيضاً.. لأن صراعاً يقوم على هذا العمق وهذه الأصالة، هو الذي يعطي للتاريخ قيمته وتنوعه. ويهب للإنسان ميداناً واسعاً لشحذ عزيمته وتركيز إرادته من أجل الانتصار.. الانتصار على أوسع جبهة عرفها تاريخ الصراع، وأصعب مشكلة شهدها المكافحون من أجل الوصول إلى الطريق المستقيم، وأعمق قضية جابهها الإنسان، وهو يبحث عن سعادته وتوحده ومصيره.

إن من فطرة الكون والعالم والإنسان نفسها ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ هو أن يشهد تاريخ البشرية، منذ خلق آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة، صراعاً أبدياً بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين النور والظلمات، بين العدل والظلم، بين الحرية والطغيان، بين الهدى والضلال، وبين الإسلام والعصيان. وهذا الصراع يجب أن يفهم على أنه صراع بين حق واحد وباطل واحد، بين هدى واحد وضلال واحد، وأنه رغم حدوث أنواع لا يحصيها العد من الصراع، إلا أنها جميعاً كانت تؤدي دائماً إما إلى النور الواحد أو إلى الظلمات!!

فإذا ما جئنا لنعرف كيف أدرك الأنبياء ـ عليهم السلام ـ البعد الثالث، أو الفطرة، وماذا طلبوا في رسالاتهم، وما هي الراية التي حملوها في صراعهم مع الوضعيين فإننا سنجد بوضوح شهادة (لا إله إلا الله) وكلمة (الإسلام).. منذ عهد (آدم) إلى عهد (محمد) كانت دعوات الأنبياء، عليهم السلام، وصراعهم، تتركز حول أن يشهد الناس بأنه لا إله إلا الله، وأن يسلموا ـ من ثم ـ وجودهم بكليته لله رب العالمين، يتلقون منه وحده معالم الطريق.

فإذا ما تحققت هذه الشهادة، وهذا الإسلام، وتحدد مصدر التلقي، فآنذاك سيعود الإنسان الضال إلى الصراط المستقيم، وسينسجم ـ بإرادة الله

وقدره ـ مع الفطرة التي فطر الله الكون والناس والأشياء عليها. أي أنه سيجد نفسه منسجماً ـ بإعجاز ـ مع نفسه ومع الآخرين، ومع الطبيعة من حوله، ثم مع الكون في أمدائه اللا نهائية التي تبدأ ـ بالنسبة للإنسان ـ بخلق أبيه آدم، وتصل به ـ عبر حياة مليئة بالصراع والإرادة والمتعة، وعبر حساب عادل دقيق يوم البعث ـ تصل به إلى مصيره الذي يتكافأ وفاعليته على الأرض: الجنة أو النار!!

هذا هو البعد الثالث الذي أغفلته كل الثورات السياسية والحركات الاجتماعية والدعوات الأخلاقية.. لأنها لم تره أو تحس به، اللهم إلا الرؤية المليئة بالغبش، والإحساس الذي تنقل به وتذهب ببريقه أوحال التجربة الخارجية الحسية الثقيلة. ومن ثم يضطر هؤلاء إما إلى إنكار البعد الثالث، أو إلى القول بعلمانية الحركات، أي أن الإنسان، ما دام ليس بقادر على أن يصل إلى أبعد أمداء البعد الثالث، وما دام يشك في جدوى الأديان وموضوعيتها، إذاً يجب أن يستند في تخطيطه على ما لديه من علم، وعلى ما يمتلكه عقله وحسه من إمكانيات التخطيط والتجريب ورسم مناهج الثورة والحركة. وهكذا فإن هذه الدعوات العلمانية الوضعية جميعاً ليست سوى (تعويض) ـ كما يقول علم النفس ـ عن الفشل الذي عاناه قادة الثورات والحركات في إدراك البعد الثالث، هذا الفشل الذي تمثل إما برؤية قاصرة مضطربة، أو إحساس ثقيل هابط صوب الشكل، بعيداً عن الجوهر.

۞ ۞ ۞

والآن حان الوقت لتمحيص موقف الدين، أو الإسلام، من عناصر الثورة والحركة، وكيف عالج البعد الثالث لكل عنصر من هذه العناصر، وكيف أحرز ـ بهذا ـ النجاح الذي تقطعت دونه أنفاس الدعاة والثوار والحركيين!!

إن كل ثورة أو دعوة أو حركة إنما تستهدف تنسيق وجود الإنسان وعلاقاته

مع نفسه، ومع الآخرين (المجتمع)، ومع العالم (العلاقات السياسية الدولية)، ومع الطبيعة (استغلال كنوزها وطاقاتها)، ومع الكون عن طريق العقيدة التي تحدد أصل الإنسان ومصيره، وطبيعة الخلائق الأخرى من ملائكة وجان وشياطين، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الخالق والمخلوق. فهناك إذاً: الإنسان، المجتمع، العالم، والكون. ولنأخذ الإنسان.

الإنسان نسيج وحده، بنية حية من جسد وروح وطاقة، نفخة من روح الله سبحانه في قبضة من طين.. الإنسان مزيج معجز عجيب من جسد وعقل وروح وضمير وعاطفة وغرائز وأعصاب ووجدان[1].. والنداء الموجه للإنسان داعياً إياه أن يتحرك ضد الظلم والإرهاب، أن يسهم في الثورة ضد الفوضى وعدم الانسجام والتمزق، أن ينتمي إلى دعوة تخلصه من الدنس والبهيمية وتنقذه من السقوط.. هذا النداء يجب أن ينصب على تكوين الإنسان كله: على جسده وعقله وروحه وضميره وعاطفته وأعصابه ووجدانه، كي تستجيب هذه القوى جميعاً للنداء، وتتحرك، متناسقة متوحدة، صوب (الثورة) وتنتمي إليها. إن أي إغفال لجانب أو أكثر من جوانب الإنسان سوف يقسمه قسمين، أو يمزقه أشتاتاً وتفاريق.. قسم واحد، أو مزقة واحدة، هي التي ستتحرك صوب النداء، مترنحة متهافتة، لا تكاد تقوى على الحركة.

والقوى الأخرى في كيان الإنسان ستتبلّد حتماً بالسكون المطبق عليها، وسيصيبها العفن وينخر فيها السوس. وسيتهدم الإنسان من الداخل، فلا يقوى على الاستمرار في المسير بعد أن يتحرك خطوات، إنه سوف يسقط في أول الطريق.

كما أن قوى أخرى.. قوى لا يمكن لأية دعوة أن تمحقها من الوجود كالغرائز والدوافع والمطامح الروحية والأحاسيس الوجدانية المتفردة، سوف

(١) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

تظمأ لهذا الإهمال، وسوف يزداد ظمؤها يوماً بعد يوم. ومن أجل أن ترتوي ستعلن ثورتها المضادة من داخل الإنسان المنقسم نفسه، وستكون من العنفوان والاندفاع ما يمكنها من سحق كل الالتزامات المحدودة السابقة، والانطلاق باتجاه مضاد. وسوف تفقد الحركات عن طريق هذا السعي المضطرم للتحرر الداخلي كل مكاسبها. وأكثر من هذا، ستتحول إلى ردة باتجاه جديد مضاد.

اقرؤوا إن شئتم تاريخ البشرية.. سترون أن كل الحركات التي نادت جوانب محدودة من الإنسان، والتي لم تسع إلى توجيه ندائها إلى وجود ابن آدم كله، هذه الحركات عانت ذات المأساة: ارتداد من الداخل.. تمرد من أجل الارتواء لعناصر أهملت وتجاهلها الدعاة. إن مساحة كبيرة من تاريخ البشرية تغطيها هذه الحركة بين الفعل ورد الفعل في الحركات والدعوات والثورات، هذا التناقض بين المادة والروح، بين العقل والوجدان، بين القسر الخارجي والغرائز الداخلية، بين (الماكيافيلية) والضمير، بين الإباحية والأخلاقية، بين القسوة والحنان.

إن ما حاول (ماركس) أن يوهم به من أن البشرية لم تشهد في تاريخها الطويل سوى تناقضاً (ديالكتيكياً) بين وسائل الإنتاج، بين القيم المادية الخارجية فحسب، بين النظم والأشكال الظاهرية فقط، وأن هذا التناقض الخارجي هو الذي كان يتحكم بالإنسان، ويصوغ وجوده الداخلي ومشاعره الباطنية.. هذه الدعوى سرعان ما يتضح زيفها وخطؤها بمجرد استقراء سريع لتاريخ البشرية حيث يبدو واضحاً أن التناقض وردود الفعل التي شهدها التاريخ ما كانت إلا انعكاساً لما كان يعتمل في أعماق الإنسان.. في بعده الثالث، حيث يشتبك نسيج معجز من روح ومادة ورغبات وغرائز ووجدان وعواطف وإرادة وانفعالات[1].. وحيث لم يجد الإنسان بدّاً من

(١) انظر: ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول.

التمرد على النداءات والحركات التي أغفلت هذا التشابك، وأهملت كثيراً من عناصره.

إن الحركة الداخلية للإنسان هي التي صبغت التاريخ، وما الأشكال الخارجية المتغيرة دوماً، المتمخضة أبداً عن تشكيلات ونظم جديدة، سوى انعكاسات لهذه التغيرات الداخلية بأشكالها وصيغها المختلفة.. المهم أن كل الثورات والدعوات والحركات التي أهملت البعد الثالث للإنسان، لقيت فشلاً مريعاً.. تمرد عليها الإنسان نفسه.. سحقها وانطلق يبحث عن انتماء جديد يعيد إليه وحدته، أو على الأقل يقدم استجاباته، بدرجة أو أخرى، لكل ما يعتمل في كيانه.. وآخرون تمردوا على انتماءاتهم القديمة، وانكفؤوا على أنفسهم دون القيام بمحاولة جديدة.. إذ أصابهم اليأس، وشعروا بعدم جدوى تكرار المحاولة.

إن حضارتنا المعاصرة بالذات تشهد أعداداً هائلة من الصنف الأخير.. لا منتمين، تمردوا على النظم والأشكال الخارجية لحضارة لا تنادي كينونة الإنسان، ولا تروي ظمأه كإنسان، ولا تقدم إليه ما يوحده، ويسعده ويشده إلى مصيره.. إن حضارتنا المعاصرة تبني صروحها في الخارج: شوارع فسيحة، وعمارات ضخمة، وناطحات سحاب.. مصانع هائلة، ومنتجات لا نهائية، ونظم إدارية، وفلسفات تربوية، ونظريات شتى..

هذه الحضارة التي قربت مسافات الأرض الشاسعة، وفجرت المياه الحلوة في الصحارى، واكتسحت الغابات المظلمة في أعماق القارات، ووضعت خطواتها الأولى على سطح القمر.. هذه الحضارة لم تلتفت للإنسان، وبتعبير أدق أنها تلتفت للإنسان بقدر ما يتعلق الأمر بعلاقاته الخارجية، ولكنها تهمل بعده الثالث، والبعد الثالث كما رأينا هو إدراك وحدة الإنسان، تداخل بنيته، وتشابك نسيج شخصيته، واحتوائه عناصر عديدة متنوعة.. البعد الثالث هو الأساس المتين الذي يجب أن تقوم عليه

أية حضارة تريد لنفسها البقاء.. إن الذين يبنون حضارتهم مهملين هذا البعد، فكأنما يبنون على شفا جرف هار لابد وأن ينهار بهم في هاوية السقوط في يوم قريب أو بعيد.

إن بناءً راسخاً لا يمكن أن يقوم على الفراغ، ولا يمكن أن تبدأ أسسه من السطح.. ولابد أن تعمل فؤوس البنائين في الأعماق، تحت القشرة الخارجية، بحثاً عن أساس متين في تكوين الإنسان نفسه.. من أجل هذا سقطت حضارات أثينا وروما والعصور الوسطى، ومن أجل هذا تشهد الحضارة المعاصرة تمرداً عليها من روادها أنفسهم، من زهرة بنائيها ومهندسيها: علماء طبيعة ورياضيات، أساطين طب وعلماء نفس، فلاسفة ورجال اجتماع ومؤرخين وفنانين وأدباء.. عدد كبير لا يحصيهم العد من الرواد، يعلنون اليوم غضبتهم ضد حضارة لا توائم الإنسان.

لماذا لا توائم حضارة القرن العشرين الإنسان؟ الجواب: إنها شأن أية حركة سياسية، أو ثورة اجتماعية وضعية علمانية، أهملت بعد الإنسان الثالث: أهملت وحدته، تجاهلت روحه وعواطفه وضميره ووجدانه.. باختصار: إنها لم تسعَ أبداً إلى البحث عما يجعلها تنسجم مع فطرة الإنسان.

❁ ❁ ❁

وما دمنا بصدد الحديث عن الحضارة، وعن عوامل تدهورها وسقوطها.. فإن سؤالاً ملحاً يفرض نفسه فرضاً في هذا المجال.. إن المبادئ الوضعية العلمانية، بشتى أصنافها، استطاعت أن تنشئ حضارات مزدهرة مطبوعة بطابعها، تماماً كما استطاع الإسلام أن ينشئ حضارته ذات الطابع الخاص.. وإن تلك العلمانيات تمكنت من (بعث) (الحافز) على الإنجاز الحضاري في نفوس أبنائها، تماماً كما بعث الإسلام هذا الحافز على الخلق والابتكار والإنجاز في نفوس أتباعه.. ثم ـ وهذا هو الأهم ـ

إن كل تلك الحضارات علمانية وإسلامية تعرضت لذات المصير المحتوم الذي يسوق الدول والحضارات إلى نهاياتها ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. فما هي الفروق الجوهرية إذاً بين تلك الحضارات كحركات تنبثق عن مبادئ لم تتوغل إلى البعد الثالث للإنسان والعالم، وبين حضارة تنبثق عن عقيدة تعرف كيف تحيط علماً بذلك البعد الثالث؟

صحيح أن الإسلام يشبه كل المبادئ الوضعية في عملية خلق الحافز والدافع لأن يعبر الإنسان عن كل طاقاته وينفذها في عالم الواقع.. إلا أن ميزة الإسلام أنه يسعى إلى أن تتم عملية التعبير هذه بأكبر قدر من الأمانة والمسؤولية والإخلاص وحيوية الضمير استناداً إلى عاملي (التقوى) و(الإحسان) اللذين يقفان كحارسين ودافعين ـ في الوقت نفسه ـ إلى الأداء الأمين المخلص المسؤول.

وإذا كانت المبادئ الوضعية تبعث هذا الحافز الحضاري عن طريق وضع أهداف دنيوية فردية أو جماعية، قومية أو عالمية، تعود بالخير والإنتاج على الفرد والجماعة والأمة في نهاية المطاف، فإن الإسلام بدوره يثير هذا الحافز بوضع أهداف ذات طابع جزائي، فردي وجماعي أيضاً، (النصر الذي يقود إلى الاستعلاء العادل في الأرض، أو الشهادة التي تقود إلى الجنة.. وبين النصر والشهادة لا يغبن الإنسان المسلم مثقال ذرة من عمل ينجزه مستهدفاً من ورائه تطوير الحياة وإغناء الحضارة بما يعزز مكانة الإسلام في الأرض).. وواقعية الإسلام تبتدئ في تقريره أهمية الهدف الجزائي المادي والمعنوي على السواء، في إثارة الحوافز للإنتاج الحضاري بتقوى عميقة وإحسان طموح، أي بأكبر قدر من الرقابة الذاتية والإتقان في الأداء..

إن الأهداف في المبادئ الوضعية تقتصر على النطاق النفعي العملي المنغلق على الإنسان الفرد أو الطبقة الحاكمة، أو الحزب المتنفذ، أو القومية، أو الأمة... إلخ.. أما في الإسلام، فإن الأهداف تتجاوز نطاق

النفعية المباشرة والعملية الملموسة، وتكسر جدران العزلة الأنانية المنغلقة على القبيلة أو الفئة الحاكمة أو الجماعة الدينية أو الأمة. . منفتحة على الإنسان في العالم كله أنى كان وإلى أية فئة أو جماعة أو دين أو أمة كان انتماؤه.

فإذا ما تجاوزنا الفروق الجوهرية بين الأهداف التي تضعها الحضارات العلمانية لتحريك الإنسان وتلك التي يضعها الإسلام، لوجدنا أنفسنا أمام (فرق) أو (ميزة) أخرى أكثر تأثيراً وعمقاً، تلك هي (كيفية التعامل مع المنجزات الحضارية): هل تستطيع المبادئ العلمانية أن تحدث وئاماً بين الإنجاز الحضاري وبين الإنسان؟ هل تستطيع أن تكيف هذه المنجزات من أجل تغطية عادلة وصميمية لحاجات الإنسان فرداً وجماعة؟ هل يتم (التعامل) وفق أهداف أكبر من النفعية والأثرة (الفردية أو الطبقية أو الحزبية أو المذهبية أو القومية)؟ هل يحقق هذا (التعامل) سيراً إلى الأمام صوب تعزيز مسؤول لخلافة الإنسان في الأرض، ولمكانته كسيد للعالمين؟ هل ينتج عن هذا (التعامل) المزيد من الضمانات التي تكفل للحضارة رقياً وتطوراً وعدم ارتداد إلى الوراء، وتوازناً في المعطيات: المادية والروحية، العقلية والعاطفية، الطبيعية والغيبية، الحسية والمعنوية. . . إلخ، والتزاماً في شكل المعطيات وفي مضمونها بما ينسجم مع مهمة الإنسان في الأرض؟

إن الحضارة الإسلامية ترد علينا بالإيجاب على كل هذه الأسئلة التي يمكن أن تطرح في هذا المجال، وغيرها كثير. . أما الحضارات العلمانية فإن واقعها التاريخي يشهد بوضوح جازم كيف أنها نكلت عن كل هذه المتطلبات، وكيف أنها انحرفت بمسؤولياتها الصعبة عن الجادة المستقيمة. . وها هي الحضارة المعاصرة التي نعيشها جميعاً تقدم من الأدلة ما فيه الكفاية. .

إن الحضارة الإسلامية قدمت للعالم ـ على سبيل المثال ـ رياضيين كالخوارزمي والبيروني. . وغيرهما، والحضارة الغربية قدمت للعالم بدورها

رياضيين كباراً كنيوتن وريمان وأينشتاين وغيرهم، لكن معطيات الأولين وضعتها حضارتنا في خدمة (الإنسان)، أما معطيات الآخرين فقد وجهت صوب صنع وإنجاز أدوات لقتل الإنسان..

هذا إلى أن حياة العلماء (الشخصية) ليست سواء هنا وهناك.. ففي الحضارات العلمانية يعاني المفكر، والمثقف بصفة عامة، الكثير من التمزق والتشتت وعدم التوحد الذاتي والانسجام مع الخارج جماعة وأمة وعالماً، ولا يجد التوازن الفعال بين قدراته العقلية الفذة وخوائه الروحي المجدب.. أما في الحضارة الإسلامية فإن حياة العلماء الشخصية كانت تتميز بالتوازن والتوحد والانسجام.. ولهذه التجربة الذاتية (الخاصة) أثرها الكبير الحاسم على طبيعة المنجزات الحضارية نوعاً وكماً، ولا يبدو هذا الأثر إلا على مدى الزمن الطويل..

وميزات كثيرة أخرى تميز الحضارة الإسلامية عن سائر الحضارات.. أن (التجربة الإسلامية السياسية) أقل التجارب تعرضاً لحالات الغش والمروق والخيانة تلك التي تمثل انحرافات خطيرة عن سير المبدأ أو العقيدة صانعة الحضارة.

فلو قمنا بدراسة (إحصائية) لحالات (الازدواج) بين النظرية والتطبيق، أو بين الفكر والتنفيذ، والقول والعمل.. بين المبادئ في أطرها المكتوبة وبين الشخوص التي تتجسد في حركتها وسلوكها هذه المبادئ، لرأينا تجربتنا تقدم أقل الحالات الازدواجية عدداً.. بينما نجد في تجارب وضعية (كالاشتراكية اليوغسلافية مثلاً) ازدواجاً خطيراً بين الفكرة والتنفيذ، نستطيع أن نجد الكثير من صوره في كتاب الزعيم الشيوعي اليوغسلافي الشهير: ميلوفان دجيلاس (الطبقة الحاكمة) والذي ساقه إلى السجن تسع سنوات رغم أنه يعد الرجل الثاني في يوغوسلافية بعد (تيتو).

إن تضاؤل الحالات **الازدواجية في التجربة الإسلامية ينبثق ولاشك عن**

مقدار الحيوية والرقابة الدائمة التي يولدها الإيمان في ضمير الإنسان، ومدى المسؤولية التي يحملها الإسلام عنق الإنسان دون إكراه أو قسر أو إرغام. وما (التقوى) و(الإحسان) - كما رأينا - إلا وصول إلى المرحلة التي يحس فيها الإنسان المسلم أنه يعطي كل جزئية في حياته لله، وعلى عين الله التي لا تنام لحظة.. وهذا الوازع الضميري، وهذا الشعور بالمسؤولية، له تأثيره الكبير على العطاء الحضاري كماً ونوعاً، وعلى طبيعة التعامل مع هذا العطاء.

هذا فضلاً عن أن التجارب المبدئية أو السياسية التي تتعرض لخيانات وازدواجيات أقل، يطول عمرها الزمني أكثر، وبالتالي يتاح لها أن تقدم إنجازات حضارية أعمق وأشمل وأكثر تماسكاً واستمراراً وتعبيراً عن روح الجماعة وأهدافها. أما التجارب التي تمارس فيها الخيانات على نطاق واسع فإنها سرعان ما تحدث تمزقاً وتفتتاً في المجالين الجماعي والفردي، الأمر الذي يؤدي إلى الإسراع بسقوط التجربة: دولة وحضارة وإنساناً.

ذلك أن الخيانة ستولد في مجال الجماعة حركات مضادة تسعى لسحق القائمين على التجربة، وقد يؤدي الأمر إلى إنهاك قوى الطرفين في مجال العنف السياسي والعسكري، فلا تقوم للأمة قائمة بعد ذلك. وأما على النطاق الفردي فإن تكرر الخيانات سيحيط (الضمير) بطبقة من التراب واللا مسؤولية، وسيقلص بالتالي (كمية) المنجزات الحضارية ويؤثر على (نوعيتها) مما يؤدي بدوره إلى إنهاك القوى التي تستند عليها التجربة، الأمر الذي يعجل بتدهورها وسقوطها.

نجيء بعد ذلك إلى ميزة أخرى أكثر أهمية.. في التجارب الوضعية يسقط الإنسان نفسه، هذا الكائن المتفرد، الفعال، بمجرد سقوط دولته وحضارته، وتكون النكسة، بالتالي، أعمق وأشد خطراً.. أما في الإسلام فجائز أن تسقط الدولة أو الحضارة، ولكن الإنسان المسلم والمجتمع المسلم يستمران على المقاومة والتماسك أطول فترة ممكنة، بسبب توفر

الحوافز الذاتية والقيم الخلقية التي يولدها الدين والضمير الديني مما لا نجده في التجارب العلمانية، فها هنا تكاد تكون القضية طردية: كلما ازدادت الحضارة والدولة تدهوراً وانهياراً، ازداد الإنسان (المواطن) تفسخاً وتحللاً وغياباً.. أما في الإسلام فإن الإنسان والمجتمع يظلان يحتفظان بنوع من التماسك الداخلي، وربما ازداد هذا التماسك قوة ومقدرة على البقاء، كرد فعل إيجابي لغياب الدولة والحضارة، وإن كان ذلك لا يستمر إلى النهاية بحكم تكوين الإسلام نفسه حيث ترتبط وتتداخل دوائر الإنسان والدولة والحضارة.. إن ما ذكرناه قبل قليل عبر عن نفسه، في العصور الإسلامية التالية، بظهور عدد من الحركات الإسلامية، صوفية وسياسية.. سعت إلى تعزيز التماسك الفردي والجماعي بوجه التشتت السياسي والحضاري، وهو أمر لا نجد له مثيلاً في التجارب الوضعية، فيما حققه من نتائج.

إن الدول والحضارات الوضعية كثيراً ما تعاني السقوط من الداخل، في أعقاب تدهور يصيب الإنسان في ذاته، والمجتمع في علاقاته (يمكن الرجوع في هذا المجال إلى كتاب (اللا منتمي) لكولن ولسون لدراسة هذه الظاهرة). وهذا التدهور كثيراً ما يقود الأغلبيات الساحقة إلى السلبية والدمار، ويقود القلة الفذة إلى الانشقاق والتمرد.. والظاهرتان معاً تهددان بالسقوط السياسي والحضاري.. أما في الإسلام، فصحيح أن الإنسان ـ كما يؤكد الإسلام نفسه ـ هو محور قيام الدول والحضارات أو تدهورها وسقوطها.. إلا أن تاريخنا يعلمنا حقيقة أخرى وهي أن الكثير من تجاربنا التاريخية سقطت في أعقاب ضربة خارجية، بدوية خشنة، أو بربرية قاسية.. وهذه الضربات كثيراً ما كانت تؤدي إلى مزيد من التماسك الإنساني الفردي والجماعي (كما حدث للمجتمع الإسلامي في عصر الغزو الصليبي...) إلا أن ضربات كهذه كانت تعمل إفساداً وتدميراً على نطاق الدولة والحضارة، سيما في تلك الفترات التي لم تتكافأ فيها القوى العسكرية وقدرات التسليح.. وهكذا كانت الغزوات الخارجية تخلف وراءها دولاً

منهارة وحضارات تلفظ أنفاسها.. إلّا أنها لم تخلف ـ إلّا في القليل ـ إنساناً مسلماً ممزقاً، أو مجتمعاً إسلامياً متدهوراً.. على العكس.. كانت تخلق (المجاهد) و(جماعات الإخوان) و(الفتوة) ذات الطابع الإنساني والسلوك الاجتماعي العالي المستمد من قيم الإسلام وأخلاقياته.

ولكن هل أن بقاء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم بدون دولة أو حضارة يمكن أن يظل طويلاً؟ أبداً.. فهما سرعان ما يتعرضان لعوامل التحلل والتي سممت الأجواء (الخارجية)، ورغم طول فترة مقاومتهما إلا أن الجرائيم لابد وأن تنقل العدوى إليهما، فيتجهان صوب التحلل والدمار.. ولذا كان هناك ارتباط متين ـ في الإسلام ـ بين الدولة والحضارة من جهة، وبين الإنسان والمجتمع من جهة أخرى.. ولن يتم التوحد والتقدم والتماسك إلا بوجود هذه الأقطاب الأربعة: ابتداء من الإنسان صانع الحضارة، فالمجتمع مشكل قيم الحضارة ومنفذها، فالدولة حارسة الكيان الحضاري، فالحضارة نفسها التي لن تكسب استقلالها وحيويتها وامتدادها الخلاق إلا بتوفر الإنسان الفعال (المحسن)، والمجتمع الحركي (المجاهد)، والدولة القوية (الراشدة)..

ونصل إلى الميزة الأخيرة، وهي أكثر الفروق أهمية.. ذلك أن المبادئ الوضعية (العلمانية) لا تؤكد على (دور الإنسان) ولا على (عملية التغيير الباطني) أو (الجهاد الأكبر) بتعبير الرسول ﷺ، في طريقها إلى إقامة الدولة والحضارة، وفي مرحلة قيامها.. إنها تؤكد على (الخارج) أو (المحيط) فحسب، على (الطبيعة) أو (العلاقات المادية) أو (المجتمع)، على عملية التغيير الخارجي فحسب، وهذا يعرضها، بلا شك، إلى الكثير الكثير من الانحرافات والتخبط والتأخر في الوصول إلى الأهداف، وسرعة النكول عنها..

أما الإسلام فإنه يقرر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، ومن ثم يجيء التغيير الخارجي، وإقامة المؤسسات السياسية والعسكرية

والاجتماعية والثقافية. . قائماً على أساس عميق من (تغيير) و(بناء) مسبقين يشملان كل طاقات الإنسان وقدراته وتصوره وسلوكه. . وهذا ما تفسره لنا دعوة الرسول ﷺ، عندما بدأ بالإنسان **أولاً** (المرحلة المكية)، ثم انتقل (بحركة الهجرة) صوب إقامة الدولة والحضارة (المرحلة المدنية). . ولن تستقيم أية حركة في التاريخ إلا بأن تقتفي خُطى خاتم الأنبياء عليهم السلام، وتبدأ بالإنسان. . ببعده الثالث!!

۞ ۞ ۞

ونعود إلى السؤال الذي طرحناه أول مرة، كيف عالج الإسلام ـ بما أنه حصيلة صراع طويل بين الدين والوضعية ـ بُعد الإنسان الثالث؟ وهل تمكن ـ فعلاً ـ من توجيه ندائه إلى كينونة الإنسان؟ هل قدم له توحده، واستجاب لتركيبه الفذ العجيب؟ وما هي الوسائل التي اتبعها لتحقيق هذا الهدف، والغاية التي جعلها محوراً يتجمع حوله أولئك الذين ناداهم الإسلام على لسان رسوله العظيم ودعاته وصديقيه؟!

إن الإجابة على هذه الأسئلة جميعاً لابد وأن تقودنا إلى فصول هذا الكتاب، وقبل ذلك، إلى القرآن الكريم نفسه، إلى النداء الأخير المعجز، الموجه للإنسان من خالقه العظيم. وسيعلمنا هذا الكتاب، بوضوحه الإلٰهي المتفرد، كيف عالج الإسلام ورسوله الكريم وقادته، بعد الإنسان الثالث، ليس هذا فحسب، بل سيعلمنا ـ كذلك ـ الخطط والمضامين التي عرف كيف يدخل بها (الأبعاد الثلاثة) لكل من المجتمع، والعالم، والكون. . أليس هو منهج الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟!






الفصل الخامس

الشهود (١)

الشهود (١)

يعدُّ (كولن ولسون) بلا جدال من أبرز شهود القرن العشرين على ما تعانيه حضارته العلمانية من تأزم وعدم توازن، ليس بتركيزه وتنسيقه لشهادات حشد كبير من علماء أوربة ومفكريها وفنانيها الكبار فحسب، بل في أنه استطاع ـ كذلك ـ أن يضع يده كالطبيب المتمرس الناجح على مصدر الداء وقال بصراحة: هنا يكمن الداء.. ونادى بأعلى صوته: إن حضارة تعتمد العلم دون الدين، حضارة لا يمكن أن تظل طويلاً؛ لأن (الأجواء) التي تخلقها ليست بتلك التي يتلاءم معها الإنسان الواعي، المجرب، العميق.. ولذا ـ يؤكد كولن ولسون ـ تبدو ظاهرة (اللا منتمي) ـ التي بحثها الشاهد في كتاب خاص بهذا الاسم ـ الرد الذي لابد منه على الغشم والاضطراب والقلق والتوتر التي تولدها جميعاً الحضارة العلمانية المعاصرة في كيان الإنسان.

إن اللا انتماء هو عملية انشقاق صريح على حضارة ليس بإمكانها أن تحتوي الإنسان وتمنحه توحده وسلامه وانسجامه ومجالاته التعبيرية.. وهو ـ من جهة أخرى ـ محاولة للضرب في التيه بحثاً عن الحياة (المتحضرة) التي يمكن أن تتحقق فيها هذه الأهداف بطريقة متوازنة وسليمة. بعبارة أخرى: إن (اللا منتمي) ينشق على حضارته ليقوم بما يمكن تسميته رحلة تغرب بحثاً عن (الدين) ذاته.. فبه وحده يمكن أن تستعيد الحضارة المعاصرة صحتها وحيويتها، وبه وحده يمكن أن يستعيد الإنسان المعاصر توحده وأمنه الذاتي وإبداعه.

ترى.. هل حصل (اللا منتمي) على ما يريد، وهل عاد من رحلة تغربه وبيده القنديل الذي ينير ظلمات الطريق، ويقول للناس: هذا هو الطريق؟ ولكن قبل أن نجيب على هذا السؤال الحاسم، علينا أن نتلمس **أولاً** ملامح

الصورة التي يتميز بها (اللا منتمي) على المستوى الحضاري كما يعرضه علينا كولن ولسون في كتابه الثاني (سقوط الحضارة)(١)، وأن نعرف طبيعة الأرضية الحضارية التي خلقت ظاهرة (اللا انتماء) هذه، والمآل الذي تسير إليه.. ثم نجيء أخيراً إلى (مسألة الدين) لنعرف هل استطاع (اللا منتمي) معرفته والتزامه.. أم أنه لا زال يضرب في التيه؟!

١

«مرت سنوات ـ يقول كولن ولسون ـ وأصبح الشخص القلق الذي سميته (اللا منتمي) بطل عصرنا. وكنت أنظر إلى حضارتنا نظرتي إلى شيء رخيص تافه باعتبار أنها تمثل انحطاط جميع المقاييس العقلية. وبعكس ذلك فقد لاح لي اللا منتمي الرجل الذي يشعر لأي سبب كان بالوحدة وسط جمع من الذين لا يبلغون منزلته. وكان اللا منتمي كما تصورته إما مجنوناً.. أو قديساً حالماً لا يهمه إلا أن يحصل على لحظة واحدة يستطيع فيها أن يفهم العالم ويكتشف أسرار الطبيعة والله. وكنت كلما تغلغلت في دراسة اللا منتمي شعرت بأنه ليس غير عرض من أعراض هذا العصر. فأما من حيث الجوهر فهو عاص، وأما سبب عصيانه فهو انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية مادياً.. ولم يكن أمراً شديد الأهمية أن أستنتج أن اللا منتمي هو عرض من أعراض تدهور الحضارة، لأن اللا منتمين يظهرون كالبثور على جلد الحضارة المحتضرة. ويميل الإنسان إلى أن يكون على طبيعة محيطه، فإذا كانت الحضارة مريضة روحياً فإن الفرد يعاني من المرض ذاته، وإذا كانت صحته تساعده على تحمل أعباء الكفاح فإنه يصبح لا منتمياً..».

(١) ترجمة أنيس زكي حسن: الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، ١٩٦٣م، وسأكتفي فيما يلي بإيراد أرقام الصفحات في نهاية كل نص أو استشهاد مقتطف من الكتاب المذكور.

ويمضي كولن ولسون قائلاً:

«إن مدى الفعالية العادية في حضارة حديثة يبني جداراً حول حالة الإدراك العادية، ويجعل النظر إلى ما هو وراء ذلك مستحيلاً. إن الظروف التي نعيش فيها تفعل ذلك بنا، وهذا هو ما يحدث في أية حضارة صاخبة كالدينامو لا تفسح مجالاً للدعة والتأمل. ويبدأ الناس بفقدان الشعور الداخلي بأشكال الكينونة اللا معروفة، وبمعنى الهدف الذي يمكن أن يجعل منهم أكثر من مجرد خنازير كفوءة جداً. وهذا هو الرعب الذي يثور اللا منتمي ضده. ص ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨».

إن (كولن ولسون) يضع يده منذ اللحظات الأولى على الأساس العميق لمشكلة اللا انتماء، ذلك هو «انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية مادياً» والبحث عن الهدف الذي يجعل من الناس «أكثر من مجرد خنازير كفوءة جداً». وهل المسار الذي تسلكه الحضارة الغربية الآن سوى تأكيد للمادية، وقضاء على آخر ما تبقى من النشاطات الروحية، وسعي حثيث من أجل خلق (مجتمع الخنازير) التي تتميز بكفاءة فذة في توجيه فاعليتها الشيئية، وقدرة عجيبة على الاستجابة لدوافعها الجسدية، ولكن دون أية كفاءة أو قدرة على إيجاد علاقات روحية، أو إشباع دوافع الوجدان؟..

إن الهدف الذي تحث حضارتنا المعاصرة إليه مرعب حقاً.. أن نتحول جميعاً إلى خنازير تتميز بطاقة هائلة على الأداء المقنن والإنتاج السريع.. ولكنها لا تستطيع أن تمد عينيها إلى الأمام، أو أن تلتفت إلى الوراء لكي تعرف الخطوة اللاحقة التي ستخطوها، والسابقة التي خلفتها وراءها.. لأن معرفة كهذه لا تخدم أبداً منطق الأداء المقنن والإنتاج السريع، طالما أن التشوف إلى الأمام قد يقود إلى ما وراء الواقع القريب من قيم وأهداف روحية.. وطالما أن الالتفات إلى الوراء قد يقود إلى البحث في تاريخ

المسيرة البشرية وفحص حسناتها وسيئاتها.. وهو أمر له صلة ما بالروح والطموح الإنساني والهدف!!.

يقول أرنولد توينبي: «.. لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعها المصابيح الجديدة لهم مقابل المصابيح القديمة. لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلاً منها (السينما) و(الراديو)، وكان نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك (الصفقة الجديدة) اقفراراً روحياً وصفه أفلاطون بأنه (مجتمع الخنازير)!! ـ ص ١٦٢ ـ ١٦٣».

ويقول توفيق الحكيم في كتابه (تحت شمس الفكر): «الذكاء ليس بالمزية التي اختص بها الإنسان وحده، والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادي الكامل ليس وقفاً على المجتمع البشري، فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاماً في الإدارة، وإن مجتمع النمل لأدق منا إحكاماً في الاقتصاد. ولكن الذي يميزنا ـ نحن معاشر البشر ـ هو الإيمان! ما من مجتمع غير مجتمعنا البشري اهتدى إلى ذلك الإيمان الديني، لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان!!. ص ٥٦».

من أجل هذا الرعب الذي تبعثه الحضارة المعاصرة في النفوس يثور اللا منتمي.

«إن رؤيا اللا منتمي للعالم هي رؤيا العذاب والمرارة والشقاء والموت المفاجئ وانعدام الشعور بالأمن دائماً (انظر مثلاً مؤلفات همنغواي والغثيان والجريمة والعقاب). إن كراهية اللا منتمي للبشر واحتقاره (للحياة التي نضيعها في العيش) لا يتصفان بالموضوعية حتى يدرك أن هنالك شيئاً مغلوطاً في (الطريقة التي يعيش بها الناس).. ويتمثل الجحيم الروحي في وضع الإنسان الذي يتمتع بمواهب وقابليات كبيرة في وضعية يكون فيها مقيداً يشعر بالسأم ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه، وهذه هي وضعية اللا منتمي في العالم. ص ٦٤، ٦٥».

«انعدام الشعور بالأمن» وعدم القدرة على التعبير عن النفس. . دافعان آخران من دوافع تمرد اللا منتمي:

أما **الأول**: فلأن الحضارة الغربية لم يعد يهمها أيما شيء عن المصير، وكأن فرصة السنوات الستين أو السبعين وما يقدمه الإنسان فيها من (إنتاج)، وما يحصل عليه خلالها من (إشباع) هي كل ما هنالك. . وليس وراء ذلك أيما شيء. . ليس وراء ذلك أي مصير سوى تسليم الدور، أو بالحري مساحة الأرض في مدينة ما من المدن، أو مصنع ما من المصانع، أو مزرعة ما من المزارع، أو سوق ما من الأسواق، لإنسان آخر لكي يقضي عليها (فرصته) هو الآخر إنتاجاً وإشباعاً. . ليس وراء ذلك أي مصير، جنة وارفة كان هذا المصير أو ناراً محرقة.

وأما **ثانيهما**: فلأن الكمية الشيئية، ولأن منطق القطيع والأعداد، ولأن منطق التكاثر المتشابه الأصم، تقف جميعاً بوجه أية محاولة قد يطمح إليها الإنسان للتعبير الذاتي المتفرد، عن نفسه ومطامحه وتجاربه ووجدانياته ورؤاه.

«إن (مالته) ـ للشاعر الألماني رينر ماريا ريلكه ـ كتاب عظيم، لأنه يصف وصفاً نادراً رجلاً وحيداً في مدينة أجنبية: الصراع بين ثقته وقوته كلامنتم، وبين شعوره بأن العدد الهائل من الناس الذين يعيشون حوله: وكأنه ليس موجوداً بينهم، هذا العدد الهائل ينفي وجوده. ص ٧٩».

وهذا يذكرنا ـ بدوره ـ بالشاعر الفرنسي رامبو «الذي اعتقد بأنه عثر على زميل ليصاحبه في رحلته بعيداً عن العالم، وكان ذلك يعني أنه عثر على طريق للخروج من مشاكل اللا منتمي، لأن أعمق ما يشعر به اللا منتمي من خيبة هو شعوره بأن العالم عدوه وأن عليه أن يدخل المعركة وحيداً. ص ١٠٢».

كما يذكرنا بالكتاب الذي ألفه برووكس آدمز بعنوان (قانون الحضارة والانحلال) والذي تناول فيه قوانين التجارة والسكان حيث صرح:

بأن الانحلال يحدث حين يكون (فائض الطاقة) قد خلق توتراً وضغطاً داخليين لا يمكن احتمالهما. . وأن المادية تشتد والخيال يضمحل وتكون النتيجة الفشل في التعبير عن الذات في المجتمع عامة، وهذا يؤدي إلى انفجار هذا المجتمع. ص ١٤١ ـ ١٤٢.

ونمضي مع شاهدنا الذكي لنتفحص معاً سمات اللا منتمي ومعالم الأرضية الحضارية التي دفعته إلى التمرد والعصيان:

«اللا منتمي هو الرجل الذي يسيطر عليه مفهوم تفاهة الحياة، وقد شعر معظم اللا منتمين الحديثين بأن هنالك طريقاً ما للخروج من هذا الزقاق المسدود إلا أن البحث الدقيق أظهر إلى درجة ما أن هذا السلوك يرجع إلى الظروف الشاذة التي تتميز بها حضارتنا؛ لأن المقاييس الروحية تلاشت تقريباً، واستطاع فرويد وكارل ماركس أن يقنعانا بأن البشر جميعاً متشابهون، وأنهم يخضعون لمؤثرات نفسية واقتصادية واحدة. فإذا كان اللا منتمي الحديث لا يجد في العالم غير التفاهة فذلك لأن تربيته والظروف التي أحاطت به جعلته لا يرى أي معنى في فكرة (زيادة تركيز الذهن)، وهذا هو مفتاح الدين كله. ص ٥٨».

وهكذا فإن التقاليد الثقافية المادية التي أوجدها اليهود ـ ماركس وفرويد وغيرهما ـ في أوربة لتدمير الروح، حولت الناس جميعاً إلى ما يشبه حظائر جرذان التجارب الطبيعية، جرذ يشابه جرذاً في مدى الحظيرة كلها حتى لو ضمت الملايين من الجرذان. . لماذا؟ لأن (مقادير) الطعام والشراب والسفاد هي التي تصوغ التكوين النهائي لهذه الجرذان. . فإذا ما عرضنا ألفين منها لمقادير متساوية من الطعام والشراب والسفاد، أو حرمناها منها،

فإن النتيجة ستكون ألفين من الجرذان يسودها تشابه لا يحوي في ثناياه شعرة من تباين أو خلاف. هكذا يقول العلم.. وليست المجتمعات البشرية، كما يقول ماركس وفرويد، سوى حظائر تنقلها من حالة إلى حالة أخرى مقادير الطعام والشراب والسفاد، والفرصة الوحيدة لأن يشذ عنها واحد أو اثنان أو ثلاثة أو ألف هي في اختلاف تلك المقادير!!.

«إن التكرار يحول الإنسان إلى آلة فتصبح كل حركاته ميكانيكية. بيد أن أهم جزء في الإنسان ـ الجزء الخلاق ـ هو طوعي.. وكان يصعب علي جداً أن أهرب من الشعور الكريه بأنني قد صرت تماماً كما أرادني المجتمع أن أكون، مجرد إنسان آخر في بيت النمل الإنساني.. وإنني لمقتنع بأن الناس يموتون لأنهم يكفون عن الرغبة في الحياة. ترى أي هدف هنالك في العيش حين لا يكون هنالك أي تحدٍّ أو دافع، وحين يقوم القائد الأوتوماتيكي بأداء كل شيء؟. ص ٤١ ـ ٤٤».

وفق هذا التصور المرسوم سارت تقاليد أوربة الثقافية، وتمكن روادها ـ وأكثرهم من اليهود ـ من خلق أجواء لا مكان فيها لروح أو وجدان أو تركيز ذهني متفرد.. وإذاً فإن اللا منتمي إذا كان لا يجد في العالم غير التفاهة فلأن تربيته والظروف التي أحاطت به جعلته لا يرى أي معنى في فكرة (زيادة تركيز الذهن)؛ الأمر الذي يعد مفتاحاً للدين!! «وحين يكون اللا منتمي في مراحله الأولى ـ حين لا يعرف نفسه أو يفهم لماذا (هو غير متفق) مع بقية البشر ـ تجعله كراهيته للبشر وللعالم شخصاً غير متزن، غير لائق، ورجلاً يتدفق بالحقد والحسد، هستيرياً جباناً يتراجع مرتعداً. ويعتمد خلاصه على فهمه لنفسه ومعرفته لها، ولا يدرك، إلا حين يبدأ باكتشاف نفسه، أن كرهه هو أمر له ما يبرره، إنه رد فعل صحيح ضد عالم من المرضى أنصاف الرجال. ص ٥٩ ـ ٦٠».

حقاً إن الذين يقتنعون بمعطيات الحضارة المعاصرة، طعاماً وشراباً وملبساً ومسكناً واتصالاً جنسياً وسفراً، ومطالعات سريعة ومشاهدات سامة، ولقاءات عابرة.. والذين تتعبدهم تيسيرات هذه الحضارة من سيارات وثلاجات ومكيفات هواء وآليات للهدم والبناء، والذين تأسر أنظارهم منجزاتها التقنية والفنية والعمرانية، دون أن ينبض وجدانهم يوماً بهزة حزن عميق أو فرح طاغ، ودون أن تتمخض مطامحهم الروحية عن أمل كبير أو مصير عظيم، ودون أن يبذلوا جهداً في مزيد من التركيز الذهني من أجل معرفة مكان الإنسان في الكون، والمآل الذي ستقوده خطواته إليه.. إن أناساً كهؤلاء ليسوا أكثر من مرضى وأنصاف رجال.. لأن الإنسان، كما أنه بالإنجاز المادي والإشباع البيولوجي، فإنه كذلك بهزة الوجدان وتمخض الروح، وذهاب الفكر بعيداً بحثاً عن القيم والأهداف التي لا تلمسها الأيدي ولا تدركها الأبصار.

إن (ريلكه) الشاعر الألماني يسأل: «هل من المحتمل أنه بالرغم من اكتشافاتنا وتقدمنا.. فإننا ما نزال على سطح الحياة؟ هل من المحتمل أن تاريخ العالم كله قد أخطئ فهمه؟ ويجيب عن كل سؤال: أجل إن ذلك محتمل. ص ٧٧ ـ ٧٨».

وتلك هي صورة من صور المأساة العلمانية.. إنها تهيِّئ أجواء غير صالحة للرجل الكامل الصحيح.. ومن أجل ذلك يثور اللا منتمي ضد النصفية والمرض!! وهو يشعر بالاحتقار، لكن تطرفه في رد فعله، وعدم قدرته ـ ذاتياً ـ على التوصل إلى الدين، أو المنهج الذي يضبط ثورته ويصوغها ويوجهه في الطريق الصحيح، قد يدفعه آخر الأمر إلى الجنون «إن ظهور فكرة التأزم والمعاناة في الفن الحديث تعود بلا شك إلى الإدراك اللا انتمائي الأساسي: هنالك الجو الكئيب في قصص فولكنر وسارتر، والتوتر الذي يتجلى في موسيقا مؤلف مثل البان براغ، أو في لوحات فنانين

مثل بيكاسو وإيرنست وبراك. وأكثر من ذلك فإن كل فن أو أدب لا انتمائي ينحرف نحو الجنون. ص ٦٧».

٢

إن مسألة عدم التوازن في النشاط الذي تتطلبه الحضارة المعاصرة، وتأكيدها على الجوانب العلمية والمادية فحسب، دون أيما اهتمام بالجوانب الأخرى من كينونة الإنسان والعالم، هذه المسألة تتردد كثيراً في جنبات كتاب كولن ولسون بأساليب مختلفة ومن زوايا مختلفة كذلك.. ولكنها تلتئم في المدى البعيد لكي تقدم لنا صورة حضارة لا ترضى من الإنسان إلا نصفه المادي ـ العقلي ـ التجريبي فحسب، أما النصف الآخر ـ وليعذرني القارئ من استخدام هذه التقسيمات العددية، إذ ليس كيان الإنسان المعقد المتداخل المتشابك سهلاً على التقسيم إلى هذه الدرجة (انظر كتاب ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول) ـ أما النصف الآخر فإن الحضارة المعاصرة تقف منه أحد موقفين لا ثالث لهما: الرفض أو الإهمال. وهذا هو الخطأ الأكبر الذي تمارسه هذه الحضارة بحق الإنسان، والذي دفع الكثيرين من أبنائها، في شتى حقول المعرفة والنشاط البشري إلى العصيان و(اللا انتماء):

«لقد جاء القرن العشرون بعدد هائل من (التلاميذ الأذكياء). ومابرتراند رسل وآرثر كويستلر والدوس هكسلي إلا نماذج، ولكن من غير العدل أن ندعي أن هؤلاء هم الأمثلة الوحيدة. ويعتبر (التلميذ الذكي) صورة مطابقة للحضارة الغربية، فهو ناضج ذهنياً ولكنه غير ناضج في الأمور الأخرى.. أجل فنحن أذكياء أكثر مما يجب.. إن الحياة يجب أن تكون كاملة متعادلة، وعلى الحضارة أيضاً أن تكون كاملة متعادلة إذا أرادت أن تحيا، في حين أن الفلسفة المجردة هي علامة الحضارة الغربية، واللا منتمي هو

الإنسان الذي يثور على التجريد وعلى حضارتنا التي سبقت نفسها في حين أنها ما تزال طفلة[١]، اللا منتمي هو الإنسان الذي يتحرَّق شوقاً إلى المقاييس القديمة، المقاييس التي تعتبر (الذكاء) شيئاً خاصاً بالعقل فقط، وإن الحكمة هي مزيج معقد من العقل والعواطف والجسد[٢]..

إن الفكرة التي يدور عليها (العلم والعالم الحديث) للفيلسوف البريطاني الفرد نورث وايتهيد هي فكرة صادفناها كثيراً في بحثنا هذا: إن نتيجة إلقاء أهمية عظمى على العقل هي الفوضى والنصفية. ولو كان وايتهيد قد تعرف على شبنغلر وتوينبي لقال: إن هذه الفوضى هي السبب الرئيس في سقوط حضارتنا.. ولا شك أن القراء قد اكتشفوا الصلة القوية بين هدف وايتهيد وهدفي في (اللا منتمي)؛ لأن فكرتينا يبدأان بنبذ المادية العلمية (وما تفعله من نبذ للدين) وتلجأان إلى الأسس السيكولوجية للمفاهيم العامة، ولا يستطيع أحد أن يهمل نصف الحياة من أجل أهداف العلم، ثم يدعي أن نتائج العلم تعطي صورة كاملة دقيقة لمعنى الحياة، إن كل بحث عن الحياة يبدأ بوصفه موضع الإنسان على نقطة من المادة في المكان، في تيار تطوري لا نهائي، هو بحث نصف؛ لأنه يهمل معظم التجارب التي تهمنا باعتبارنا بشراً. ص ٣٧٣، ٣٨٠، ٣٨١».

---

(١) للتوسع في هذه النقطة أحيل القارئ إلى كتاب ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول.

(٢) لاحظ كيف يستخدم المؤلف هنا كلمة (الحكمة) وفق المفهوم القرآني، تلك التي تعني توجيه كل طاقات الإنسان وفق منهج شامل متكامل، يسعى إلى تحريك طاقات الإنسان جميعاً بنوع من التناغم والترابط، ويدفعها إلى أن تعبر عن نفسها جميعاً إلى الحد الأقصى المتاح من درجات التعبير. وبهذا تؤدي هدفين أساسيين:

أولهما: توحيد الإنسان وتوجيه نشاطه بما يخدم تلك الوحدة النفسية.

وثانيهما: (تنويع) الحضارة البشرية وتعميقها، وجعلها أكثر انسجاماً مع تكوين الإنسان ومتطلباته ودوره في الكون.

وتلك هي قمة التربية التي عجزت المذاهب العلمانية عن استشرافها وتنفيذها.. وهذا هو مصداق الآية: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ويزيد برناردشو هذه النقطة توضيحاً عندما يؤكد «على أن الحياة منتشرة في الزمان والمكان، ولا تستطيع أن تظهر نفسها إلا بالنفوذ إلى المادة وبفرض عالمها المنظم ونموذجها على فوضى المادة. بل إن مجرد وجود (قوانين طبيعية) هو إظهار للحياة، فإذا لم تتوزع الحياة في الزمان والمكان فإن كون المادة يصبح فوضى وحسب، كما أن دوران الأرض حول الشمس هو إظهار للحياة أيضاً. ص ٣٨٧».

ويمضي كولن ولسون معلناً سخطه على الخطأ الذي تمارسه الحضارة المعاصرة، والذي أصاب الكثير من طاقاتها بالشلل، داعياً إلى ضرورة حث كل إمكانات الإنسان في عملية صعوده الصعب صوب مصيره، مصوراً المسألة كعملية تسلق الجبال التي تحتاج إلى تكاثف منظم من كل أعضاء الفرقة التي تصمم على الصعود!!:

«إن مشكلة الحياة الرئيسة ليست في تعليم كيفية التفكير بصورة صحيحة، وإنما في كيفية العيش. إن قابلية التفكير لا تستطيع أن تتقدم وحدها، لأنها كدليل متسلق الجبال مربوطة بحبل مزدوج مع رفيقيها العواطف والجسد، فهي تستطيع أن تسير إلى حيث تشاء لكنها لا تستطيع أن تتقدم إلا إذا أغوت رفيقيها بأن يلحقا بها. ص ٣٩١».

ويضرب كولن ولسون مثلاً على الشخصية المتكاملة بالمتصوف البريطاني (وليم لو) فيقول: «لقد كان (لو) عظيماً لأنه لم يكن عاطفياً، ولم يسافر إلى عالم الروح كما فعل سويدنبرغ، ولم يغرق في ساماذي كما فعل كريشنا، وإنما كانت ميوله عقلية أكثر من أي متصوف آخر، وهذا هو ما يضعه في مكانه الذي يستحقه في أية دراسة لمشاكل اللا منتمي. بل إن نوع عظمته هو ما تحتاج إليه الحضارة الموشكة على السقوط. لقد كان متديناً بكل معنى الكلمة، ولم يكن تدينه بسبب حاجة عاطفية أو ضعف إنساني

وإنما كان بسبب القوة الصرفة: حنين عقل قوي، وحيوية إرادة تهدف إلى صحة أكثر، وإدراك ونشاط أعمق. ص ٢٦٩».

وفي مكان آخر يعود ولسون ليعلن سخطه على العرج الذي اختارته الحضارة الغربية والذي يهددها بالتدهور والانحلال: «. . .إن الحضارات تتدهور حيث تفقد سيطرتها على تعقيدها. وهي تفقد هذه السيطرة في اللحظة التي تبدأ فيها بالتفكير في حدود الأصناف المادية، لأن القوة في النهاية تكون قوة روحية. إن إنسان الغرب كان ميالاً دائماً إلى التأكيد على طاقاته العقلية. وهذا هو السر في تقدمه المادي الهائل، ولكنه في الوقت نفسه سر تدهوره. فهو يفقد القوة الروحية ـ المفهوم الحيوي الذي يحتفظ للنوع البشري ببقائه، وبدون هذا المفهوم فإن كلمة (التقدم) تكون مجرد سخرية، بل إنها تشبه سيارة لا وقود فيها. ويعود هذا التأكيد الشديد على الطاقة العقلية إلى عصر النهضة حين كانت الطريقة الإنسانية في التفكير في أوائل عهد ازدهارها. بيد أن هذه الطريقة لم تكتسب تأثيرها القوي إلا في القرن السابع عشر بظهور غاليلو وديكارت ونيوتن ومن ثم لوك وهيوم وكانت وهيجل، وقد استمرت حتى القرن العشرين على غزو كل نواحي الفكر من فلسفة واجتماع إلى فيزياء وإلى علم النفس. ص ١٦٦».

٣

إن المادية تقود بالضرورة إلى الإلحاد.. والإلحاد بطبيعته ليس سوى تصور قاصر لطبيعة الإنسان ودوره في الكون.. الإلحاد ليس سوى تأكيد قاسٍ على الفكرة التي طرحتها المادية برفض أو إهمال كل القيم والمكونات الإنسانية (غير العلمية!)، وحبس للتصور الإنساني في حدود معطياته العقلية أو المادية الصرفة.. واللا منتمي يرفض الإلحاد لأنه النتيجة المحتمة للمادية والنصفية والكبت الروحي والوجداني، وكل ثورة اللا منتمي إنما

تنصب على تحرير الإنسان من هذا الكبت وإعادة توحده، ولذا فهو يكره الإلحاد، ويعلن حربه عليه.

«. . إن التقدم العلمي قد جاء بموجة من الإنسانية الملحدة. . وليس هنالك من داعٍ يدعوني إلى التأكيد على (أن مهاجمة هذا الاتجاه الجديد) هو أقرب الأمور إلى قلب اللامنتمي. لقد قضى دستوفسكي عمره وهو يفكر بكتابة قصة طويلة جداً اسمها (الإلحاد). كما أن ت. ي هولمة مات وهو يفكر بتجريد الإنسانية (الملحدة) من أسسها، بل إن كل ما يتصل بحالة اللا منتمي الذهنية هو ضد الإنسانية بمفهومها القائم على العقلية والمادية، ضد المادية. والإلحاد يعني في النهاية المادية. . إن هذا يمثل نقطة من أهم النقاط التي يحتوي عليها البحث في اللا منتمي. . ترى ـ يتساءل كولن ولسون ـ من أي نوع من الناس هو المادي بصورة عامة؟ إنه أحياناً الإنسان الذي يتحمّس ضد الدين ويقف منه موقفاً عنيفاً بسبب تجربة كانت قد حدثت له مع رجال الدين، ولكن مثل هذا الإنسان نادر الآن خاصة في البلد الحديث المتحرر. . ولكن الأعم هو أن يكون هذا الإنسان المادي شكوكياً قصير النظر لم يمر بأية تجربة عاطفية أو روحية (ولا فرق بين التجربتين من الناحية العملية). . إنه الإنسان الذي عاش سنواته الأولى سكران بفكرة العلم الذي يستطيع أن يجعل الإنسان سيداً للعالم ولنفسه (لأننا نجد بالطبع أن جزءاً من عبودية الإنسان لنفسه يتمثل في عبوديته لجبنه، لخوفه من العالم الخارجي الذي يعلمه العلم كيف يسيطر عليه).

وهكذا نجد أن المؤمن بعقل الإنسان مدفوعاً بإرادة القوة للسيطرة على العالم، القوة التي يقتنع بأن العقل والمنطق يستطيعان أن يقوداه إليها. ولكن اندحاره يشبه اندحار الإسكندر الكبير، ماذا بعد السيطرة على العالم كله؟

لقد فشل إنسان العقل في إدراك أهم الحقائق الخاصة بالإنسان: أن العقل والمنطق قد يمنحان الإنسان القوة للسيطرة على عالمه الخارجي،

ولكنهما لا يمنحانه القوة للسيطرة على نفسه. إنهما يجعلانه دكتاتوراً ولكنهما لا يجعلانه عبقرياً.. إن الإنسان الذي تقتصر حياته العقلية على التفكير في المنطق والعلم، هو إنسان وسط وحسب، وهذا الإنسان يصبح شيئاً فشيئاً متحجراً عقلياً. فهو إذا أنفق حياته مركزاً انتباهه على الطبيعة وقوانينها فإنه لن يكتشف المناطق الغريبة في ذاته..

ولا يعني هذا أن العلم عديم الجدوى. بالعكس فإن العلم يعتبر أعظم أداة توصل إليها الإنسان من أجل تحقيق التفتح.. إلا أن المعرفة الطبيعية ـ التي تعنى بها الفيزياء والرياضيات ـ إنما هي جزء من المعرفة الحقيقية وحسب.. والحياة بحد ذاتها تجربة عاطفية مستمرة. ص ٢٣٥، ٢٣٦-٢٣٨».

وينتهي ولسون إلى القول بأن «كل انفعال قوي يكشف عن جانب من جوانب الانفعال الإنساني.. وحين يتحرر الإنسان من التافه والمباشر يغرق في عالم يتميز بتحسس جديد واكتشاف ذاتي جديد. وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة التربية، المعنى الذي هو أعمق المعاني جميعاً.. ولذا فإن المادية بكل صورها ـ الماركسية، والمنطقية الإيجابية، وإنسانية برتراند رسل العلمية المفتعلة ـ ميتة إلى هذا الحد. إنها تجعل السجن في الزمن، والإدراك، والشخصية ـ التي يتعرض لها البشر أكثر مما يجب ـ يلوح طبيعياً تماماً، بل حتمياً. ولما كان هذا النوع من التفكير قد غلب على عالمنا الحديث فإن اللا منتمي يجب.. أن يحارب نماذج التفكير الحضاري. ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩».

٤

إن الجنوح المادي الذي تعانيه الحضارة الغربية والذي انعكس على الإنسان تمزقاً في وحدة ذاته وشللاً أصاب نشاطه الروحي.. هذا الجنوح قاد عدداً من الباحثين الغربيين إلى القول بحتمية سقوط تلك الحضارة التي اختارت الكساح بدلاً من الانطلاق على قدمين، والتي أبت إلا أن تهمل أو

ترفض تلك الطاقات الروحية الخلاقة التي بها يمتلك الإنسان القدرة على تغيير ذاته وامتلاك زمام نفسه، وبالتالي امتلاك زمام العالم بأسره. ويقف شبنجلر ـ دون منازع ـ على رأس القائلين بالسقوط:

«وإذا أردنا أن نلخص الأشياء التي نتعلمها منه فإنها تتمثل في أن حضارتنا متدهورة، وأن أعراض تدهورها تتمثل في (الفلسفة التجريدية) التي (كما عرف بليك) تحول البشر إلى أقزام. إن الحضارة الغربية هي في جوهرها حضارة لا انتمائية، أما مادية اليوم فإنها علامة على تصلب شرايينها، بيد أن شبنجلر يقول: إنه ليس هنالك من مهرب. إننا الآن في آخر مراحل التدهور، ويجب علينا أن نؤمن بهذا. ليس هنالك أي احتمال في ظهور دين جديد أو فلسفة جديدة. لأن تربة الغرب (منهوكة ميتافيزيقياً). ص ١٣٩»

«إن التاريخ الحديث يتجه نحو التدهور، وليس في استطاعتنا أن ننظر إليه وكأننا سنعيش أبداً. . إن تاريخ شبنجلر يتصف بما يتصف به الوصف الطبي للأعراض، وإننا لنقر بأنه يعتبر تدهور حضارتنا أمراً لا مفر منه، تماماً كما يعتقد أي طبيب بأن موتنا لا مفر منه. ص ١٣٢».

ونمضي مع كولن ولسون في استعراضه للخطوط العريضة لحتمية شبنجلر مقارناً إياها بما طرحه مفكرون غربيون آخرون في هذا المجال:

«إن كتاب شوبنهاور (العالم كإرادة وفكرة) وكتاب (تدهور الغرب) متشابهان إلى درجة أننا نستطيع أن نعتبرهما شقيقين أدبيين. . وقد قال شبنجلر: إن الحضارات تشبه البشر لأنها تولد وتنمو وتنضج وتموت، ويتكون البشر من حجيرات بيولوجية، أما الحضارات فإنها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة، تماماً كالحجيرات التي تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات.

التقدم.. لا تقدم هنالك! فكما أن كل جيل من البشر لا يقل حمقاً عن الجيل الذي سبقه؛ فإن الأمر كذلك في الحضارات.

الهدف.. لا هدف هنالك، وإنما هي عملية بيولوجية كالحياة نفسها.

وهنا نأتي إلى أساس اللا منتمي فهو يرفض أن تكون الحياة مجرد تكرار لا معنى له من التفاهات الإنسانية.. (إن توافق عصر لا ديني مع فكرة مدنية عالمية توافقاً محكماً يعني أن ذلك العصر هو عصر تدهور).

ويتنبأ شبنجلر بعصر من الشك التام، وبأن هذا العصر سيكون المرحلة الأخيرة من الحضارة الغربية، وهو يقول: إن هذه المرحلة النهائية حتمية بالنسبة للتاريخ الغربي. وهو يعتقد مثل هـ. ج. ولز بأنه «لا طريق هنالك إلى الخارج، أو إلى ما حول، أو إلى الداخل.. ولكن شبنجلر كان في بعض الأحوال أقرب إلى شوبنهاور منه إلى نيتشه، لأنه لم يبن نظرته المتشائمة إلى التاريخ على العقل والملاحظة.. وإنما كان يمثل رد فعل ضد عصره كغيره من الأنبياء. وقد ساقه إلى التطرف ما رآه من الضحالة حوله، وما لمسه من الكسل الروحي. ص ١٢٦، ١٢٧، ١٣٤ ـ ١٣٥، ١٣٧».

ولا نريد المضي في استعراض وجهة نظر شبنجلر في الحضارة المعاصرة، لأن هذا يقودنا إلى تفسير وفلسفة التاريخ مما ليس له علاقة مباشرة ببحثنا هذا.. المهم هو أن نطلع ـ باختصار ـ على رأي واحد من عدد من المؤرخين يرون أن المسار الذي تنتهجه الحضارة العلمانية المعاصرة سيقودها إلى التدهور والسقوط. وقد أدى هذا الرأي ببعضهم إلى الإغراق في التشاؤم حيث لا مناص من أن يسلم الغربيون بأن زمن سقوط حضارتهم قد اقترب، وأنه لا مفر..

وآخرون كانوا أقل حدة من هؤلاء، مزجوا بيأسهم بعض الأمل، وراحوا ينقبون عن طريق الخلاص. ويقف كل من توينبي وكولن ولسون في

صف هؤلاء. وسنعرض لوجهة نظر توينبي في أواخر هذا الفصل، أما كولن ولسون فإنه يقول: «ان اللا منتمين هم أعراض الحضارة المحتضرة. إذ لا يمكن أن تكون هناك حياة بدون معنى الهدفية. والمجتمع يبدأ بالموت من الرأس إلى الأسفل. وهكذا ففي البداية يفقد النوابغ معنى الهدفية وحين يحدث هذا يبدأ السقوط والتدهور.. وبدون نظام يهب الإنسان الهدفية، وينقذه من لا هدفيته فإنه لا شيء.. إن المجتمع يموت من الرأس إلى الأسفل، والرأس يمثل اللا منتمين، فإذا مات الرأس لا تبقى للجسم إلا فترة قصيرة من الحياة. وأنا حين أقول: إن الرأس يموت فإنني أعني فقدان معنى الهدفية. ولكن الرأس يستطيع أن يستعيد مفهوم المعنى، وهكذا فإنه ليلوح أننا حين نحل مشكلة هدفية اللا منتمي فإننا نستطيع في الوقت نفسه أن نحل مشكلة حضارته أيضاً. ص ١٦٨، ١٦٩ ـ ١٧٠».

ثم يعود كولن ولسون فيؤكد، في الصفحات الأخيرة من كتابه، فكرته في أن هنالك أملاً في الخروج بالحضارة المعاصرة من أزمتها ومحنتها، ويقول: «كان واجباً علي أن أبحث اللا منتمي كظاهرة من ظواهر الحضارة الحديثة. وقد استنتجت من ذلك أنه عرض الحضارة الموشكة على السقوط. ولكن ذلك على كل حال هو علامة طيبة. وأعتقد أن أية حضارة تصل لحظة أزمتها يوماً ما، وأن الحضارة الغربية قد بلغت هذه اللحظة الآن. وأعتقد أن هذه الأزمة تهدد بالدمار أو بالسمو إلى أشكال أعلى. والمعروف حتى الآن أنه لم تواجه أية حضارة هذا التحدي إلا وكانت تفشل بمواجهته..

وفي القسم الثاني من هذا الكتاب حاولت أن أبين (لماذا؟) بلغ العالم الغربي لحظة أزمته، وحاولت أن أبين كيف أن الدين ـ العمود الفقري للحضارة ـ قد تيبس في كنيسة لم يعد يقبل بها اللا منتمون الذين غدوا عصاة. ونجد في حالتنا أن التقدم العلمي الذي ساعدنا كثيراً على دحر

صعوبات الحضارة، قد سلب منا الدافع الروحي، الأمر الذي زاد في عصيان اللا منتمي: فهو عاصٍ ضد الكنيسة المعترف بها، وعاصٍ ضد معبد المادية اللا معترف به.. وكلما وصلت حضارة لحظة أزمتها، صارت قادرة على خلق نموذج أسمى من الإنسان. و(يعتمد) نجاح استجابتها للأزمة على خلق نموذج أعلى من الإنسان.. ولا تستطيع الحضارة أن تستمر في وضعيتها العمياء الحاضرة، منتجة ثلاجات أفضل وشاشات أوسع للسينما، مجردة البشر باستمرار من كل معنى للحياة الروحية. إن اللا منتمي هو محاولة الطبيعة لمقابلة موت الهدفية هذا بالمثل. وهذا التهديد مباشر ويتطلب الاستجابة العاملة من كل من يفهمه منا. ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤».

ترى ما هو (المنهج) الذي يمكن أن يجابه به الإنسان المعاصر أزمة حضارته العلمانية ووجوده الممزق، ويتغلب على التهديد المباشر لهذا الوجود وتلك الحضارة، ويكون بمثابة (الاستجابة العاملة) لنواقيس الخطر التي تقرع في كل مكان.. ما هو الطريق؟!

يجيء الجواب مباشرة على لسان ولسون: (إنه الدين).. ولنستمع إليه: «إن الغرض من هذا الكتاب (سقوط الحضارة) هو أن أقول شيئاً عن حاجة هذا العصر إلى دين جديد، فإذا أردنا أن نعرف الدين لوجدنا أنه يعني مكاناً عاماً للعبادة. في عصر مثل عصرنا يلوح فيه أن الكنيسة قد فقدت كل صلة لها بالمشاكل التي تواجهنا فيه.. لو كانت الكنيسة تمثل الواقع الروحي (ولا يريد اللا منتمي شيئاً قط إن لم يكن يريد الواقع الروحي) فإن على الدولة بالتأكيد أن تخضع لهذا الواقع الروحي لأن الدولة تمثل عوناً مؤقتاً. ص ١٢٢ ـ ١٢٣».

«مكاناً عاماً للعبادة»!! ألا يعني هذا أن تلغى كافة المؤسسات الدينية التي مارست الاحتكار قروناً طويلة عن طريق رجال الدين والهيئات

الإكليروسية، وفرضت على الأوربي مراسيم وقيوداً عمقت في تصوره ـ من حيث تشعر أو لا تشعر ـ فكرة فصل الدين عن الحياة، وجعل الناس لا يكونون متدينين إلا في حدود مؤسساتهم الدينية، وأمام رجالات دينهم، وفي حدود المراسيم والأشكال.. ثم ما أن يغادروا أعتاب الكنيسة أو الهيئة الدينية حتى يودعوا كل مشاعرهم الدينية، ويستقبلوا عالماً دنيوياً بمعنى الكلمة، حيث يفقد الدين أية قوة أو فاعلية في التغلب على المشاكل العميقة التي تجابه الإنسان في حياته الدنيا تلك، والتي يسعى اللا منتمي جهده لمجابهتها مجابهة تكفل له الخلاص والأمن والتوحد والانسجام؟

ألا تعني عبارة (مكاناً عاماً للعبادة) أن يكون الدين منفتحاً على كافة فاعليات الإنسان، وأن يهب الإنسان اليقين العميق بأنه في كل ما يقدم عليه من نشاط وجهد وحركة وإبداع إنما يتعبد به الله، الأمر الذي يتيح للإنسان توحداً فذاً عجيباً في ذاته وفي علاقاته الخارجية، وفي تطلعاته الروحية البعيدة؟ بمعنى آخر أن يهيئ الدين الجديد أرضية روحية أو واقعاً روحياً يليق بمكانة الإنسان في الأرض وينسجم مع مطالبه الكبيرة، ومن ثم فلابد أن تخضع «الدولة» لهذا الواقع الروحي، لأنها تمتثل عوناً مؤقتاً، أو بعبارة أخرى: لأنها ليست سوى وسيلة يعتمدها الإنسان في حماية هذا الواقع الروحي من أي عدوان، داخلياً كان أم خارجياً، وفي تعميق هذا الواقع وإغنائه بما تمتلك من أجهزة توجيهية وتنظيمية وتنفيذية.. وهكذا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام (التجربة الإسلامية) التي لا يعرف عنها الغربيون ـ لسوء حظهم ـ سوى القليل القليل، أو ربما أنهم يعرفون لكنهم يتعمدون وضع غشاوة بين بصائرهم وبين هذا الدين بسبب طبيعة الظروف التاريخية؛ التي اجتازها الطرفان، والأحقاد المذهبية، الشعورية واللا شعورية، التي أبعدت الغربي نفسياً عن أية محاولة يمكن أن يتقرب بها من الإسلام لتفحصه وإدراكه.

ثم ماذا يقول كولن ولسون بعد؟ «إن ما يجب على الإنسان أن يفعله هو أن يحاول أن يفهم العالم، وليس العالم ما يحيط به من كون فقط، وإنما هنالك كون آخر خلف عينيه أيضاً، وكل ما يحتاج إليه الإنسان هو أن يفترض شيئاً ليعمل على ضوئه، أن يؤمن بشيء ليمنحه ذلك هدفاً. والمحك الأخير لقيمة هذا الإيمان هو: إلى أي حد يستطيع الإنسان، على ضوء مثل هذا الإيمان، أن يعمل؟ لقد كان الإسكندر الكبير يؤمن بشيء منحه قوة هادفة هائلة، إذ آمن بأنه سيحكم العالم كله. ولما حكم العالم جلس يتساءل يائساً: ماذا سأفعل الآن؟ أجل هذا هو محك كل إيمان. فإذا انتهى مفهوم الهدف عند حد معين، فإنه ليس هدفاً حقيقياً إذاً، ليس هدفاً نهائياً. ولكن الدين يمنح الإنسان هذا الهدف النهائي، الهدف الذي لا ينتهي حتى ولو عاش مليوناً من السنين. ص ٢٨٣».

ويزيد كولن ولسون مسألة الهدفية هذه عمقاً ووضوحاً في مكان آخر إذ يقول: «لقد قبل اللا منتمي بفكرة وجود الله، أو وجود قوة تعمل خلال الكائن الإنسان والطبيعة، وهدف أعظم من هدف أية شخصية فردية إنسانية مدركة. وهكذا فقليل من التمرين على البصيرة الشاعرية، وقليل من (السفر الذهني) يمكن أن يكشفا عن مستويات من الهدفية أعمق بكثير من معارفنا عن أنفسنا. ص ٢٤١».

«البصيرة الشاعرية» و«السفر الذهني» حقاً إنهما الحاديان الماهران إلى طريق الإيمان.. إلى الوصول بالإنسان إلى تلك النقطة التي يرى فيها بوضوح أن الحياة - بكل جزئياتها وتفاصيلها - لم تخلق عبثاً، وأن هناك وراء كل شيء في حياتنا الدنيا هدفاً خالداً لا يمسه تغيير ولا تبديل، حتى لو عاش الإنسان مليوناً من السنين.. هدفاً يشمل الإنسان والطبيعة على السواء، وتلك هي المنحة الكبرى التي يقدمها الدين للإنسان.. إن كل الأهداف الدنيوية تنتهي، سنة أو سنتين أو ثلاثاً.. ثم يقف الإنسان بعد هذا

يائساً مقهوراً. . ماذا أفعل بعد هذا؟! ومن أين تتفجر قوة الإنسان وطاقاته الفذة إذا لم يكن وراء هذا التفجر هدف عظيم؟!

إن الدين هو هذا الهدف العظيم، وإن النغمة الوجدانية المؤثرة التي يطلب القرآن فيها من الناس أن يتفكروا في خلق السموات والأرض. . النغمة التي تمزج، بإعجاز رائع، بين الحس الوجداني وبين الحركة الذهنية. . هذه النغمة التي تهب الإيمان والهدف هي التي يسميها شاهدنا «البصيرة الشاعرية» و«السفر الذهني». .

البصيرة الشاعرية وحدها لا تقود إلى الإيمان والهدف. . والسفر الذهني وحده لا يقود إلى الإيمان والهدف. . والإنسان. . إنسان بوجدانه وفكره، ومن ثم فإن أهدافه الكبرى لن تجيء إلا بأن يتحرك بالوجدان والفكر معاً للوصول إلى تلك الأهداف. . بمعنى آخر: إنه لابد من (الوعي) و(التعاطف) أو (الإدراك) و(الإعجاب) كي يندفع الإنسان بقوة فذة إلى أهدافه. وكل الأخطاء التي مارسها الباحثون عن الهدف، دون يقين ديني، أو إشارة إلٰهية، إنما تكمن في اعتمادهم على هذا الجانب أو ذاك. . هذا أو ذاك، وليس الجانبان معاً. .

«كان السير روبرت بيل قد ألقى بعض المحاضرات (١٨٤١م). . عبر فيها عن إيمانه بالمعرفة العلمية. . وقدرتها على رفع البشر إلى مصاف عليا. وكتب نيومان يقول: «كم هو مدهش أن يكون في الوسع خلق التأثير الأخلاقي بواسطة آلية العلم الفيزيائي» ومضى يقول: إن هذه الفكرة مستحيلة. وكان اللورد بروغام قد عبر عن هذا الإيمان ذاته في العلم، وأجابه نيومان بقوله: «إن الطبيعة البشرية في حاجة إلى صهر جديد، في حين أن اللورد بروغام يريد أن يرقعها». . ويتجلى في نظرة نيومان احتقاره للمنطق وشعوره بأن الدين يبدأ بالفطرة والضمير والظمأ إلى المعنى. ص ٢٧٨».

ويستمر كولن ولسون في تأكيد حاجة العصر إلى الدين فيقول: «لقد كان اللا منتمي محاولة لبحث مسألة (أن الإنسان ليس كاملاً بدون دين). . فإذا أرادت الحياة، كما يشير وليم جيمس في (أنواع التجارب الدينية) أن تتقدم خطوات أخرى أسمى من القرد، من الإنسان العادي، وحتى من الفنان، فلن يكون ذلك إلا من طريق تطهير قوة الفهم. وهذا الشوق لتركيز أعظم في الخيال يتمثل في الشهية الدينية. . إن الدين هو مقياس البطولي، ورمز حاجة الإنسان في الكفاح من أجل الفهم، وفشل الدين والحروب العالمية أمران متلازمان حتماً. ص ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣».

وفي مكان آخر يقول: «إن مجتمعنا متفسخ روحياً، وأما اللا منتمي فهو الإنسان الفرد الذي يثور ضد هذا التفسخ الروحي، وهو يفعل هذا بدافع من فطرته. ونحن نعرف أن جميع الكائنات الحية تعيش بفطراتها، ولا يمكننا أن نستثني منها الإنسان أبداً. أما حين تبلغ الحضارة مرحلة الانحلال فإن الفطرة التي تميل إلى التماسك تعتبر غير كافية لإنقاذها، لأن تلك الفطرة المدركة تحتاج إلى مجهود عقلي. وقد كان ـ كتاب ـ (اللا منتمي) بحثاً خاصاً بأولئك الذين حاولوا أن يقوموا بهذا المجهود، والذين أفلحوا أو حققوا شيئاً من النجاح في استعادة الصحة الروحية المفقودة. ويبدأ اللا منتمي عادة بأن يكون رومانسياً غير مؤمن بأي دين، وينتهي إلى الإيمان بمعتقدات دينية كلاسيكية جديدة. . إن ذلك يحدث لكل اللا منتمين اليوم إلى درجة أننا نستطيع أن نتخذ من ذلك قاعدة عامة تنطبق على الجميع.

وهكذا نجد أن الأمور تتضح لنا أكثر على هذا الأساس: فإن الحضارة الصحيحة المتماسكة تؤمن بكلاسيكيتها وبدينها، ولا يكون فيها لا منتمون. أما في الحضارة المريضة، الحضارة الرومانسية، فإن على اللا منتمي أن يعيد بناء اتجاهه الكلاسيكي الديني ليحصل على شيء من تلك الصحة

المفقودة. وإذا كانت الحضارة كلها تشعر بالحاجة إلى فترة أخرى من الحياة فعليها أن تفعل ما يفعله اللا منتمي. ص ١٦٣ ـ ١٦٤».

وينتهي إلى القول بأن الحضارة الحديثة قد أوشكت على الأفول، وأنه لابد وأن يبذل الغربيون جهوداً كبيرة.. جهوداً دينية بطبيعة الحال من أجل إعادة الحيوية إلى حضارتهم هذه.. «إذا كان اللا منتمي يكره الحضارة الحديثة لماديتها الحيوانية، فإن جوابه لا يكون الانسحاب منها والصعود إلى برج عاجي، وإنما محاولة السيطرة عليها. وقد صرح ستيفن ولف بأن الحضارة الغربية تشجع ضلال الشخصية الذي حاولت الحضارة الشرقية بكل جهدها أن تنجو منه ـ وهو ينتهي ـ رغم أنه لا يصرح بذلك ـ إلى أن اللا منتمي يجب أن يدير ظهره لحضارتنا المليئة بالفوضى والعجالة، وينصرف إلى الوحدة والتأمل، وكذلك برناردشو فهو مثل توينبي يريد أن يقول: إن اللا منتمي يجب أن يخلق[1] القوة الكافية لإعادة الحياة إلى حضارته. ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩».

إذاً فهنالك تأكيد واضح يصرح به اللا منتمي دوماً: (أن الدين هو طريق الخلاص).. ولكن أي دين؟ المسيحية بعد تشذيبها وإعادة بنائها..؟ أبداً.. إن الانتقادات العميقة الشاملة التي يوجهها شاهدنا للمسيحية، سواء

(١) ما من شك في أن أسلوب التعبير، واختيار الكلمات المميزة، ترتبطان ارتباطاً مباشراً بطبيعة ثقافة جماعة من الجماعات ونوعية تصورها، ونحن نعرف أن ثقافة الغربي الدينية وتصوره الغيبي يضم الكثير الكثير من الغبش وعدم الوضوح، فضلاً عن عناصر (الصراع) و(التحدي) وادعاء القدرة على الخلق، تلك التي جاءتهم من عصور اليونان الأولى، ولذا نجد كلمات كهذه (لقد قبل اللامنتمي فكرة وجود الله) و(يجب أن يخلق القوة الكافية). وهذا يذكرنا بأولئك الأعراب الذين سخر القرآن منهم، مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، هذا رغم الفارق الحضاري الهائل بين الغربيين المعاصرين وأعراب الجزيرة.. لكن التصور هو التصور!!

في بنائها العقيدي أم تطورها التاريخي، تجعله يقطع أكثر من مرة بأنها لن تكون طريق الخلاص. ولنستمع إلى بعض انتقاداته..

«لا شك في أن الكنيسة مهدت للثقافة والحضارة، فهي في المقام الأول قدمت رجالاً يمتازون بالأهداف والاتجاهات الروحية. أي أنها أكدت على حقيقة الروح وكان ذلك لخير البشر، لأنها أسبغت على أشد البشر حماقة وتفاهة معنى من الانتماء إلى نظام كوني عظيم. وبالإضافة إلى ذلك فقد صارت ملاذ اللا منتمي، لأن اللا منتمي هو نبي بالفطرة (!)، فكان الإنسان إذا شعر بالدوافع التي ألهمت المسيح (عليه السلام)، أي بالحاجة إلى البحث عن حياة أشد غزارة داخل إطار الكنيسة، صار بوسعه أن يوجه طاقاته الروحية نحو هدف صالح. واللا منتمي الذي يقف ضد العالم يجد في الكنيسة الملاذ الكامل بالنسبة إليه لأنها تعلن (إن ملكوتي ليس في هذا العالم). ولكن الأمور سارت في غير طريقها الصحيح، فصارت الكنيسة قوية واشتدت بذلك صلفاً وغروراً، واشتد ميلها إلى السلطة ولم يعد اللامنتمون يحتملونها.

إن اللامنتمي يبدأ في العادة فوضوياً، ولا يكف عن التهديم حتى يبدأ بفهم دوافعه الروحية فيركز طاقاته على الخلق. ولما اشتد وثوق الكنيسة من قوتها لم تعد تصبر على الفترة الفوضوية التي يمر بها اللا منتمي **أولاً**.. وهكذا لم تعد الكنيسة راغبة في قبول اللامنتمين الذين لا يريدون أن يخضعوا لسلطتها منذ البداية ـ ص ١٨٠».

ويقول في مكان آخر: «لما ثبت القرن الثامن عشر دعائم الأفكار التعقلية، بدأ اللا منتمون بثورتهم الوجودية، لأن الدين القديم كان ساذجاً جداً، ولأن العقلية الجديدة لم تقل عنه سذاجة، بالإضافة إلى أنه لم يكن هنالك داع إلى أن يطلق أحدهما الآخر نهائياً.. ص ١٣١».

وفي مكان ثالث يقول: «لقد ذهب ج. هـ. نيومان إلى أبعد من مجرد حل شخصي، إذ إنه أراد أن يحل مشاكل اللا منتمي. لقد كان يدرك المشكلة العظمى، مشكلة جعل الدين صحيحاً متفقاً مع الحضارة.. وكتب في موعظته المشهورة (الربيع الثاني) أنه بدأ يشعر بأن الكنيسة الكاثوليكية قد تشمل العالم ثانية، وتستعيد السلطة التي كانت لها في القرون الوسطى. وقد يكون هذا ممكناً من الوجهة النظرية، ولكن غير محتمل في عالمنا هذا عالم القنبلة الهيدروجينية والأيديولوجيات المتناحرة.. إن المشاكل التي عالجها نيومان (في القرن التاسع عشر) ما تزال معنا في قرننا العشرين، كما إن حضارتنا آخذة بالانهيار تدريجياً، لأن تلك المشاكل ما تزال بلا حلول. ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥».

ويزيد ولسون النقطة الأخيرة إيضاحاً فيقول: «لقد حاولت فقط أن أبين أن بحثنا السابق (اللامنتمي) يشير إلى أن حل (القديس) بولس، يعتبر أمراً غير مقبول.. بالنسبة لحضارة في منتصف القرن العشرين. ترى ما هي حقائق هذه الحضارة؟ إنها حضارة ذات تطور ميكانيكي عالٍ ورصيد فني كبير يسبقهما تفكير حر (!) استمر ثلاثة قرون، ويصاحبهما فراغ كبير لا تعرف الحضارة كيف تنفقه. ص ٢٤٣».

ويستمر ولسون في توجيه نقداته العميقة للمسيحية[1] وتقرير كيف أنها لم تعد تملك القدرة على إنقاذ الإنسان والأخذ بزمام الحضارة، فيقول: «إنها الحقيقة التي أدركها ت. ي. هولمة: إنه بالرغم من أن دين القرون الوسطى

(١) يقدم كولن ولسون في كتابه الذي بين أيدينا (ص ١٧١ ـ ١٨٨) تحليلاً قيماً لتطور المسيحية التاريخي والدور التحريفي الكبير الذي لعبه بولس، اليهودي الذي عذّبته فكرة الإحساس بالخطيئة، في العقيدة المسيحية، وكيف أن ما أضافه للمسيحية غدا فيما بعد الأساس الذي اعتنقه المسيحيون، وبخاصة الكاثوليك، على مر التاريخ، وانظر فصل (العلمانية والمصير) من هذا الكتاب.

أفسح الطريق للإنسانية، فإن الحل لا يكون بإعادة عقارب الساعة، لأن الحضارة الغربية والكنيسة كانت الإمبراطورية الأولى، إمبراطورية الإيمان الأعمى. وحلت محلها إمبراطورية الفكر الحر. وقد استطاع إنسان واحد في حضارتنا أن يدرك أن الفكر الحر يعود بنا إلى الدين، إذا كان حراً وبعيد المدى بالفعل: اللا منتمي. ص ٣١٥».

ثم يقول أخيراً «إذا كان الدين يعني (الدين المغلق) أي مجرد خرافات وطقوس، فإن العقل يجعل وجوده مستحيلاً. ويجب (!!) على الدين أن يصبح بالصورة التي يفهمه اللامنتمي بها: مجموعة من الحقائق عن هدف الإنسان وعلاقته بالله. وإذا استطاعت حضارة كاملة أن تفكر كما يفكر اللامنتمي، فإن ذلك يعني اختفاء اللامنتمين اختفاء تاماً. ص ٣٢٤».



إذا كان اللامنتمي يرفض المسيحية كدين يمكن أن يحقق أهدافه ويضمن سلامة حضارته، ويعيد التوازن والانسجام بينه وبين العالم.. فما هو الدين الذي يبتغيه إذاً؟! إن جدراناً هائلة تقف بوجه (الغربي) تصده عن الوصول إلى الدين القيم الذي يبحث عنه.. جدراناً أقامها التاريخ، والصراع المذهبي، والتقليد الثقافي، والظروف الجغرافية، والمطامع الاقتصادية.. وليس من السهل تجاوزها جميعاً للوصول إلى الحق..

صحيح أن هنالك عدداً من الأوروبيين هيأت لهم ظروفهم الخاصة وبصائرهم الثاقبة تجاوز هذه الجدران، لكي يلتقوا أخيراً بالإسلام، ذلك الدين القيم الذي بحثوا عنه طويلاً، والذي عرفوه قبل ذلك صورة غير واضحة المعالم في العقول والقلوب. لكن هؤلاء لا يعدون أن يكونوا قلة في خضم الفكر الغربي المتلاطم المضطرب الذي يبحث من وراء الجدران الشاهقة عن بصيص النور.

فهنالك التاريخ بكل ما يضمه من قتال بين الشرق والغرب، وهنالك الصراع المذهبي بكل ما خلفته الحروب الصليبية في نفوس الغربيين من حقد ورغبة في الانتقام، وعداء عميق للإسلام تغلغل في حنايا شعورهم، واستقر هناك في الأعماق.

وهنالك الظروف الجغرافية والمطامع الاقتصادية، بكل ما في صفحاتها الكئيبة المحزنة من استعمار ورغبة عاتية في التدمير والإبادة من أجل الاستحواذ والاستئثار.

ثم هنالك التقليد الثقافي، وهو في حقيقته أشد الفواصل بين الإسلام والغرب خطورة.. فمن تقاليدهم الثقافية أنه ليس ثمة أية علاقة بين الأديان السماوية الكبرى، وأن الإسلام تجربة مستقلة لا صلة لها البتة بالتجارب الدينية السابقة، اللهم إلا صلة السرقة والاقتباس!!، وهي في أذهان الكثيرين منهم تجربة اجتماعية بشرية صاغتها عبقرية محمد ﷺ، دون أن تتلقى أي شيء من السماء..

ومن تقاليدهم الثقافية: أن الدين، كمنهج روحي، يمكن أن يصنعه إنسان ما أو جماعة من الناس، وأنه ليس ثمة ضرورة للجوء إلى (الوحي) كمصدر لمعرفة هذا الدين والتوصل إليه.. ومن تقاليدهم الثقافية المرتبطة بالتقليد الأخير، إبداء إعجابهم وعشقهم لعدد من الأديان الشرقية كالبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية، تلك التي وضعها أناس لم تكن لهم ـ أغلب الظن ـ أية صلة بالسماء.. ومن تقاليدهم الثقافية أن يتعمدوا إغفال الإسلام، كتجربة روحية، كلما عرضوا لتجارب الشرق الروحية العديدة!! ومن تقاليدهم الثقافية ـ كذلك ـ أن بالإمكان تجميع العناصر الممتازة من كل دين، سواء كان سماوياً أو وضعياً، والسعي لصياغة دين إنساني (حر، مفتوح، جديد!!) يتألف من هذه العناصر جميعاً، ويمكن أن يسهم في

صياغته الفلاسفة ورجال الدين على السواء، أولئك يتولون الجوانب العقلية، وهؤلاء يتولون الجوانب الروحية.

ومن تقاليدهم الثقافية ـ كذلك ـ الحس المادي الواقعي النفعي الذي يسيطر على سلوكهم وتفكيرهم، والذي يجعل موقفهم من التجربة الدينية كموقفهم من أية تجربة معاشية أخرى، دونما إحساس أصيل بأن التجربة الدينية ذات طابع أكثر علواً من سائر تجاربهم الأخرى، نظراً لمصدرها الفوقي.. هذه النزعة المادية التي توارثوها عن أجدادهم اليونان والرومان.. ثم جاء مفكروهم المحدثون (دارون، دركايم، فرويد، ماركس... إلخ) لكي يزيدوها عمقاً.

ولا ننسى أخيراً ما للإعلام اليهودي، وأجنحته الإنسانية (المفتوحة) وبخاصة (الماسونية)، من تأثير كبير على إيجاد وتعميق هذه التقاليد الخطيرة في أذهان الغربيين من أجل تمييع (القضية الدينية) تمهيداً للقضاء عليها، مسيحية أم إسلامية، لكي يخلو الطريق لبروتوكولات حكماء صهيون!!

ولن نستمر طويلاً في استعراض الحواجز التي لا عد لها، والتي تفصل الإسلام ـ ذلك الدين الذي تنطبق عليه تماماً الأوصاف التي تمناها الغربي في الدين، والتي اطلعنا في الصفحات الماضية على بعض جوانبها ـ عن عقل الغربي وقلبه، وتجعله بالتالي ـ رغم إخلاصه ولهفته ـ يظل يضرب في التيه، طارحاً بين الحين والحين حلولاً دينية مضطربة، بدعوى أنها الطريق الذي لا طريق غيره.

فنجد برناردشو ـ مثلاً ـ يقول في مقدمة مسرحيته (العودة إلى ميتوشالح): «كنت أعرف دائماً أن الحضارة تحتاج إلى دين، وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك. ثم يسأل: أي دين؟ ويقر بأنه هو نفسه قد عثر (!!) على اتجاه ديني سهل، وهو الدين الذي عرضه ولسون في (اللا منتمي)،

ويدعوه شو (الحيوية)، ولكن كيف يمكننا أن نجعل هذا الدين عالمياً؟ (!!) وهل نستطيع تدريسه في المدارس؟ وهل سندرس التلاميذ نظريات لامارك وداروين بدلاً من ذكر المسيح لهم؟ كلا (يقول برناردشو) لأن الأساطير وقصص القديسين جوهرية بالنسبة للدين (!!) وكذلك الكنيسة.

ثم يسأل شو: لماذا لا نصب كل الأساطير الدينية في العالم في شكل واحد، ولا ندرس التلاميذ شيئاً عن المسيح وحسب، وإنما ندرسهم شيئاً عن غوتاما وزرادشت وكرشنا أيضاً؟ أما في العلم، فهو يقول: إن علينا أن نتمسك بالحقيقة وننبذ الخرافة.. ولكن معظم الكنائس تصر اليوم على اتباع الخرافات وتقول: إنها جزء لا يتجزأ من الدين (!!) ومن هذه الخرافات تخليص المسيح الناس وتضحيته بنفسه من أجلهم. وكون أمه عذراء، وغير ذلك! وتكون النتيجة أن المثقفين يشكون في ذلك، ويعلنون أن دينهم هو الإنسانية.

ومنذ أن جاء شو بهذه الفكرة بدأ المفكرون يتناولونها بالبحث والتمحيص: وخاصة الدوس هكسلي وأرنولد توينبي. وقال هكسلي: إن هنالك لباً من لباب الحقيقة في كل دين، وأنه من الممكن إيجاد دين عالمي من ذلك كله. وأما توينبي فقد بحث ذلك في كتابه (المؤرخ والدين).

بيد أننا لا نستطيع أن نلوم أي مسيحي أو بوذي مؤمن إذا قال: إن هذه الفكرة غير معقولة. فمن الصعب التفكير في إمكانية وجود مثل هذا الدين البديل الذي إن وجد فسيكون كالصابون المخفف! ويستطيع كل من يبحث المسألة بتعمق أن يقر بأنه لا فائدة ترجى من الحصول على مثل هذا الدين، خاصة بالنسبة لإنجازاتنا العقلية، ومع ذلك فإن عدم وجوده يجعلنا نواجه نهايات مفزعة، كما أن كل من يفكر بذلك يشعر بالحاجة إلى أن يحدد «موقفه»، أي يسلم نفسه لاتجاه معين، في حين أن طبيعة المشكلة نفسها تجعل ذلك مستحيلاً».

ويمضي كولن ولسون في استعراض وجهة نظر شو حول هذه المسألة فيقول: «يحاول شو في (العودة إلى ميتوشالح) بحماسة أن يحدد المشكلة. وهو يبدؤها كما يفعل وايتهيد في كتابه (العالم والعلم الحديث) بأن يهاجم المادية العلمية».

لم يكن الناس قادرين على أن يفهموا.. لماذا كنت أخشى الداروينية الجديدة (تمييزاً لها عن نظرية لامارك) وأعتبرها حماقة مفزعة، وأهاجم دعاتها بعنف وحدّة.

«ثم يتحدث عن النتائج المفزعة التي تمخضت عنها المادية الداروينية في السياسة - وهو يشير هنا إلى حرب ١٩١٤م - ويقول، مثل توينبي: إن الحضارات تسقط في اللحظة التي تكون فيها قوة الإنسان أشد من قوة الدين. ألا يوجد أي أمل هنالك إذاً في أن تسير الإنسانية إلى الأفضل؟ إذا كان الداروينيون الجدد والميكانيكيون لا يعتقدون أن هنالك شيئاً من الأمل، لأن التطور لا يحدث إلا بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة.. بيد أن هذه العقيدة الشقية لا تثبط عزائم أولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذي ينجم عن التطور هو خلاق. وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة، وهي أن الإرادة التي تصر على شيء تفعله في النهاية، وهي تستطيع في لحظات لعينة من التركيز الذي تبلغه لإيمانها بالحاجة إليه، أن تخلق وتنظم كياناً جديداً، ولهذا فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشري لعبة لا إرادة لها. ص ٣٣٧ - ٣٣٩».

ونمضي مع ولسون في تتبع الحلول التي يقترحها برناردشو للخروج من الأزمة: «إنه حتى إذا أدرك اللامنتمي أن المادية العلمية هي أساس الشر، فإن المشكلة تبقى متمثلة في كيفية استئصالها والإتيان بشيء آخر بدلاً منها. ويقول شو، وهو في هذا رائع الإدراك: «ما دامت كنيسة إنكلترة تعظ بعقيدة واحدة تتعارض معها عقائد البوذيين والبراهمة والمسلمين والفرس وأصحاب

كل الأديان الأخرى، فإنها. . ستبقى كما هي في الوقت الحاضر. . خطراً على الحكومة، ومانعاً من صحبة قدس الأقداس!» ولكن حله بسيط جداً: «فإن ما يجب علينا أن نفعله هو أن نصب (!!) كل أساطيرنا في مجموعة من الأغاني الدينية الشعبية التي نضعها على أساس من الأمانة والإخلاص ونقدمها للبشر أجمعين. ونحن إذا حررنا أذهاننا من الادعاء والبهتان فإننا نستطيع أن نصل إلى جوهر كل إيمان». ولو اجتمع مجلس من الحيويين لبحث مشاكل مجتمعنا، فقد يتفقون على أن المثل الأعلى يتجلى في الحاجة إلى خلق كنيسة جديدة يمكن أن تترك أسسها العقلية للفلاسفة اللا منتمين يقررونها (!!) وأما أساطيرها فيمكن أن تؤخذ من كل مصدر سواء كان Popol vuh أم «برومثيوس طليقاً»، وتبقى بعد ذلك مشكلة إقناع الإنسان العادي بها. ففي الهند القديمة كان الرهبان يعتمدون في ذلك على خوف الإنسان العادي من الطبيعة. أما بوذا فقد استخدم مفهوماً لا انتمائياً، إذ قال: إن العالم هو مكان الشقاء، وإن النظام الديني يستطيع أن ينقذ الإنسان منه. واعتمد المفكرون المسيحيون على هذا الشعور نفسه (فقد كان المسيحيون القدامى أقلية مضطهدة) واستخدموا المسيح مخلصاً، وافترضوا أن ما بعد الموت هو السعادة للمسيحيين.

أما الإسلام فقد وعد المسلمين بجنة حسية بعد الموت (!!) أما في القرن العشرين فقد حل العلماء محل الكهنة والقسس في تفسير الكون.. إن شو يعرف كلمة (الدين) بعبارة واضحة، وبالمعنى الذي يفهمه اللامنتمي: إحساس يتصف بالسمو والحيوية ويسيطر على الشهوات العادية. ص ٣٤٠-٣٤١، ٣٤٢».

وصورة أخرى من صور (الدين المفتوح) يعرضها علينا كولن ولسون: «إن اللامنتمين لا يرون تفسير العلماء للعالم أقل سخفاً وبساطة من تفسير الكنيسة له. وهنا يواجهنا سؤال دقيق وهو: أيكون اللامنتمي قوياً إلى درجة أنه يستطيع أن يخلق أسلوبه الخاص به وطريقته في التفكير، وأن يجعل حضارة

بأكملها تنحو منحاه؟ طريقة اللامنتمي في التفكير هي: الوجودية. ولكن في الوسع تسميتها ديناً (!!) إنها طريقة في التفكير تشبه الطريقة الدينية في اعتبارها الإنسان مشتركاً في الكون لا مجرد مراقب أو مشاهد.. وهي تقرر أن أهم حقيقة بشأن الإنسان هي قابليته على تغيير نفسه، ولكن كل العلماء والمصلحين الاجتماعيين أخفقوا في إدراك هذه الحقيقة، وهم يعتقدون أن الأمر الوحيد الذي يحتاج إلى تغيير هو الظرف الذي يعيش فيه الإنسان، أي محيطه، وهذا يقود إلى التقدم وبذلك يصبح الإنسان كاملاً. اللا منتمي هو الإنسان الذي يكافح من أجل السيطرة على تعقيده وعلى الحضارة التي تتحكم به وتحاول أن تسلبه شخصيته، وقد اعتقد (هيس) بأن اللامنتمي هو أعلى أشكال الحياة التي عرفتها الحضارات، وأنه يأتي بالدرجة الثانية بعد النبي. واعتقد نيتشه بأن اللامنتمي هو نصف الطريق نحو السوبرمان. أما عند توينبي فإن اللامنتمين هم أولئك الذين يحلون مشاكل الحضارة ويبقونها على قيد الحياة. ولكن كون اللامنتميين أقلية مبعثرة حائرة لا تملك أسلوباً ولا فلسفة يجعلهم عديمي الفائدة تماماً. ص ١٨٦-١٨٨».

حتى الأديان التي أدت دورها بنجاح، لا يمكن للغربي إلا أن يتفحصها، وهو متأثر بالتجربة الكنسية أو الهيكل اليوناني، فيسمي نظمها الاجتماعية (معابد)، حتى ولو كانت تلك النظم قد غطت معظم مساحات الحياة التصورية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، كما هو الحال في الإسلام (هل كان هنالك ـ يتساءل ولسون ـ أي نظام اجتماعي متفق تمام الاتفاق مع اللا منتمين؟ أجل فإن الحقيقة التاريخية لا تدع مجالاً للشك في أن معابد القرون الوسطى استطاعت أن توجد مثل هذا النظام، وكان ذلك النظام متفقاً مع جميع أفراد المجتمع، ابتداء من أصحاب العقليات الواسعة القوية حتى أبسط المحترفين. وينطبق هذا على أي معبد ظهر في التاريخ: الهندوسية والبوذية والزرادشتية والتاوية والمحمدية. وحين

كانت هذه المعابد في ذروة قوتها ونقائها لم يكن هناك (لا منتمون)، لقد ولد النوابغ وسط مظاهر تقليد كان في أوج ازدهاره، وقد ساهموا جميعاً، مفكرين ورسامين وموسيقيين ورواة، في دعم المعبد. ص ١٦٨».

وهكذا فإن (اللامنتمي) قد أخفق في الوصول إلى الدين الحق الذي يهديه سواء السبيل.. ومن ثم فهو لا يزال يضرب في التيه، رغم أنه يدعي أحياناً، أنه عن طريق نوع من النشاط الروحي ـ الذهني المركز يمكن أن يجد دينه الخاص وخلاصه.. لكن هذا إن صح ـ بمقدار ـ على نطاق الأفراد، فكيف يصح على نطاق الحضارة؟ لقد اطلعنا قبل قليل على (عينات) من الأديان العامة المقترحة لحل أزمة الحضارة، وعرفنا أنها لا تعدو أن تكون.. كما يقول ولسون نفسه ـ (صابوناً مخففاً).. خليطاً عجيباً من خرافات وأساطير وعلوم ولاهوت، يشرف على تجميعها علماء طبيعيون ورجال دين روحانيون ومتصوفة وملاحدة ومخرفون، وحتى ـ إذا اقتضى الأمر ـ أدباء وواضعو أغان شعبية.. وأنى لخليط كهذا أن ينقذ حضارة بلغت في علمها هذا المبلغ العظيم، إلا إذا أردنا أن نجعل من الدين (كوميديا) يقضي العلماء الجادون فيها ساعات ممتعة من الضحك يروحون فيها عن أنفسهم..؟ ليس هذا فحسب، بل إن اللامنتمي يثير مشكلة أخرى، خلال بحثه عن الحل الديني، تلك هي كيف سيتم دفع الطبقات المثقفة ثقافة اعتيادية إلى تقبل الدين الجديد المليء بالغوامض والتعقيدات والألغاز؟! كيف سيتم تجاوز الطبقية الدينية وجعل الدين الجديد غير حكر على المثقفين وحدهم، بل إشاعته لدى كافة الطبقات؟!

إن كولن ولسون، يعود ثانية، لكي يقرر بنبرة يائسة أن العودة إلى الدين الجديد تقف دونها عقبات وعقبات: «إن هناك ما يغلق أمامنا كل أمل في العودة إلى الدين، لأن الدين الجديد يعني قبولاً عاماً للعقائد الدينية. وحتى إذا كانت جماعة كبيرة من الأساقفة هي التي أقرت هذه المعتقدات ـ مما

يجعل الأمر أكثر سهولة مما هو عليه في الواقع ـ فإن المشكلة تبقى منحصرة في إمكانية حمل المثقف النصف على ازدراد تلك المعتقدات. ولا يمكن أن يكون هنالك (دين جديد)، ذلك لأن الدين لا يصنع بوضع عناصره في إناء معين. أما ما يعنيه اللا منتمي بالدين فإنه صعب جداً بالنسبة لإدراك الإنسان العادي صعوبة نظرية التوافق المحكم. إن أي دين يعتمد في الواقع، وبصورة مبدئية، على جو معين من الأفكار التي تتطلب هذا الدين، وهكذا فلم يظهر مثل هذا الجو في حضارتنا بعد. والحق أن هنالك علامات تدل على ظهور هذا الجو، وتلوح تلك العلامات واضحة في القارة الأوروبية حيث تبحث مسائل اللاهوت والفلسفة باستمرار (!!) أكثر مما هي عليه في إنكلترة وأمريكة. ومع ذلك فلم تبرز لحد الآن أية علامة تدل على ظهور شيء يكون له ما للدين من عالمية. ص ١٦٤ ـ ١٦٥».

ومرة بعد مرة يؤكد كولن ولسون صعوبة التغلب على المشكلة التي استقرت في ذهن الغربي، وهي أن فهم وتمثل الدين ـ أي دين ـ إنما يقتصر على الطبقات المثقفة ثقافة عالية جداً، وربما على النوابغ فقط، أما الطبقات الساحقة فدون إدراكها للدين ما يشبه المستحيل: «حين تحل مشكلة هدفية اللامنتمي ـ عن طريق منحه ديناً ـ فإننا نستطيع في الوقت ذاته أن نحل مشكلة حضارته أيضاً. . ولسوء الحظ فإن الأمر ليس كذلك. إذ قبل أن يكون في الوسع نقل معنى الهدفية من الرأس إلى أجزاء الجسم الأخرى ـ أي من النوابغ إلى الطبقات ذات الثقافة الاعتيادية!! ـ يحتاج الأمر إلى أن يكون معبراً عنه بشكل يمكن أن يفهمه الجسد الغبي (!!) أعني بواسطة دين أو أسطورة أو مثل أو موعظة. وجوهر الدين خالد إلا أن النوابغ فقط هم الذين يستطيعون أن يفهموا. أما دين الأغلبية فيجب أن يبسط ويحلى بالسكر (!!)، ولا تستطيع الأشكال التي يأخذها الدين أن تظل إلا لفترة معينة من الوقت. . يقول اللامنتمي عن المسيحية، مثلاً: إن كل عقيدة من

عقائدها تحمل معنيين، فإن فكرة المسيح المخلص والجنة والجحيم والخطيئة الأولى، هذه الأفكار يمكن أن تفهم بالمعنى الجسدي الواضح، المعنى الذي فهمه معظم المسيحيين دائماً. والمعنى الآخر هو المعنى الروحي الذي لا يتوصل الإنسان العادي إلى فهمه (!!). إن المعنى الجسدي الواضح يلوح للامنتمي مجموعة من الأساطير والخرافات المصنوعة، في حين أن المعنى الروحي هو الحقيقي. ص ١٧٠».

المعنى الروحي، أو جوهر الدين، هو الذي يقدم، في نظر اللا منتمي، للنوابغ وأصحاب الثقافة العالية، أما الطبقات الساحقة الأخرى التي لا تقل حاجة للدين عن سابقتها، فلكي تستطيع أن تفهم الدين، وجب على واضعيه!! أن يضيفوا إلى جوهره مجموعة كبيرة من الأساطير والخرافات والتشبيهات الجسدية، والتصورات المادية الملموسة، وكذلك الأغاني الشعبية إذا لزم الأمر، من أجل أن يخفف تركيز الدين ويصبح أقل استعصاء على الأفهام. وهذا هو ما يعنيه ولسون بقوله: إنه لابد لكل دين من أن يحلى بالسكر (!!) وهكذا فإن فكرة الجزاء المادي والجنة والجحيم وغيرها، هي في الإسلام كما هي في المسيحية ليست سوى إضافات إلى جوهر هذين الدينين (موضوعة) خصيصاً للطبقات الجاهلة ونصف المثقفة من أجل أن تستسيغ الدين وتتمثله. أما جوهر الإسلام أو المسيحية فهو لتلك القلة من النوابغ الذين بلغوا شأواً بعيداً في تركيزهم الذهني ورحلاتهم الروحية (انظر مثلاً ص ٣٤١).

وهكذا يبدو أن اللا منتمي الغربي، رغم ثورته الجذرية على الدين المسيحي، بوضعه الراهن، فإنه لم يستطع أن يتخلص نهائياً من الرواسب النفسية المسيحية اللا هوتية التي استقرت، على مر العصور، في لا شعوره، وفي تقليده الثقافي، ودفعته إلى تصور أن الدين، أي دين، عبارة عن تعقيدات لا يمكن فهمها بسهولة، وأنها لابد من تقديمها للناس على

وجهين: الوجه المعقد الصعب الذي هو جوهر الدين، والوجه الساذج الأسطوري المحلى بالسكر!!

ويبدو لنا أيضاً أن هذا اللامنتمي، رغم ثورته على الاتجاهات العقلية العلمانية التي اجتاحت أوروبة منذ عصر التنوير، فإن شيئاً من تصوراتها قد استقر في نفسه، أشعر بهذا أم لم يشعر. ذلك أنه لازال يعتقد اعتقاداً جازماً بأن (مصدر المعرفة) الذي يمكن أن ينبثق عنه الدين الجديد هو العقل والتجربة البشرية، دونما حاجة إلى (الوحي الإلـٰهي) كمصدر أساسي للحصول على هذا الدين!! ألا يعني هذا أن اللامنتمي لا زال يتشبث بقدرة (الإنسان) على صياغة وجوده، وتحديد مصيره، سواء انبثقت هذه القدرة عن العقل أو عن التجربة الباطنية أو عن الاثنتين معاً؟! ثم ألا يعني هذا، أن اللامنتمي، ببحثه عن الحل الديني ـ الذي لا يمكن أن يجيء إلا من الله ـ قد ناقض نفسه منذ البداية عندما اعتقد أن بإمكان مجموعة من الرجال تصميم الدين الجديد الذي سينقذ الحضارة المعاصرة ويقيمها على الطريق..؟

إن القضية باختصار هي قضية فرق جوهري بين الإعجاز الإلـٰهي وبين الحلول البشرية، بين الوحي السماوي وبين العقل أو التجربة الروحية البشريتين.. بين بقاء القرآن محتفظاً بنصه وبين التحريفات التي طمست على النصوص الدينية السماوية السابقة، توراة كانت أم إنجيلاً،.. بين البيان، والوضوح العميق، والسحر التعبيري، والمعاني الواضحة البعيدة في الوقت نفسه والتي يتميز بها القرآن، وبين التعقيدات والأغاميض والخرافات والألغاز التي طمس بها على الإنجيل، ابتداء من عهد بولص وحتى العصر الأخير.

وحرام على باحث جاد، يحث خطاه من أجل الوصول إلى الدين القيم لكي يقول لأبناء قومه: هذا هو الطريق.. حرام عليه أن يجتزئ في بحثه هذا بدراسة نصوص العهدين القديم والجديد المحرفة، المعقدة، المليئة

بالأساطير، أو أن يجتزئ بفلسفات بوذا وراماكريشنا ولاوتزي، التي هي ليست بأكثر من وجهات نظر شخصية، وردود فعل لأوضاع محلية معينة، وحلول فردية لا يمكنها بحال أن تتصدى لتقويم حضارة كاملة تتعرض للتدهور والانهيار.. لأن الاجتزاء بمصادر وضعية كهذه، ليس فقط تزويراً للدين الحق، ودافعاً للاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون إلا فلسفات عقلية معقدة، وأساطير محلاة بالسكر.. ولكنه فضلاً عن هذا وذاك، صد محزن مضحك عن الدين القيم، وعزوف غريب عن الحل الديني الوحيد الذي لا حل غيره والذي يتمثل (بالإسلام) المعجز، المتفرد، المتوحد، المبين..

ولكن ألم نقل من قبل: إن هناك جدراناً هائلة تحجب عن بصيرة الغربي نور الإسلام وهديه، جدراناً أقامها الصراع المذهبي، والظروف الجغرافية، والمطامح الاقتصادية، والتقليد الثقافي، والتاريخ؟ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٨

ولن نغادر هذا (الفصل) دون أن نفرد مكاناً خاصاً لشهادة (أرنولد توينبي) كبير مؤرخي العالم المعاصرين، سيما وأن شهادته ستقودنا ـ بالضرورة ـ إلى نقاط أخرى شديدة الأهمية في دراستنا المقارنة هذه بين العلمانية والإسلام.. كما سنؤكد ما سبق وأن قررنا، بشأن (تدهور الحضارة) و(الحل الديني)، من أن (الغربي) لا يزال يضرب في التيه!!

هل في الإمكان إنقاذ الحضارة الغربية؟ إن جواب توينبي على هذا السؤال ـ كما يذكرنا كولن ولسون ـ هو ذاته الذي عرضه برناردشو في مقدمة مسرحيته التي سبق وأن مرت بنا: (العودة إلى ميتوشالح) أي العودة إلى الاتجاه الديني.. «ولكن أي دين؟.. إن اتجاه توينبي غامض رغم أنه يلوح

أن الدين الذي يقصده هو مزيج من جميع الأديان!.. إن الحضارة الغربية قد تستمر على البقاء. ولا يخبرنا توينبي بما سيحدث لو حدث وتقوض الغرب. ولكننا نعرف أنه كلما تقوضت حضارة في الماضي نهضت على خرائبها حضارة جديدة، أما اليوم فإن العالم مكان صغير؛ ولهذا يصعب علينا أن نتكهن بمصدر الحضارة الجديدة، لأن العالم كله متمغرب الآن. ويذكرنا توينبي أيضاً بالكسل والفراغ اللذين يرافقان كل مجتمع بلغ ذروة الحضارة، ويخبرنا بأنهما يعتبران عنصرين خطيرين من عناصر الانحلال والتدهور. ولكي يوضح لنا هذا فإنه يقتطف شيئاً من كتاب (التسامي في الأسلوب) الإغريقي، الذي لم يعرف مؤلفه.. ويلوح لنا أن عبارات مؤلف هذا الكتاب يمكن أن تنطبق على القرن العشرين أيضاً: «إن انخفاض التوتر الروحي، الذي يقضي نفر قليل من الناس أيامهم في غماره، يعتبر واحداً من السرطانات التي تشكو منها الحياة الروحية التي يعيشها الجيل الحاضر».

وقد كتب المؤلف هذا في عصر مماثل، شاع فيه الانحلال إلى جانب السلام والثراء العام، وقد لخص برناردشو هذا ببصيرته النافذة في مقدمته لـ (الارتباط اللا متكافل) إذ قال: «إن سر الشقاء كامن في أنك تملك فراغاً كافياً تستطيع فيه أن تنصرف إلى التساؤل عما إذا كنت سعيداً أم لا؟ ولهذا فإن علاج الشقاء يتمثل في العمل.. إن العطلة الدائمة هي أصدق وصف يمكن أن يطلق على الجحيم»(١).

إن عرض ولسون لشهادة توينبي آنفة الذكر، يقودنا إلى ثلاث نقاط هامة لابد من تمليها جميعاً:

أولاً: إن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين. ذلك أنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر

---

(١) سقوط الحضارة، ص ١٦٠ ـ ١٦٢.

وجوده الإنسانية، ويعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب، مما يصيبه بالأمراض والسأم و(الروتينية) وفقدان الهدف من كل ما يأتي به، ويحول حياته إلى جحيم مشبوب بالقلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي.. خواء روحي! يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء، مما يضطر المدركين - أحياناً - إلى إعلان انشقاقهم عليه و(لا انتمائهم) إليه، وبذل جهود جبارة من أجل الوصول إلى النظام والهدف اللذين يخلصانهم من المأساة (إن الحاجة الملحة اليوم هي إلى بعث لفكرة الهدف، لمعنى الحياة.. وبالرغم من أن التعقلية زادت من أهمية الإنسان، إلا أنها خلقت مشاكل معينة باتت تهدد بتدمير حضارتنا، وها نحن قد وصلنا الآن إلى حيث يصافح اللا منتمي: (شبنجلر)، لأن شعور اللامنتمي بالخطورة والمصير العاجل هو شعور (شبنجلر) نفسه، وقد ظهر اللامنتمي لأن حضارتنا فقدت دينها. إن اللامنتمي هو نتيجة لتقسيم «وايتهيد» للطبيعة إلى جزأين.. إن تجزئة الطبيعة هي السبب في تدهور الغرب)[١].

ويعلن (لويس ماسنيون) بوثوق أن (الإنسان الكامل) لن يكون هذا الإنسان الآلي الذي توجده (الهندسة الصناعية) المغرورة التي يهيّئ أسبابها التقدم الفيزيائي والكيميائي، بل إنه سينبثق من الأوساط الإنسانية متخذاً صوت قاض (حاكم) قد ألجئ إلى النطق بالحكم (الفصل)[٢].

ويؤكد توينبي على أن المخلص هو الدين! ولكن أي دين؟ إن اتجاه توينبي غامض! لماذا؟ لأن بعض الأديان بطبيعتها، أو لأن (الأوروبي) أرادها كذلك!! لم تُغنَ مطلقاً بالإنسان وحضارته من حيث تكامل وجودها بشقيه

(١) المصدر السابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) لويس ماسنيون: الإنسان الكامل، ص ٨٢ من مجلة (الله حي) كراسة ٧، باريس، ترجمة عبد الرحمن بدوي.

الروحي والمادي، بل أكدت على روحانيته فحسب مما جعلها تغفل كل العناصر المادية (التكنولوجية) العظيمة التي صنعتها الحضارة الإنسانية أو التي يؤدي إغفالها إلى التنازل عن إحدى انتصارات الإنسان الكبرى في تاريخه.

إن الدين الذي يريده الغربي هو ذلك (الذي يستطيع، كما يقول توينبي، أن يتصرف تصرفاً روحياً يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية)[١].

من أجل ذلك قال كولن ولسون: «إن الغرض من تأليف هذا الكتاب ـ أي سقوط الحضارة ـ هو أن أقول شيئاً عن حاجة هذا العصر إلى دين جديد، (وأنه) إذا أردنا أن نعرف الدين وجدنا أنه يعني أكثر من مجرد جماعة من المتدينين، إنه يعني مكاناً عاماً للعبادة»[٢].

ومن أجل ذلك أعلن (برغسون) الفيلسوف الفرنسي، عندما تحدث عن المدنية الحديثة «أن فصل الدين عن العلم هو فناء محتوم للاثنين معاً، ومن جملة ما قاله: إن الإنسان لا يستطيع، بعد الآن، الارتفاع فوق الأرض، ما لم يستند إلى آلة جبارة.. إن الصوفية بحاجة إلى الآلتية Lamachinism، والدين بحاجة إلى العلم، وسبب جهل الناس هذا الواقع هو أن الآلتية ـ كالقاطرة التي تندفع، عند المفترق، في غير طريقها ـ قد اندفعت فقط في جهة الإسراف والبذخ.. الإسراف في الترف الظاهري الذي ينعم به جميع الناس.

لقد كان على الآلتية أن تتجه نحو جوهرها الأساسي الذي من أجله كانت، يعني تحرير كافة الناس. إن الإسراف في الترف نتيجة عارضة. الجوهر الأساسي هو تحرير الإنسان من كابوس المادة، هذا التحرير من

(١) كولن ولسون: سقوط الحضارة، ص ١٦٣.
(٢) المرجع السابق: ص ١٢٢.

المادة بالمادة[١] يحتاج إلى دين. لقد تضخم الجسم كثيراً، وهو ينتظر الآن تتمة روحية..».

ويزيد برغسون قائلاً: «لن تعثر الآلتية على اتجاهها الحق، ولن تقدم خدمات تتناسب مع قوتها إلا إذا استطاعت الإنسانية، التي انحنت بتأثير الآلتية نحو الأرض، أن تتوصل، بتأثيرها أيضاً، إلى الانتصاب ثانية والرنو إلى السماء»[٢].

وهنا نقف بإجلال أمام النظام الوحيد الذي يمكن أن يتقدم بما يتطلع إليه بعض مفكري الغرب.. أمام (الإسلام) الذي يستطيع وحده، بتكامله وتوازنه وتبنيه لكل مشاكل الوجود الروحي والمادي، أن يقدم لنا هذا الحل وأن ينقذ الحضارة المعاصرة مما تعانيه[٣] دون أن يتخلى عن الانتصار (التكنولوجي) الذي أحرزه الإنسان، بل يحتضنه وينميه وفق قيم أخلاقية ـ روحية تضمن استمرارية الحضارة وسلام الإنسان في أعماقه ومجتمعه وعالمه وكونه! ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٤].

ثانياً: وإذا ما سقطت الحضارة الغربية فإنه يصعب علينا أن نتكهّن بمصدر الحضارة الجديدة؛ لأن العالم كله (متمغرب الآن)، وهذه المشكلة يمكن أن تثار على المستوى الحضاري كما يمكن أن تثار على المستوى

(١) ليس معنى إيراد النصوص في هذا الفصل أنها جميعاً تنسجم مع فكرة الإسلام بشكل تام، وإنما بمعنى مدى تحسس بعض المفكرين الغربيين لحاجة حضارتهم الغربية إلى قيم روحية.

(٢) كمال يوسف الحاج، من الجوهر إلى الوجود، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) لا يعني هذا أن الإسلام بإمكانه أن يقوم بعملية (ترقيع) للحضارة المعاصرة، فالأسس الفكرية والتاريخية لهذه الحضارة مناهضة أساساً للفكرة الإسلامية. وحضارة الإسلام تختلف أساساً عن أية حضارة أخرى عرفها وسيعرفها التاريخ، إنما القصد هو إمكانية تبني التقدم العلمي والفني والتخطيطي الذي أحرزه الإنسان قبل أن تدمره الحضارة المعرضة للتدهور والانهيار.

(٤) الأعراف: ٩٦.

السياسي. ذلك أن (توينبي) ينظر فيرى عناصر المواصلات السريعة قد قلصت العالم وجعلته مكاناً صغيراً لا أبعاد فيه، كما ينظر فيرى العالم الإسلامي - الذي يمكن أن يكون مصدر الحضارة الجديدة كما قام بذلك في العصور السابقة عندما سقطت الحضارة الكلاسيكية - يراه وقد غدا كأي جزء من أجزاء العالم الصغير الآخر، متمغرباً، أي أنه يمرّ بنفس التجربة الحضارية التي يمر بها الغرب، لماذا؟ لأنه تخلى عن نظامه الوحيد الذي يمكن أن ينقذه من مشاكله ومآسيه، وراح يركض وراء تجارب الغرب الحضارية فيتبناها ويعيشها، ومن ثم يجد نفسه مصاباً بنفس الأمراض التي أصيب بها الغرب: الخواء الروحي، واللاهدفية، والقلق، والسأم، والتمزق النفسي، والميكانيكية التي تحول الإنسان إلى قزم ضئيل شقي.

وهكذا فالعالم متمغرب الآن، كله، شرقه وغربه، وهو شقي الآن، كله، شرقه وغربه، وهو متمزق الآن، كله، شرقه وغربه، وهو مريض الآن، كله، شرقه وغربه، ومن ثم فأمل (توينبي) في إيجاد مصدر جديد للحضارة، والشرق الإسلامي على ما هو عليه، صعب ويدعو إلى التشاؤم.

وهنا ننتقل إلى مستوى المشكلة السياسي، فالنظام والحل الإسلاميان لمشكلة الحضارة المعاصرة موجودان في الحقيقة، على الأقل نظرياً، ولكن تطبيقهما في حيز من الأرض الإسلامية غير موجود، ولو استطاعت بعض الدول الإسلامية، في العصر الحاضر أن تقوم بالتجربة الإسلامية العقائدية، لقدمت مثلاً عملياً منظوراً لإمكانية الحل والخلاص من مآسي الحضارة المعاصرة، ولحققت بذلك هدفين:

أولهما: إنقاذ الإنسان الشرقي المسلم من مأساة وجوده المتمغرب المريض!

وثانيهما: حمل رسالتها الحضارية للعالم الغربي الذي ينتظر الخلاص.

آنذاك فقط يستطيع (توينبي) ورفاقه أن يتفاءلوا ويشيروا إلى الشرق الإسلامي باعتباره مصدر الحضارة الجديدة، «فالدين هو مركب القيم الاجتماعية وهو يقوم بهذا الدور في حالة انتشاره وحركته عندما يعبر عن فكرة جماعية. أما حين يصبح الإيمان إيماناً جذبياً دون إشعاع، أعني نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وتحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم، كأولئك الذين لجؤوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون»[١].

ثالثاً: أما المشكلة الثالثة التي يشير إليها (توينبي) فهي أن الكسل والفراغ عنصران خطيران من عناصر الانحلال والتدهور.. فكما حدث وأن أسقط هذان العنصران حضارة روما فهما يقومان الآن بدور خطير لإسقاط الحضارة الغربية المعاصرة. والحق أن هاتين المشكلتين لا خلاص منهما ما دامت الحضارة مصابة بالخواء الروحي وبفقدان الهدف من مسيرة العالم، إنه داء شاق عسير في حضارة تقدم التسهيلات المادية للإنسان فتزيد من وقت فراغه وبالتالي من كسله، مما يصيبه بأمراض نفسية وفكرية يتسع نطاقها فتتخذ صفة جماعية تضع قطعات كبيرة من المجتمع في أتون من الحيرة والقلق والتمزق الذي يبدأ بذات الإنسان وينتهي بعلاقاته مع الآخرين، وما الوجوديات[٢] الحديثة سوى تعبير فكري ونفسي وأخلاقي عن هذا الفراغ الروحي المخيف الذي أوجدته حضارة القرن العشرين «إننا لنستشعر «الغثيان» كلما أحسسنا في لحظة من لحظات الكلال أننا نضيع وقتنا وأن الحياة ينبغي أن تكون شيئاً آخر غير هذا، والغثيان بهذا المعنى

---

(١) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص ٣٢.

(٢) الوجودية مذاهب عديدة أشهرها وجودية سارتر وكيركجارد ومارسيل، ولذلك فإن الأصح تسميتها بالوجوديات.

لون من الزهد، إنه شعور بانعدام تبرير ما نفعله!.. ولئن كانت حياتنا لا جدوى منها فإننا نشعر أن حضورنا ووجودنا لا يطاقان، وهكذا ينتابنا خوف مريع، ومن ذا الذي لم يشعر بهذه الصدمة وبهذا القلق!؟»[١].

فراغ الحضارة المعاصرة وكسل الإنسان الذي يعيشها دفع الوجوديات الحديثة للتعبير ليس فقط عن تجارب كالغثيان والقلق، بل عن أخرى أعنف وأشد أسى ولوعة، حتى لتخيل للإنسان أن الحياة ليست سوى عبث مضن ينتهي دائماً بالموت المسلط على الإنسان من فوق، وأحياناً، عندما تبلغ شقوة الإنسان حداً لا يطاق، بالانتحار الذي يضع حداً لعذابه وعبث وجوده «أن يموت المرء بملء إرادته يفرض أنه اعترف، ولو غريزياً، بطابع هذه العادة الذي يوحي بالسخرية، وبانعدام أي سبب عميق للحياة، وبالطابع الذي لا معنى له لهذا السعي اليومي، وبعدم جدوى الألم والعذاب، وباختصار فإن الانتحار يعني بكل بساطة: الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش»[٢]. «ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى! وإن مغامراتنا البشرية لا جدوى منها.. ليس ثمة أخلاقية ولا أي جهد قابلان للتبرير، بصورة قبلية، أمام الرياضيات الدامية التي تنظم وضعنا البشري»[٣]. «ليس هناك فرحة للحياة من غير يأس من الحياة»[٤].

وقد يحدث أحياناً، وأن يتمرد هؤلاء المعذبون على وجودهم الممزق وعالمهم العابث، ولكن تمردهم (بالرغم من انتصاره على العالم، يظل بلا أمل، إذ إنه قد ولد من رؤية للموت المطلق)[٥].

---

(١) ر. م. البريس: سارتر والوجودية، ص ٥٢ ـ ٥٣، ترجمة سهيل إدريس.
(٢) روبير دو لوبيه: كامو والتمرد، ص ٩، ترجمة سهيل إدريس.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣.
(٤) المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٥) المرجع السابق، ص ١٩.

هذا اليأس والتمزق النفسي اللذان ولدهما الخواء الروحي والكسل الذي تعانيه الحضارة المعاصرة، رافقه تمزق على النطاق الجماعي، وتحولت مجتمعات برمتها، بعد أن تقطعت علاقاتها الإنسانية، إلى قطعان شاردة لا تؤمن إلا بالمتاع.. «ولم يسقط القناع نهائياً إلا في عام ١٩٢٠ م حين كان عصر الجاز[١] يوشك على الازدهار، وفي ذلك العام انطلق الشعبان الإنكليزي والأمريكي المتعلقان (بالمودة والطراز) إلى ما سماه فتزجرالد (أعظم وأضخم مرح في التاريخ) (شعب برمته يؤمن بمبدأ اللذة ويقرر الاستمتاع).. واكتشف (الكبار) بأن الشراب الشاب سيحل محل الدم الشاب، وألقى الجميع بأنفسهم على الخمر في قفزة واحدة»[٢]، «ولن يدهشنا أن نعرف أن فتزجرالد اعترف بعد ذلك بشعوره بالكآبة في عصر الجاز هذا»[٣]، «وكانت جروترودشتاين قد اخترعت عبارة (الجيل الضائع) ووصفت بها جيل الجاز»[٤].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اقترنت العلاقات الاجتماعية باستخدام العنف كوسيلة موجهة ضد الآخرين أو ضد الإنسان نفسه، الإنسان الذي فقد كل ما يبرر وجوده! «ووجدت في هذه الفترة أن أولئك الذين كانوا يعاصرونني بدؤوا يختفون وسط العنف، إذ قتل أحد زملائي في المدرسة زوجته ثم انتحر في (لوك إيلاند) وسقط آخر عرضاً من إحدى

---

(١) نسبة إلى موسيقا الجاز، وتمثل هذه الموسيقا ورقصاتها تعبيراً واضحاً عن تمزق الإنسان الغربي داخلياً، وتهافت علاقاته الاجتماعية خارجياً، فموسيقاه تخرج عن القاعدة الهارمونية بما تحدثه من ضربات سريعة على الطبول والآلات النحاسية، وبما تخرجه الأبواق من أصوات مجنونة، ورقصات الجاز ليست سوى تعبير مجسد عن ذلك العذاب الذي يجد في الحركات السريعة المجنونة ما ينفس فيه عن ألمه.

(٢) كولن ولسون ـ سقوط الحضارة، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) المرجع السابق: ص ١١٣.

(٤) المرجع السابق: ص ١١٤.

ناطحات السحاب في فيلادليفيا وأسقط آخر نفسه عمداً من أخرى في نيويورك، وقتل آخر في شيكاغو إثر شجار تافه، وضرب آخر ضرباً مبرحاً في مشرب سري في نيويورك وجيء به إلى نادي برنستون ليموت هناك، بل إن زميلاً آخر احتجز في مصحة للمجانين فسحق أحدهم جمجمته ببلطة كبيرة. وليست هذه مآسي خرجت للبحث عنها في الطريق، لقد كان هؤلاء أصدقائي»[١].

وهكذا فقد الإنسان الغربي «مثاليته شيئاً فشيئاً.. لم يبق له ما يستعيض به عنها.. وصار.. يسكر دائماً.. وبدأت طاقته العصبية وثقته بنفسه تتبخران شيئاً فشيئاً، وفجأة وجد نفسه مع مشكلة اللا منتمي الأساسية: التشتت والانهيار والتحطم»[٢].

و«الإسلام» وحده! هو المنقذ من هذه الأمراض، فهو النظام الذي يستطيع أن يحرك وجود الإنسان بشكل دائم وأن يجعله يحس بإنسانيته ويتفاعل مع كل القيم بشكل مستمر، وأن يشغله نفسياً وروحياً، دون أن يدعه يستسلم للفراغ والكسل، فبما يملكه من برامج أخلاقية وروحية، وبما يقدمه من نظرة متفتحة على الكون والحياة، وبما يدعو إليه الإنسان من أن يكون ثورة دائمة على القيم المنحرفة، وشوق إنساني كبير من أجل هدف العالم الكبير، بهذا كله، وغيره كثير، يحول إنسانه، فرداً وجماعة، إلى حركة حية متفاعلة، ثائرة على الانحراف، يملؤها الشوق للقيم الكبرى، وبهذا وحده يقضي على الفراغ ويدفع الإنسان في سبيل العطاء الدائم الذي يقدم لكل حضارة عناصر الاستمرار والبقاء.. ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

(١) المرجع السابق: ص ١١٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١١٦ ـ ١١٧.

وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾(١).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٢).

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾(٣).

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(٤).

﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾(٥).

(١) آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٣.
(٢) آل عمران: ١١٠.
(٣) النجم: ٣٩ ـ ٤١.
(٤) العصر: ١ ـ ٣.
(٥) البلد: ١٠ ـ ١١.



الفصل السادس

الشهود (٢)

الشهود (٢)

«إنني أشعر أن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا، إنني أجهل أين انفجر، ومتى بدأ، وكم سيدوم؟ لكنني أشعر بوجوده. لقد أخذنا في الدوامة، ولسوف تمزق هذه الدوامة جلودنا، وتحطم عظامنا الواحد تلو الآخر. إنني أشعر بهذا الحدث الهائل، شعوراً لا يضاهيه إلا إحساس الجرذان المسبق الذي يدعوهم إلى هجر مركب على وشك الغرق. لن يكون لنا أي مأوى في أي مكان من العالم».

كونستانتان جيوروجيو

في رواية الكاتب الروماني كونستانتان جيوروجيو (الساعة الخامسة والعشرون)[1] تبدو أزمة الحضارة الغربية واضحة للعيان، إن مآسيها تعرض علينا كما لو كنا نشهد معاً مسرحية حاضرة: الإنسان الذي سلبت حريته وأدخل في دوامة من آلية قاسية أحالته إلى (رقيق) وأفقدته حريته وإرادته الذاتية، (المواطنون) الذين ملؤوا الشوارع ودور الحكومة والمؤسسات في جماعية سحقت كل ما هو فردي، وتشابهية دمرت كل إمكانية للتنوع والإبداع، وتعميمية محقت كل اتجاه شخصي، ومادية ردمت كل منابع الحب والإيمان في وجدان الإنسان. النظم الصارمة التي أوجدت جحراً خانقاً بات لا يصلح للتنفس، الصراع من أجل تكريس أكثر للآلية، واستعباد أشد للإنسان، وتحطيم أعنف للقيم، وإحكام أقسى للحركة، وكبت أرهب للحرية..

---

(١) ترجمة فائز كم نقش: الطبعة الثالثة، دار اليقظة العربية، دمشق ـ ١٩٦٦م.

كل منكم سيصرخ، بعد مشاهدة منظرين أو ثلاثة من مسرحية الحضارة المعاصرة هذه «. .الآن لست أريد متابعة النظر، لأني تعبت ولأن المشهد طال أكثر من المعتاد، إنني ـ إذا استمريت على المشاهدة ـ فسوف لا أرى إلا الأنقاض، سأرى مدناً متهدمة، ورجالاً متهدمين، وبلداناً وكنائس وآمالاً كلها متهدم محطم. ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩».

ولكن علينا نحن ـ كمسلمين مسؤولين أمام الله والبشرية ـ أن نملك أعصابنا ونرغم أنفسنا على البقاء حتى النهاية لمشاهدة المأساة، لكي نستطيع أن نحيط برؤيانا أبعادها، وننقب ـ من ثم ـ عن التيارات الظاهرة والخفية التي تسوقها إلى مصيرها المؤلم الحزين. ولكي نقول لهم ـ بعد كل هذا ـ: إن الطريق الوحيد للخلاص هو: هذا. . إذا أردتم أن لا تبلغ المأساة نهايتها!!.

إن جانباً من الأدب الغربي اليوم ـ وبخاصة الرواية والمسرحية ـ يشكل أهمية كبرى في أية دراسة جادة للحضارة الغربية المعاصرة، لأنه يعكس بحيوية فائقة، الأزمة التي تعانيها هذه الحضارة، والضغوط القاسية التي تسلطها على الإنسان فتسحقه وتمزقه. إن ردود الفعل التي يجابه بها الإنسان الغربي المعاصر حضارته المتأزمة هذه، تبدو واضحة حية، متحركة، عبر عدد كبير من الروايات والمسرحيات التي كتبها أدباء وفنانون كبار أدركوا جوانب عميقة من الأزمة، وكلهم بلغ درجاتها الدنيا، وجاس في سراديبها وكهوفها، وما أن وصل بعدها الأخير حتى غطاه الظل وأغرقه الظلام. . فهل ننتظر نحن منه أن يجد لنا مصدر الضوء، ويدلنا على طريق الخروج؟!

إن ما تقدمه لنا هذه الآداب والفنون يقتصر على الخطوة الأولى: تحديد ملامح المأساة. أما الخطوة التالية التي ترسم لنا طريق الخلاص، فما ينتظر من هؤلاء أن يتقدموا إليها لأنهم ليسوا (على شريعة من الأمر)، وهي خطوة

تلقي مسؤوليتها العظمى على أعناق أولئك الذين حملوا أمانة (الكتاب) بعد أن أشفقت السموات والأرض من ثقلها العظيم!!

إن كل ساعة تمر على تاريخ الأرض، تقترب بالبشرية من مصيرها الفاجع لأن قيادتها انتقلت منذ زمن بعيد إلى الإنسان الغربي سواء الذي يقطن في أورربة الغربية وأمريكة، أم الذي يقطن في روسية واليابان. ولم تشهد الأرض احتكاراً أشد للقيادة البشرية والحضارية، من هذا الذي تشهده الآن.. إن نداءات شتى للتحذير أطلقت، منذ أن بدأ يتكشف ـ لذوي البصيرة ـ المصير المحتوم لحضارة تقودها قيم ومفاهيم لا تنسجم أساساً وكيان الإنسان، وأنها ـ بهذا ـ تسلط عليها ضغوطاً ساحقة تضعف الأجيال بعد الأجيال، ولا تتيح لها الاستعداد الكافي للقيام بأعباء الحضارة وتولي مسؤوليتها الثقيلة.. نداءات أطلقها كثيرون: أطباء وعلماء نفس واجتماع وفلاسفة ومؤرخون ورجال دين ولاهوت.. تداعوا من كل حدب وصوب ليؤكدوا بأن على الحضارة المعاصرة أن تغير طريقها، وأن تنعطف بمكتسباتها الهائلة إلى طريق جديد يحفظ لها تراثها الذي هو حصيلة كدح شاق طويل للبشرية جميعاً.

واليوم يتقدم أدباء وفنانون من شتى أقطار الأرض ليعلنوا عن مزيد من التحذير، وليضعوا على طريق السقوط مزيداً من علامات الخطر.. أدباء وفنانون من شتى أقطار الأرض يصرخون مندين بالقيادة الضالة والبشرية المنكودة. وها نحن نجد هذا التحذير في القصيدة والأغنية، في القصة والموسيقا، في الرواية والمسرحية.. وهذه الصرخات تذهب كلها عبثاً، ويضيع صداها في الأفق البعيد، ويختفي معها قائلوها لأن «الرجال الذين يتألمون لانهيار الحضارة الأجنبية، ينهارون ويختفون معها تماماً، وأن أولئك الذين لا يشاهدون غير ذلك الانهيار فحسب يلبثون غرباء عن المأساة.. ويعتبرون مجانين..

إن أوربة تعتبر اليوم كل رجل بلغ ذروة الألم الفكري، وحدوده القصوى، مجنوناً. ص ٥١١». والبشرية المنكودة تسير وراء قيادتها إلى مصيرها المحزن، والحضارة المعاصرة تركض ساعة بعد ساعة صوب نهايتها.

وها هي اليوم تبلغ ساعتها (الخامسة والعشرون): «اللحظة التي تكون فيها كل محاولة للإنقاذ عديمة الجدوى.. إنها ليست الساعة الأخيرة، بل هي ساعة بعد الساعة الأخيرة، ساعة المجتمع الغربي، إنها الساعة الحاضرة. ص ٨٨».

لماذا (الساعة الخامسة والعشرون)؟ جيوروجيو يجيبنا على هذا السؤال: «إن الجو بات لا يصلح للتنفس.. إن الجو بات خانقاً.. الجو الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر. إن الكائن البشري لن يستطيع احتماله. إن البيروقراطية والجيش والحكومة والتنظيم الحكومي والإدارة، كل هذه الأشياء تساهم في تسميم الجو ليختنق الإنسان. إن المجتمع الحاضر يستخدم الآلات والرقيق العنصري. لقد خلق من أجلها. ولكن الإنسان محكوم عليه بالاختناق. غير أن بني الإنسان لا يشعرون بذلك؛ إنهم يصرون على أن كل شيء طبيعي، كما كان في السابق.. لقد وضعت في روايتي الطريقة التي يموت بها رجال هذه الأرض الذين يحيون في عذاب مريع وقلق قاتل، تخنقهم الأجواء غير الصالحة للحياة. ص ١٨٥».

والآن، لنبدأ مع (جيوروجيو) رحلته الطويلة عبر منعطفات الطريق الحضاري ومجاريه، وهي تجرف القيم صوب البحر، وتنحدر بالحضارة إلى الهاوية. خطوة.. خطوة.. مع (جيوروجيو) وهو يستبطن خلفية هذه الحضارة ويتوغل إلى أعماق الإنسان. وليعذرني القارئ إن نقلت نصوصاً طويلة من هذا الكتاب، فهي ذات أهمية كبيرة لأنها تمثل شواهد إنسان

عاش الحضارة المعاصرة وأدرك أغوارها.. شواهد حية ضد القيادة التي تسير بالبشرية وحضارتها صوب الدمار.

١

إن التقدم التكنولوجي الذي أحرزته الحضارة الغربية، لم توجهه قيم الدين يوماً، بل إنه انطلق أساساً وأخذ طريقه يوم أعلن العلم انتصاره على الدين ـ أو هكذا يتوهمون ـ فلا تعجب إذاً إذا ما تضاءل الإنسان يوماً بعد يوم إزاء هذا التضخم الآلي، لأنه فقد الإيمان بكرامته، وغض بصره عن التطلع إلى قيم علوية، وسجد للآلة.. ولأول مرة يقدم كاتب غربي تحليلاً رائعاً يتميز بالجدة والحيوية لهذه العلاقة غير المتكافئة بين الإنسان والآلة، والتي تمثل التهافت الأول في عصب الوجود الغربي، والتي نشأ عنها ما يطلق عليه الكاتب عبارة: الرقيق التكني:

«الخادم الذي يقدم لنا يومياً ألف خدمة لم نعد نستطيع الاستغناء عنها. إنه يدفع سيارتنا ويعطينا النور ويصب لنا الماء لنغتسل، ويحمل لنا مخابراتنا ورسائلنا، ويروي لنا قصصاً لنتسلى عندما ندير زر المذياع. إنه يخطط لنا الطرق ويزيل الجبال من أماكنها. ص ٧٨ ـ ٧٩».

ومن ثم يقدم ـ الكاتب ـ مقارنة طريفة بين الرقيق البشري في العصور القديمة وبين الرقيق التكني في المجتمع العصري: «كان الأول، هو الآخر، معتبراً عند اليونان والرومان كالقوة العمياء عديمة الإحساس، كانوا يبيعون الرقيق ويشترونه، ويقدمونه هدايا ويقتلونه. فكانت قيمته تتناسب دائماً مع قوة عضلاته وإمكانياته العملية. لقد كان الأمر في ذلك الحين مشابهاً تماماً للمقياس الذي نستعمله اليوم في تقدير الرقيق التكني.. لقد برهن الأخير على أنه أكثر طواعية وأقل ثمناً من الرقيق البشري، فراح تدريجياً يحل محل سلفه من بني الإنسان. ص ٧٩ ـ ٨٠».

ولكن العبيد التكنيين ما لبثوا أن غطوا مساحات واسعة من الأرض بفضل تفوقهم العددي الساحق، وأخذوا يسيطرون اليوم على النقاط الحيوية في المجتمع العصري، واتضح خطرهم (وبعبارة عسكرية فنية نقول: إن الرقيق التكني يقبض بين يديه على النقاط الاستراتيجية في مجتمعنا من جيش وخطوط مواصلات وتموين وصناعة.. وإن العبيد التكنيين يشكلون اليوم ألوفاً من (البروليتاريا) - إذا كنا نعني بهذه الكلمة: جماعة ما في مجتمع خلال فترة تاريخية، جماعة لم تدخل بعد في صميم المجتمع - وعلى ذلك فإن مصير هؤلاء العبيد التكنيين منوط بأيدي البشر، وهذه البروليتاريا التكنية ستثور يوماً دون أن تستعمل الحواجز والسدود، كما كان يستعمل من قبل الرقيق البشري. إن العبيد التكنيين يشكلون اليوم أكثرية عددية ساحقة في المجتمع الحاضر.. إنهم يتصرفون في هذا المجتمع وفق قوانين خاصة مختلفة عن قوانين البشر. ولن أذكر من هذه القوانين الخاصة بالعبيد التكنيين إلا: الآلية والمماثلة وإغفال الذات. ص ٨١ - ٨٢».

أما كيف ستتم سيطرة العبيد التكنيين (أو القوى الآلية) على مقدرات الإنسان، فجوابه «أن مجتمعاً فيه عشرات المليارات من العبيد التكنيين، وحوالي مليارين من البشر، حتى ولو كان هؤلاء يسيرونه، فإنه ستسوده أكثرية بروليتارية.. إن تأثيرها يتزايد يوماً بعد يوم. والإنسان مرغم على معرفة عاداتهم وقوانينهم وتقليدها ليستطيع استخدامهم والإفادة منهم. وكل مستخدم مرغم على معرفة لغة مستخدميه وعاداتهم، ليصدر إليهم أوامره، وليستخدمهم. وقد جرت العادة أبداً على أنه إذا كان المحتل أقل عدداً من الأمة التي يحتلها فإنه يرغم على اعتناق عادات تلك الأمة وتعلم لغتها بسبب المنفعة والمصلحة وسهولة التفاهم، إنه يرغم على ذلك رغم أنه محتل وسيد شديد البأس.

إن مثل هذه النظرية تتابع تضخمها وانتشارها ضمن محيط مجتمعنا رغم أننا نأبى الاعتراف بها. وهكذا فإننا سنتخلى يوماً ما عن إنسانيتنا، ونتبع

أسلوب الحياة المطبق على عبيدنا التكنيين، وستكون دلالة هذا التخلي عن الإنسانية احتقار الكائن البشري.

إن الرجل العصري يعرف أنه وزملاءه من بني الإنسان ليسوا أكثر من عناصر يمكن استبدالها. والمجتمع الحديث الذي يحوي على رجل واحد مقابل كل ثلاثين عبداً تكنياً، ينبغي أن ينظم وأن يعمل حسب النظم التكنية لأنه مجتمع خلق وبني على احتياجات ميكانيكية وليست إنسانية، وهنا تبدأ الفاجعة (!!).

إن المخلوقات البشرية مرغمة على الحياة والتصرف وفق قوانين تكنية غريبة عن القوانين الإنسانية. وأولئك الذين لا يحترمون قوانين الآلة التي تتساوى مع القوانين الاجتماعية يعاقبون.

والكائن البشري الذي يعيش في أقلية يصبح مع الوقت أقلية (بروليتارية) فيحذف اسمه من المجتمع الذي ينتمي إليه، والذي لا يمكن أن يعود إليه إلّا بعد التخلي عن طبيعته الإنسانية، فينجم عن ذلك شعور بالدونية، ورغبة في تقليد الآلة، والتخلي عن صفاته الإنسانية المميزة التي تبقيه بعيداً عن أوساط النظام الاجتماعي.

إن هذا التحول البطيء سيقلب الكائن الحي، وسيجعله متخلياً عن إحساساته وعلاقاته الاجتماعية، ويجعلها محصورة في حدود ضيقة واضحة آلية تماماً، كتلك العلاقات التي تجمع بين قطعة آلة وأخرى. ولسوف يقلد البشر في علاقاتهم الاجتماعية وفي الإدارة وفنون النقش والرسم والأدب، وفي الرقص، الأسلوب واللغة الخاصين بالرقيق التكني، وستصبح المخلوقات البشرية ببغاوات العبيد التكنيين. غير أن هذا ليس إلا بداية الفاجعة» وما هي الفاجعة الحقيقية إذاً؟ «هنا تنفجر المأساة لأننا لا نستطيع أن نتحول إلى آلات (!!) غير أن الاصطدام بين الحقيقتين: الحقيقة الآلية

والحقيقة البشرية، قد وقع ولسوف يربح الرقيق التكني الحرب. سوف يستبد ويصبح مواطناً آلياً في مجتمعنا. أما نحن ـ الكائنات البشرية ـ فسنصبح بروليتاريا (أقلية) في مجتمع منظم حسب حاجات وعادات الأكثرية الساحقة من المواطنين الآليين. ص ٨٢ ـ ٨٤».

بعد هذا، يوضح لنا جيوروجيو، بأسلوب مؤثر، كيف سيضيع الإنسان وسط هذا التراكم في الآلات، وكيف أنه سيتحول إلى مجرد مقياس ذي قيمة آلية، وعلى الرغم من أن المجتمع الإنساني سيجد آنذاك وسائله الترفيهية إلا أنه سيغدو أرضاً بوراً لا تنتج العباقرة، وبدون هؤلاء تتمرغ الحضارة بالتراب «إن كل الأحداث التي تدور الآن على الكرة الأرضية والتي ستقع خلال السنوات المقبلة، ليست إلا تباشير تلك الثورة ومراحلها: ثورة العبيد الآليين. إن الرجال لن يستطيعوا بعد ذلك أن يحيوا في مجتمع يحتفظون فيه بطابعهم البشري. سوف يعتبرون متساوين ومتشابهين مع الرقيق الآلي، وسيعاملون وفق القوانين المطبقة عليه، دون مراعاة طبيعتهم الإنسانية. ستحدث توقيفات آلية وأحكام آلية، وتسليات آلية، وقتل آلي. لن يكون للمرء حق في الحياة، بل سيعامل وكأنه مكبس أو قطعة آلة. حتى إذا شاء أن يعيش عيشة إنسانية تعرض لسخرية العالم بمجموعه. ص ٨٤ ـ ٨٥».

هل رأيت ـ يتساءل جيوروجيو ـ في حياتك مكبساً يعيش حياة شخصية؟ ما أروعه من سؤال يجيب عن نفسه!! ثم يستأنف المؤلف طرح نذره «إن هذه الثورة ستحدث على سطح الأرض كلها، ولن تستطيع الاختفاء لا في الغابات ولا في الجزر ولا في أي مكان. لن تستطيع أمة في العالم أن تحمينا (!!) سوف تتشكل جيوش العالم كله من مأجورين يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع الآلي الذي لن تعيش فيه الفردية. ولعل هذا العصر هو الفترة الأكثر ظلمة في تاريخ البشرية. إذ لم يحدث لحد الآن أن احتقر الإنسان إلى هذا الحد.. والحياة البشرية لم تعد لها من قيمة إلا بوصفها مصدر حركة.

والقياسات أضحت علمية محضة، وهذا هو قانون بربريتنا الآلية المظلمة، ولسوف نصبح بعد النصر الكلي عبيداً آليين. ص ٨٥ ـ ٨٦».

لن تستطيع أمة في العالم أن تحمينا!! وهذه هي النتيجة المحتمة لسيطرة القيم الغربية على كل أقطار المعمورة. صحيح أننا في الشرق لا زلنا متأخرين ولا زالت هنالك مساحات واسعة من حياتنا الاجتماعية بعيدة عن تغطية الآلة، إلا أننا ـ على أية حال ـ نصدر ـ وهذا هو المهم ـ عن الفلسفة التي يصدر عنها الغرب. ويتضاعف الخطر لدينا، ويغدو خطراً مزدوجاً، لأن نظرتنا إلى التكنولوجيا يسودها تقديس أشد للعلاقات المادية بدافع من شعور عميق بالنقص إزاء هذه الحضارة[1].

لن تستطيع أمة في العالم أن تحمينا، فالقضية ليست قضية مواقع جغرافية، أو لون على الخارطة السياسية، أو أعلام متميزة ترفرف في أعالي السماء. وإنما هي الفكرة، التصور، العقيدة التي يصدر عنها المجتمع، فهي التي ستجعل للموقع الجغرافي قيمته الحقيقية في حماية الأمم المهزومة، وهي التي ستعطي للون مواده الثابتة التي لا تحول، وهي التي ستجعل الرايات الخفاقة في الأعالي نداء قدسياً يربط الأرض بالسماء، ويفتح ذراعيه للمتعبين المنكودين، ويعدهم بكل ما أفقدتهم إياه سيطرة العبيد التكنيين.

ولنرجع إلى جيوروجيو، بعد أن قلبنا أعيننا في أقطار الأرض، فلم نر أمة واحدة تصدر عن عقيدة تحمي بها القيم الإنسانية من الزوال، لنرجع إلى الشاهد لنرى ماذا يقول..

---

(١) يمكن أن نلمح هذا ـ على سبيل المثال ـ فيما كتبه عدد من المفكرين العرب في أعقاب هزيمة حزيران، حيث يحاولون أن يجعلوا من تخلفنا التقني العامل الأكبر في هزيمتنا أمام إسرائيل!! وبغض النظر عن تأكيدات هؤلاء الكتاب، فإن الخطر يكمن في وجود أرضية واسعة في الشرق تنمو فيها بسرعة مدهشة مثل هذه الأفكار التي تحاول أن توهم ـ وهنا يكمن الخطر ـ بأن مهاجمة الفلسفة التقنية المعاصرة هي رفض للتقنية نفسها.. وشتان!!.

(طالما أن الإنسان قد تحول إلى مجرد مقياس ذي قيمة آلية ـ اجتماعية، فإنه يتعرض للإصابة بأي شيء. يمكن أن يوقف وأن يرسل للقيام بالأعمال الشاقة، أو أن يستأصل عرقه، أو أن يرغم على مزاولة أعمال معينة سواء لواحد من مشاريع السنين الخمس أو لتحسين العرق أو لأهداف أخرى ضرورية للمجتمع الآلي، دون أي اعتبار لشخصه.

المجتمع التكني يعمل ـ حصراً ـ تبعاً لنظرية تكيفه مستعملاً المجردات، الخطط فقط، مستهدفاً معياراً واحداً فقط هو الإنتاج.. لن يبقى رجل واحد حر على سطح الكرة الأرضية. إن الإنسان سيصبح مغلولاً خلال سنين طويلة في المجتمع التكني. لكنه لن يموت في الأغلال.. إن المجتمع التكني يستطيع ابتداع رفاهية لكنه لا يستطيع خلق الفكر، وبدون الفكر لا توجد العبقرية. وإن مجتمعاً محروماً من رجال عباقرة مقضي عليه بالفناء. إن المجتمع التكني الذي سيحل محل المجتمع الغربي والذي سيكتسح سطح الأرض كله سيفنى هو الآخر: إن آينشتاين يؤكد أنه يكفي انقطاع جيلين متتابعين فقط في خط العقول المتفوقة الميالة بصورة خاصة للعلوم الطبيعية، لكي تنهار كل المشيدات القائمة على هذا العلم. ص ٨٦ ـ ٨٧».

ولنستمع ـ من ثم ـ إلى حوار داخلي لإنسان يقف بخضوع أمام الآلة، ملغياً وجوده الباطني من الحساب: «لا يسمح لك التفكير بأي شيء آخر وإلا فإن الآلات تعاقبك على الفور. إن كل انتباهك ينبغي أن يكون موجهاً نحو زميلك الآلي، ذلك العامل المجد الذي يأتيك بالصندوق ويمده إليك، وعليك أنت أن تنحني وتأخذ الصندوق من يديه.. إن الإنسان الآلي لا يمكنه أن يتطبع برغبة الإنسان. فعليك إذاً أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته. إن هذا طبيعي جداً لأنه هو العامل الكامل. أما أنت فإنك لست كاملاً.. إن الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال، فإذا حاكيتها غدوت عاملاً من الدرجة الأولى. ص ٢٤٠ ـ ٢٤١».

وهذا منولوج آخر يعبر فيه بطل الرواية: (موريتز) عن يأس كامل في الحرية إزاء آلية لا تسمع ولا ترى!! «إن كل شيء يتحقق آلياً، وكل شيء يسير بالكهرباء.. وأنت (!!) إنك في صميم آلة جبارة، فمهما بذلت من مجهود وتحركت وناضلت فلن تخرج منها. إن الآلة صماء، إنها لا تسمع ولا ترى، بل تعمل فقط. إنها تعمل عملاً مدهشاً تبلغ فيه الكمال الذي لا يستطيع الإنسان بلوغه أبداً.. إن الآلة لا تنسى كما ينسى المخلوق البشري، إنها دقيقة.. ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤».

وما هي النتيجة؟ «كان موريتز يشعر بأن كيانه يذوي كالغصن المحروم من الري. كان إذا ما آوى إلى فراشه ـ مساء ـ يشعر بإحساس غريب، يخيل إليه أنه ينحني ويلتقط صندوقاً. وإذا نهض من سريره صباحاً شعر كأنه انتصب في تلك اللحظة بعد أن أودع الصندوق في العربة وباتت يداه فارغتين فترة بانتظار وصول الصندوق التالي. كان نومه خلواً من الأحلام. أما جبينه وعيناه فقد غشيهما الاكتئاب والقلق. ولقد اتخذ لون الآلة وليس لون الأرض. ص ٢٣٩».



إن سيطرة الآلية على الحضارة الغربية قوض قيماً قديمة وأوجد قيماً أخرى، سحق مكتسبات قرون طويلة من القيم الخلقية والاجتماعية والنفسية والروحية، وأحل محلها قيماً منتزعة من روح الآلة الصماء وعلاقاتها الرتيبة وتجريدها الميت. وها نحن نجد هذا التقابل المحزن بين نوعين من القيم في الحضارة المعاصرة: الجماعية ضد الفردية، التشابه ضد التنوع، التعميم ضد التخصيص، المادية ضد الروحية، الرمزية ضد الشخصانية، الإرهاب ضد الحرية، التجريد ضد الحياة، التكرار ضد التطور الخلاق، الموضوعية ضد الذاتية، والظاهر ضد الباطن «إن ظهور العصر التكني قد حطم كل ما

ربحناه وأقمناه خلال قرون من الحضارة، لقد أدخل المجتمع التكني من جديد احتقار الكائن الإنساني.. لقد تحول الإنسان اليوم إلى مقياسه الاجتماعي فحسب. ص ٢٢٢».

ولنستعرض الآن مع (جيوروجيو) صوراً حية من هذا الطغيان للقيم الآلية الجديدة على علاقات الإنسان ووجدانه، إنه يشير إلى هذه السلالة التي انبثقت عن زواج الإنسان بالآلة زواجاً غير شرعي، وكيف أنها ورثت عن الآلية كيانها الأصم ووجودها الثقيل الرتيب.. هذه السلالة الجديدة هي (المواطنون) الذين ملؤوا الشوارع والمكاتب والأزقة والمؤسسات، وطغوا على سطح الأرض، وأصبح زمام الإنسان ومصيره بأيديهم:

«إن الإنسان يستطيع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة، غير أن حيواناً جديداً ظهر على سطح الأرض في الآونة الأخيرة، وهذا الحيوان الجديد اسمه المواطنون. إنهم لا يعيشون في الغابات ولا في الأدغال ولكن في المكاتب. مع ذلك فإنهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة في الأدغال، لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الآلات. إنهم نوع من أبناء السفاح (!!) وهم أقوى الأصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض. إن وجههم يشبه وجه الرجال، بل إن المرء غالباً ما يخلط بينهم. ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك، بعد حين، أنهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال، بل كما تتصرف الآلات. إن لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات بدلاً من القلوب، وأدمغتهم نوع من الآلة، فهم بين الآلة والإنسان، ليسوا من هذه ولا من ذاك. إن لهم رغبات الوحوش الضارية مع أنهم ليسوا وحوشاً ضارية، بل إنهم مواطنون.. إنها سلالة اكتسحت الأرض. ص ٣٨٦».

وفي مكان آخر يقدم لنا جيوروجيو وصفاً للمواطن أكثر دقة وروعة: «إنه الكائن البشري الذي لا يعيش إلا في الحدود الاجتماعية من الحياة،

كمكبس الآلة الذي لا يقوم إلا بحركة واحدة يكررها مدى الحياة. لكن المواطن، خلافاً لما هو عليه المكبس، يحاول تنصيب نشاطه على شكل رمز، وتعميمه مثلاً يحتذى به في العالم أجمع ليقلده فيه العالم أجمع. إن المواطن هو أخطر وحش ظهر على سطح الكرة الأرضية منذ أن تلاقى الإنسان مع الرقيق التكني. فهو يملك قسوة الإنسان والوحش، وبرودة الآلات ولا مبالاتها. ص ٩١».

وهكذا فإن المواطن ليس إلا نتيجة محتمة لتحويل الرجل إلى (مقياس واحد من مجموع المقاييس التي كانت يتمتع بها، وهو المقياس الاجتماعي)، ومن ثم فإن كلمة مواطن (لم تعد مرادفة لمعنى: إنسان)!!

وما أن أحكمت الآلية قبضتها على خناق الإنسان واتخذ (المواطنون) مواقعهم في الشوارع والمؤسسات وفي كل مكان.. حتى كان من المحتوم أن تنتصر الجماعية على الفردية بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً: «إن المجتمع الغربي يعمم كل شيء (وبسبب الاستمرار على التعميم والبحث، أو إيداع كل القيم فيما هو عام، فإن الإنسانية الغربية فقدت كل شعور بالقيم الفردية وبالتالي بالكيان الفردي. ومن هنا نشأ خطر الجماعية سواء كان على الطريقة الروسية أو على الطريقة الأمريكية)[1]. وبسبب ذلك نستطيع أن نتأكد من أن هذا المجتمع سينهار.. إن مجتمع الحضارة الفنية أصبح متناقضاً مع حياة الفرد لأنه يخنق الإنسان.. إننا نموت جميعاً مختنقين في الجو الخانق الذي يخلقه هذا المجتمع؛ حيث لا يمكن لغير الرقيق الآلي والآلات والمواطنين أن تتحرك فيه. ص ٤٥٢».

والفردية والتنوع هما جزء أصيل من قدر الله وخطته المعجزة لتحريك الحياة وتكوينها وتطويرها الأبدي الخلاق، لذا فإن ما تشهده الحقبة

(١) كلمات اقتبسها مؤلف الرواية من الكونت هـ. دوكيسرلنغ.

الحاضرة من التاريخ يمثل انحرافاً كبيراً عن نواميس الكون والبشرية «إن البشر بهذا الشكل يخطئ خطيئات خطيرة ويعتبر مذنباً حيال الله. إننا نعمل بكل قوانا ضد خيرنا الخاص وضد الله ـ سبحانه ـ على الأخص، وذلك هو آخر منحدر بلغت إليه الكتلة البشرية. وفي يوم من الأيام سوف ينقرض هذا المجتمع كما انقرضت مجتمعات كثيرة خلال حقبات التاريخ، وقبل أن يبدأ التاريخ. ص ٤٥٢».

والجانب الديمقراطي!! من جغرافية أمريكة وأوربة يتحمل نفس المسؤولية في سحق الفردية وطغيان الجماعية: «إن الديمقراطية ـ مثلاً ـ لون تنظيمي اجتماعي متفوق تفوقاً واضحاً على النظام الكلي ـ توتاليتا ربزم ـ السائد في المجتمعات الأخرى، لكنها لا تمثل إلا مقياس الحياة البشرية من الوجهة الاجتماعية. فإذا بلغ المرء مبلغ الخلط بين الديمقراطية واتجاه الحياة نفسها فإنه بذلك يقتل الإنسان ويحيله إلى مقياس واحد، وتلك هي الخطيئة الكبرى، الخطيئة التي ارتكبها النازيون والشيوعيون. ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤».

إن اعتماد الغرب على الأساليب الرياضية والمنطقية والإحصائية في توجيه الحياة وتطويرها لن يحقق إلا كسالاً اجتماعياً ظاهرياً، ولكن هذا سيكون على حساب الحياة الداخلية، الحياة في مجاريها الحقيقية العميقة التي تصنع الحضارة وتوجه التاريخ وتسير بالبشرية إلى الأمام. إن ردم هذه المنابع الباطنية سوف يقضي على سر التطور الذي وهبه الله للإنسان. ومن ثم فإن هذا الكمال الاجتماعي السطحي سوف يمتد أفقياً فحسب، ويفقد ـ بالتدريج ـ قدرته على الامتداد العمودي، صوب البعد الثالث في الإنسان، وهذا يعني أنه تطور مأسور بقيود الزمن، وأن المستقبل القريب سوف يشهد تحطماً مريعاً لمجتمع يركن إلى القيم الجماعية الظاهرة في تماسكه.. هذا هو ما يعنيه جيوروجيو في قوله:

«إن الحياة الإنسانية ليس لها أي معنى إذا لم تؤخذ ولم تحي في مجموعها. ولكي يتعمق الإنسان في الاتجاه الأقصى من الحياة يجب أن يستعمل الأدوات نفسها التي نستعملها لفهم الفن والدين، أدوات الإبداع الفني، أدوات كل إبداع. إن العقل يشغل دوراً ثانوياً في اكتشاف هذا الاتجاه الأقصى من الحياة. فالرياضيات والإحصاءات والمنطق ليس لها في تفهم وتنظيم الحياة البشرية إلا ذلك المفعول الذي يحدثه الإصغاء إلى لحن من ألحان بيتهوفن ورافائيل أو موزار. لكن المجتمع الغربي الآلي يلح بعناد في الوصول إلى فهم بيتهوفن ورافائيل عن طريق الحسابات الرياضية، ويلح بعناد على فهم الحياة الإنسانية وتحسينها بواسطة الإحصاءات. إن هذه المحاولة منافية وأليمة معاً.

إن الإنسان يستطيع أن يبلغ ـ على أبعد حد ـ استناداً إلى هذا الأسلوب، إلى ذروة الكمال الاجتماعي، لكن ذلك لن يفيد في شيء؛ لأن حياة الإنسان نفسها لن يكون لها وجود في اللحظة التي تنقلب فيها إلى الجماعية والآلية، وإلى قوانين تتعلق بالآلة.

إن هذه القوانين لا يمكن مطلقاً أن تعطي لوناً لحياة البشرية. وإذا نزعنا من الحياة لونها ـ وهو اللون الوحيد الذي تحتفظ به والذي يفوق حد المنطق ـ فإن الحياة إذاً ستبلغ الفناء.. إن المجتمع المعاصر نبذ منذ زمن طويل هذه الحقائق ومضى بسرعة مريعة نحو سبل أخرى. ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥».

وكان من المحتوم أن ينتصر التجريد الميت على الحياة.. وها هو (جيوروجيو) يتكلم على لسان أحد أبطاله وهو يواجه أحد ممثلي الحضارة المعاصرة: «إن البشر مخلوقون من ألم وإيمان ورغبات وجوع ويأس وخيال. وأنت لا تعني لا بأجسادهم ولا بدمائهم، أي بعناصرهم الشخصية، ولا بآمالهم أو يأسهم وهي العناصر الأكثر خصوصية وتعلقاً بهم. إنك تهتم بالأوراق والأرقام.. إن المعلومات والأشياء المجردة الأخرى هي التي

تستأثر باهتمامك وليس الرجال أنفسهم. حتى أنا: إنني لا أظفر باهتمامك بصفتي إنساناً. إنني بالنسبة إليك لست إلا كسراً من وحدة مقسمة إلى عشرين ألف قسم.. إنك لم تعرف أي مخلوق على سطح الأرض.. إنك لم تعرف إلا مخلوقات بشرية معدلة ومحولة إلى مقياس واحد، لكن هؤلاء ليسوا مخلوقات بشرية بمعنى الكلمة كما أن المكعبات التي يؤخذ ضلع واحد منها لا يمكن أن تكون مكعبات حقيقية. ص ٤٨٠ ـ ٤٨١».

وكان من المحتوم أن تموت العواطف وتذوي في وجدان إنسان يعيش في مجتمع التعميم والمادية والتجريد والرتابة والموضوعية.. ها هو (جيوروجيو) يتكلم هذه المرة على لسان امرأة، ليحدد موقع الحب في كيان حضارة لا وجدان لها، ليقول ـ بمعنى آخر ـ: إن الحب وكل العواطف الإنسانية قد عفي عليها! «إن أي رجل من حضارتك لا يستطيع إنماء عاطفة في نفسه. إن الحب تلك العاطفة البليغة، لا يمكن أن يكون إلا في مجتمع مؤمن بأن الكائن البشري فريد لا يمكن استبداله. والمجتمع الذي تنتمي إليه يؤمن بشدة بأن كل رجل يمكن استبداله بسهولة. إنكم لا ترون في الإنسان، وبالتالي في المرأة التي تزعمون أنكم تحبونها، مثالاً جيداً خلقه الله.. دفعة واحدة ومرة واحدة. إن الإنسان في نظركم خلق على دفعات، والمرأة في نظركم تشبه أي امرأة أخرى، وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم أن تحبوا أبداً. ص ٥٥٢».

والآلام يريدون أن يزنوها بالكيلوغرامات والأطنان، ومن ثم نسمع هذه الصرخة المحزنة التي تدين حضارة القياسات: «إن آلام البشر لا يمكن أن تقاس بالكيلوغرامات والأطنان!.. إن الحياة لا يمكن أن توزن، إن ذلك الذي يحاول وزنها يرتكب خطيئة قاتلة. ص ٤٠٤».

وكان من المحتوم أن تتلقى العدالة ضربة قاضية، العدالة التي تنبثق عن إيمان عميق بالمسؤولية الفردية، وبأن كل امرئ رهين بما كسب، وأن كل

إنسان يعمل على شاكلته.. وهل يبقى ـ بعد الذي رأينا ـ مجال للعدل ونحن نسمع أحد ممثلي الحضارة المعاصرة يقول بثقة لا حد لها: «إن التعليمات المتعلقة بالتوقيف أو إطلاق السراح، لا ينظر في شأنها إلا على أساس جماعي، إن عملنا يقوم على أساس توزيع كل شخص إلى الفئة التي ينتمي إليها. إنه عمل حسابي دقيق.

سؤال: أوَ لا تجدون أن إلغاء الإنسان ومعاملته كجزء من فئة، عمل غير إنساني؟

جواب: كلا..!! إن هذا الأسلوب عملي وسريع، بل إنه علاوة عن ذلك عادل!! إن العدالة لا يمكن أن تربح إلا من هذا الأسلوب. إن العدالة لتسير وفق مناهج العلوم الرياضية والفيزيائية أي بحسب الأساليب الأكثر دقة. إن الشعراء وحدهم وعلماء اللاهوت يستنكرون هذه الوسائل والأساليب. لكن المجتمع المتمدين قد نقّح المبادئ اللاهوتية والشعر. إننا الآن نجتاز حقبة علمية رياضية سليمة، ولا يمكن لنا العودة إلى الوراء لأسباب عاطفية.

إن العواطف ليست على كل حال إلا من ابتكار الشعراء وعلماء المعقولات. ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧».

وكان من المحتوم أن يفقد الإنسان حريته، ويستعبد، ومن ثم يفقد القدرة ـ كذلك ـ على تحرير الآخرين: «إن أي رجل ـ بعد الآن ـ لن يستطيع تحرير رجل آخر أو تحرير نفسه. لقد أصبح البشر الآن أقلية موثوقة الأيدي مغلولة العنق، وأصبح الإنسان عاجزاً عن مد يد العون إلى أترابه، إنه مربوط إلى سلاسل آلية.. إنها سلاسل البيروقراطية الآلية التي تزين معاصمنا وأقدامنا. إن كل ما تستطيع الحضارة الغربية الحاضرة تقديمه إلى الإنسان: الأصفاد!!. ص ٥٠٢».

٣

والحضارة المعاصرة يصنعها ويقودها اليوم معسكران: المعسكر الرأسمالي المتمثل بأوربة الغربية وأمريكة، والمعسكر الشيوعي المتمثل بأوربة الشرقية وروسية. وكلا المعسكرين يلتقيان في المدى الحقيقي بما يصدران عنه من فلسفة واحدة: فلسفة الآلية والمادية والجماعية والموضوعية والقياس والتجريد ونكران الله وقتل القيم الروحية والدينية. وكل ما هنالك من خلاف ظاهر بين المعسكرين لا يعدو في حقيقته أن يكون خلافاً في النظام الخارجي للبناء الاقتصادي وفي الاستراتيجية والسياسة الخارجية، وزاوية هذه الخلافات الظاهرة في طريقها - هي الأخرى - للتقارب والانطباق، ويبقى بعد هذا خلاف المصالح فحسب وهو خلاف يحكم الكتلة الواحدة نفسها كذلك الذي نجده بين فرنسة وبريطانية وبين هذه وأمريكة.. أما في نطاق الحضارة، في نطاق المفهوم الفلسفي الذي ينبثق عنه الوجود الحضاري للمعسكرين فإن الأمر سيان، بل إن المعسكر الشرقي قد فاق - في أحيان كثيرة - المعسكر الغربي في التزام أسس هذه الحضارة ومبادئها الرئيسة، وأضاف عليها مزيداً من العنف والقسوة والجماعية. وما يسمى اليوم بالحرب العالمية الثالثة سواء ما هو واقع منها باسم (الحرب الباردة) أو ما سوف يقع باسم (حرب الإفناء) لا يعدو أن يكون..

ولماذا نستطرد نحن في هذا الموضوع، وهناك شاهد من أوربة يكشف لنا بوضوح عن سوء الفهم القائل بأن هناك حرباً حقيقية بين الغرب والشرق؟ ها هو (جيوروجيو) يعلن «أن هذه الحرب التي تسمى - الحرب العالمية الثالثة - ليست حرب الغرب ضد الشرق، وبعبارة أوضح: إنها ليست حرباً على الإطلاق حتى ولو امتد خط القتال من قطب إلى آخر وغمر الأرض كلها. إن هذه الحرب ليست إلا ثورة داخلية في نطاق المجتمع الآلي الغربي..).

سؤال: لكننا نحارب الشرق، أوربة الشرقية كلها!

جواب: هذا خطأ. إنكم أنتم الغربيين تقاتلون ضد فرع من حضارتكم، لقد غدت روسية ـ بعد الثورة الشيوعية ـ فرعاً من أكثر فروع الحضارة الآلية الغربية تقدماً. لقد نقلت روسية كل نظرياتها من الغرب، وكل ما عملته هو أن طبقت تلك النظريات. لقد حولت روسية الإنسان إلى صفر كما تعلمت من الغرب أن تحوله. وحولت المجتمع إلى آلة هائلة كبيرة كما تعلمت ذلك من الغرب أيضاً. لقد قلدت روسيا الغرب كما لا يستطيع أن يقلده إلا البرابرة والمتوحشون. إن ما هو روسي حقيقة مما أضيف إلى المجتمع الشيوعي ليس إلا الوحشية والبربرية، إن هذا كل ما للروسيين من أشياء تخصهم، وما تبقى فإنه جاء من الغرب. إننا إذا استثنينا التعطش إلى الدم والبربرية في روسية، وجدنا كل شيء آخر قد نقل بأمانة عن الغرب..

أما أنتم فإنكم تحاربون هذه الظاهرة من المدنية الغربية: الفرع الشيوعي من المجتمع الآلي الغربي. ولهذا السبب فإن هذه الحرب العالمية الثالثة، ليست في الواقع إلا ثورة داخلية انفجرت في صميم المجتمع الآلي.

إن الفروع ـ الأطلانطيكية والأوربية ـ من المجتمع الغربي تحارب الفروع الشيوعية الغربية. إنها حرب داخلية ناشبة بين فئتين، بين طبقتين في مجتمع واحد.. إن الشرق لا يساهم في هذه الثورة الداخلية الغربية. إن أياً كان خارج المجتمع الآلي الغربي لا يساهم في هذه الثورة. ولما كانت هذه الثورة غربية بكل عناصرها فإنها ليست لمصلحة الإنسان. إن المجتمع الغربي لا يحفل بالإنسان. ص ٥٥٤ ـ ٥٥٧».

ويستطرد جيوروجيو في تحليله: «ولما كان هذا المجتمع لا يعرف الإنسان، فكيف يثور من أجله؟ إن الثورة الحالية ـ نظراً لطابعها الغربي البحت ـ ستبقى غريبة عن مصالح الكائنات البشرية بوصفهم أشخاصاً. لقد

غدا الرجل منذ زمن بعيد أقلية بروليتارية في مجتمعكم. وأياً كان الرابح للعراك الحالي، فإن الرجل سيبقى أبداً أقلية بروليتارية في نطاق المجتمع. إن الصراع الحالي ليس إلا اصطداماً بين فئتين من المخلوقات الآلية التي تجر وراءها عدداً من العبيد الأحياء، عبيد من لحم ودم. ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨».

إن المواطن الذي عرفنا ملامحه في الصفحات السابقة، يسيطر اليوم على الشوارع والمكاتب والمصانع والمؤسسات في الغرب والشرق على السواء، إنه ثمرة طبيعية للحضارة التي تقوم على الجماعية الآلية والتي تحكم الغرب والشرق، بل «إن الروسيين قد خلقوا المثال الأكمل من نوعه في هذا المضمار، وأعني القوميسير. ص ٩١».

٤

والحضارة المعاصرة ـ بعد هذا ـ لا تمتلك عناصر البقاء، إنها فضلاً عن ماديتها الطاغية، وآليتها الرتيبة، وقياسها التجريدي الميت، وفضلاً عن إتاحتها المجال لظهور أبشع وأقسى طبقتين في التاريخ: الرقيق التكني والمواطنون، سيطرتا على مقدرات الإنسان وعرضتا وجوده للاختناق، وفضلاً عن اتفاق الشرق والغرب على تشديد القبضة على خناق الإنسان، وتحطيم قيمه ومثله، وسحق وجدانه وردم منابع عاطفته ووحيه وأحلامه، فضلاً عن هذا وذاك فهي حضارة التكاثر الذي يحيل الحياة إلى جحيم وتفتيش لا نهائي عن الذهب: (سوف تنتزعون الجلود غداً بحثاً عن الذهب تحتها، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثاً عن الذهب، وبعدئذ تحطمون العظام لتنظروا ما إذا لم يكن فيها شيء من الذهب، وأخيراً تضغطون على أدمغة الرجال، وتفتشون في أمعائهم وتمزقونهم إرباً بحثاً عن الذهب، ستحطمون القلوب وتجزئونها بحثاً عن الذهب.. الذهب! الذهب! إننا اليوم في البداية: إنكم لا زلتم تبحثون فوق الجلد، لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر. ص ٤٧٧».

وهي حضارة القتل والتحطم وتهديم بنيان الله: «إن سائق سيارتنا والجنود المسلحين بالعصي والمسلحين منهم بالرشاشات الذين ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة المناسبة لقتلنا، لا يسمعون هم أنفسهم شيئاً، ما من أحد منهم يسمع. مع ذلك إنهم يتهدمون مثلنا وبالطريقة ذاتها التي تتهدم بها. هل تراهم وهم يتهدمون؟. ص ٤٠٥».

الحضارة التي ولغ فيها الإنسان في الدماء حتى غدا شيطاناً مريداً: «له وجه إنسان ولكنه ليس إنساناً. إنه آلة. إنه الشيطان، إنه يشبه الإنسان بكليته باستثناء الروح، لقد ولغ الآخرون جميعاً في الدم، وهم الآن كالعفاريت. إنهم ليسوا بشراً.. لم يبق بين كل هؤلاء رجلاً واحداً يمكن أن يكون إنساناً. ص ٤١٤ ـ ٤١٥».

وهي حضارة السجن الذي يقف فيه الإنسان على حدود الحياة والموت تحيطه جدران صماء لا نهاية لها، وتغيب عنه معالم السماء والأفق البعيد، وحيث يضيع الإنسان فلا يعرف له موضع قدم ولا يعرف له مصيراً، ويلتبس عليه الفهم وتختفي معالم الأشياء، لأن صلته بالسماء قد انقطعت وتلقيه عن الله قد أوقف، وسدت عليه كل منافذ الرؤية إلى فوق. اسمعوا شكواه وأنصتوا إلى عذابه وهو في الغربة:

«إنني منذ عام أقف على حدود الحياة والموت. منذ عام وأنا على أطراف الحياة والحلم. لقد خرجت من نطاق الزمن ومع ذلك لا زلت أعيش.. إن كل هذه الآلام منشؤها عدم معرفتي، هل أنا سجين أم متمتع بحريتي؟ إنني أرى نفسي سجيناً ومع ذلك لا أتوصل إلى تصديق أنني في السجن. إني أرى أنني لست حراً طليقاً، ومع ذلك فإن عقلي يحدثني بأنه ليس هناك من موجب يستدعي ابتعادي عن الحرية. إن العذاب الذي يحدثه عدم الفهم هذا أكثر إيلاماً وشدة من العبودية. إن الرجال الذين سجنوني هنا

لا يمقتونني ولا يريدون معاقبتي ولا يطلبون موتي! إنهم يريدون إنقاذ العالم فقط!! مع ذلك فإنهم يعذبونني ويقتلونني تدريجياً.. إنهم يعذبون ويقتلون الإنسانية كلها! إنني لست الوحيد الذي أتألم، وأنا أعرف ذلك. إن أولئك الذين يديرون العالم راحوا ينشئون مستشفيات هائلة لإبراء جراح البشر. لكن موالجهم لا تقيم المشافي بل السجون. إن كل شيء يحدث كما لو كانت اللعنة قد حلت عليهم. إن تفكيري لا يستوعب شيئاً.. ولهذا السبب أريد أن أموت.. إن قواي لم تعد تحتمل هذا العذاب. ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨».

وهي الحضارة التي تعكس عذابها وتمزقها على التعبير الذاتي للإنسان المعاصر: في الرسم: يقدم لنا بيكاسو لوحة «تمثل امرأة شوهها الألم الشديد لدرجة لم يعد وجهها يحتفظ بشيء إنساني على قسماته، لوحة تظهر الإنسان الذي سحقه الألم وقطعه أشلاء كقطع آلة. ليس في اللوحة إلا العوامل الجوهرية: العينان والأنف والفم والأذنان. كانت كل قطعة من هذه القطع تعيش منفردة مستقلة لوحدها، فقد تنافرت بينها بسبب الألم، لقد تنصل الجسد البشري عن وحدته بسبب ذلك. ص ١٦٧».

في النحت: «هنالك نحات سويسري اسمه البرتو جياكوميتي حقق في حقل النحت مبادئ عن الجمال المذكر والمؤنث ـ التي حققتها الحضارة في الحياة العملية ـ بتبديد الدهن واللحم من الأجساد البشرية.. إن الجسم البشري قد حول ـ بهذا الشكل ـ إلى مقياس واحد، فأخذ أشكالاً محددة جافة لا تزيد على حجم سلك حديدي) وتستفز هذه السخرية المرة (جيوروجيو) فيصرخ بسخرية أكثر مرارة: (إنني أعرف منذ الأزل أن حضارتكم كلها مبنية على مبادئ جمالية. وغداً عندما يصبح سطح الكرة الأرضية معموراً ببشر من ذوي الأجساد المتحولة، بحسب قوانين الجمال الجديدة، وأعراف فن جياكوميتي وفنكم، فإن العالم سيشع ثناء وجمالاً!!. ص ٣٩٣».

في الرقص والموسيقا: «كانوا كلهم يرقصون على إيقاع الجاز والآلة.. كان يرى مجتمعاً كاملاً يتخبط متشنجاً كتلك الأجساد، فأغمض عينيه وغطاها بيديه وصرخ:

لا أريد.. لا أريد.. ص ٤٦٦».

وفي المسرح: «سوف يستمر التاريخ على عرض مشاهده دورياً.. وغداً ستعزف قطعة جديدة عامة عنوانها (المجموعة الميكانيكية) ـ باليه ـ وسيكون مشهداً لا رجال فيه، سيعتلي المسرح رجال آليون وآلات ومواطنون بغير وجوه!! ص ٥٠٣».

وفي الشعر والرؤى والخيال: «إنني آسف إذ أتنبأ بأشياء مفجعة كهذه. لكن مهمتي كشاعر ترغمني على ذلك. ينبغي أن أصرخ وأن أحمل الأصداء قولي، حتى ولو كان قولاً ممجوجاً. ص ٨٦».

في الرسم والنحت والرقص والموسيقا، وفي المسرح والشعر والرؤيا والخيال، نجد هذا الانعكاس المحزن للحضارة المعاصرة وتمزقها، والذي لا يجد هذا العذاب وذلك التمزق في كل لوحة أو قطعة منحوتة، وفي كل رقصة أو لحن موسيقي، وفي كل قصيدة ومسرحية ورواية، فليس له عينان أو أذنان، بل ليس له وجدان يتيح له رؤية عميقة لمأساة حضارة لا تعرف الله.

ومن ثم فهي حضارة التدهور والسقوط، قالها (إزوالد أشبنجلر) من قبل في كتابه الشهير، وها هو (جيوروجيو) يعرض علينا رؤياه: «شاهدت قارة بكاملها وبما عليها من رجال وقوانين ومعتقدات وآمال؛ تموت، سجينة في المعسكرات، حبيسة القوانين الآلية، في ظل مجتمع نكص حتى بلغ الوحشية البربرية.. الآن لست أريد متابعة النظر لأنني تعبت، ولأن المشهد طال أكثر من المعتاد، إنني ـ إذا ظللت على المشاهدة ـ فسوف لا أرى إلا الأنقاض. سأرى مدناً متهدمة ورجالاً متهدمين، وبلداناً وكنائس وآمالاً كلها متهدم محطم.. ص ٥١٠».

٥

هل ثمة من أمل؟ الغربيون ـ دائماً ـ عندما يصلون إلى هذه النقطة يحلمون.. ينساح خيالهم إلى البعيد، وتمتد رؤاهم إلى مستقبل يسعد فيه الإنسان. كيف يتم ذلك؟ وفي أي طريق؟ وعلى أي مركب يجتاز بنا الظلمات؟ إنهم هم أنفسهم لا يعرفون، وهذا أمر طبيعي، لأي إنسان لا يتلقى عن الله ولا يسلم نفسه لله، ولا يختار طريق الله، ولا يدع رسوله العظيم يقود المركب المتأرجح في الظلمات.. كثيرون هم أصحاب الأحلام، وكثيرون هم أولئك الذين رسموا لنا أحلامهم في (يوتوبيات) وعوالم مثالية، فلا هم عرفوا الطريق إلى أحلامهم، ولا تحققت تلك الأحلام.. من عهد أوغسطين ـ حيث فقدت المسيحية روحها وقطع الإنسان صلته الحقيقية بالله ـ وإلى عهد كاتبنا الروماني هذا. عبر أحلام (سافونا رولا) و(توماس مور) والاشتراكيين الطوبائيين و(نيتشه) و(أشبنجلر) و(هكسلي) و(توينبي) وغيرهم كثير.. ودون الخلاص تنقطع أنفاس، وتجف أقلام، وتتهاوى آمال وأحلام.. ذلك أن المصدور لا يشفي المرضى، والأعمى لا يهب النور والرؤية للمتخبطين في الظلمات، والذي يرتكز على خياله فحسب هو كالأعرج الذي يريد أن يصل إلى نهاية الشوط قبل أولئك الذين يركضون على قدمين.

إن المرض لا يعطي إلا الوباء، والعمى لا يهب إلا الضلال، والظلمات لا ينبثق عنها إلا ظلمات أشد وأقسى.. إن هنالك طريقاً واحداً، ونداء واحداً، ورؤية واحدة، ونوراً واحداً للخلاص.. الطريق الذي جاء الأنبياء عليهم السلام ليمهدوه للبشرية، وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام ليضع معالمه الأخيرة. ذلك هو طريق التلقي عن الله، والإسلام المطلق لألوهيته وحكمه.. هذا إذا كنا نريد خلاصاً حقيقياً.. وإلا فستظل الأحلام تخدرنا عن الرؤية الحقيقية، وتقعد بنا عن الجهد والتشمير للكفاح.

«إن انهيار المجتمع التكني هذا سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية والعقلية، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولاشك، من آسية.. وسيكتسح الإنسان الشرقي المجتمع التكني، وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت، لكنه لن يصبح أبداً عبداً له، ولن يقيم الهياكل كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع التكني الغربي. إنه لن يضيء بنور (النيون) خطوط الفكر والقلب. إن إنسان الشرق سيجعل من نفسه سيداً للآلات وللمجتمع التكني مستعيناً بعقله، كما يستعين رئيس الفرقة الموسيقية بعبقريته المستمدة من الجرس الموسيقي. لكنك لن تصل إلى تلك المرحلة، لأننا سنحيا في الزمن الذي يخشع فيه الإنسان أمام الشمس الكهربائية كالبربري المتوحش. ص ٨٨».

«ولسوف يشفق الله على البشر أخيراً ـ كما أشفق مرات من قبل ـ ثم يصبح العدد الضئيل من بني الإنسان الذين احتفظوا بإنسانيتهم طافياً فوق أشلاء وحطام هذا التدمير الاجتماعي الجماعي. كما حدث لنوح في سفينته من قبل، ولسوف تنقذ الإنسانية بفضل هؤلاء كما أنقذت مرات ومرات في مجرى التاريخ. لكن الخلاص والسلام لن يهبطا إلا على الإنسان الذي ظل إنساناً، وأقصد على الأشخاص بمفردهم (!!) إن النجاة هذه المرة لن تكون من نصيب الكتل والجماعات بل من نصيب الأفراد (!!). ص ٤٥٥»[1].

(١) يرفض الإسلام التفسير الفردي للخلاص، الذي تطرحه بعض المبادئ والفلسفات والأديان وخاصة المسيحية، والذي يؤكد عليه جيوروجيو هنا (انظر على سبيل المثال ص ٨٩ ـ ٤٣٣ ـ ٤٣٥) لأنه يصدر ـ كرجل لاهوت ـ عن هذه النظرة، وربما لأنه مدفوع ـ كذلك بردة الفعل ضد اللعنة الجماعية للحضارة المعاصرة في الشرق والغرب ـ، ذلك أن الإسلام ـ باختصار ـ يرى أن الأفراد لا يمكن أن يحيوا حياة إنسانية سعيدة إلا على أرضية جماعية يسودها التكافل ويحكمها الدستور، وبدون هذه الأرضية لا يمكن للإنسان الفرد أن يتحقق بالقيم والأهداف العليا، لأن الأرض التي يسير عليها ويتحرك فوقها، بما عليها من ظلمات وطغيان وأهداف

=

والآن، ونحن نقترب من نهاية رحلتنا عبر الساعة الخامسة والعشرين، ساعة المجتمع الغربي، نحس جميعاً أن هناك سؤالاً ملحاً يبدو في العيون: إن الحضارة المعاصرة تمثل قمة ما أحرزته البشرية من تقدم تكنولوجي، فهل تعني مهاجمة هذه الحضارة رغبة سلبية في التخلي عن هذه المكتسبات؟ وهل إن الإسلام سيبدأ بناء حضارته من جديد؟ ومن نقطة الصفر؟

إن سؤالاً كهذا لا مبرر له على الإطلاق:

أولاً: لأن هذه المكتسبات هي حصيلة تاريخ طويل من الكد والجهد المضني أسهمت فيه كل الأمم والحضارات، وهو ليس حكراً على المجتمع الغربي. هو الآن يبدو غريباً لأن الغرب هو الذي يمارس الحضارة والإبداع، ويقود البشرية في العصر الحاضر فحسب.

ثانياً: إن هذه المكتسبات التكنولوجية هي في حد ذاتها حيادية الطابع، إذ لا عقل لها ولا إرادة ولا روح، لكي تتحكم في مصير البشرية، وإنما الذي يعطيها هذا الطابع أو ذاك، هو عقل الإنسان وإرادته وإمكاناته الروحية، بمعنى آخر: إن الفلسفة التي تصدر عنها الحضارة المريضة المعاصرة هي السبب الوحيد في هذه الوجهة الهدامة التي تتجه إليها القوة الصناعية في العالم.

ثالثاً: لأن الإسلام يجعل الحرص على التقدم واستغلال قوى الطبيعة، واحتضان المكتسبات العلمية، واجباً محتماً على المسلمين: دولة وجماعة ومؤسسات وأفراداً، ولكنه لن يسمح أبداً بأن يستعلي (شيء) في الأرض ـ غير الله سبحانه ـ على الإنسان الذي كرمه خالقه على كثير ممن خلق،

= قريبة، لابد وأن تجرفه بعيداً عن قيمه وأهدافه، وتمنعه من الخلاص، وهذا هو أحد جوانب رفض الإسلام للعلمانية التي تنادي بفصل الدين عن الحياة. أو بمعنى آخر إبعاد القيم الدينية عن الأرضية الجماعية، وجعله يقتصر على نطاق الأفراد والمؤسسات الدينية.

وحمله في البر والبحر، ومن ثم تبدو مأساة الحضارة المعاصرة في أنها أخضعت الإنسان للأشياء، فأشعرته بالدونية، وأذلته، وكان لابد من العقاب[(١)].




(١) أحب أن أنبه القارئ - هنا - إلى أن رواية (جيوروجيو) هذه تحمل في طياتها كثيراً من العطف على اليهود، لأن أحداثها تدور في الفترة التي يقال: إن النازيين قد أذاقوا اليهود خلالها القتل والتنكيل والاضطهاد، وعطف الكاتب هذا على اليهود - رغم كونه مفكراً مسيحياً وخريج معاهد لاهوتية عليا - يبدو سافراً أحياناً وخفياً أحياناً أخرى بدعوى الدفاع عن «الإنسان» والتنديد بالإرهاب والظلم (انظر ص ٥١١ - ٥١٢ على سبيل المثال)، ولا مجال هنا لمناقشة هذه الدعوى، فلهذا الموضوع مكان آخر، ولكن يجب الإشارة إلى نقطتين:

أولاهما: أن اليهود لم يكونوا ليلاقوا هذا الاحتقار الجماعي من الأمم والشعوب لو لم يبدؤوا هم دائماً بالعدوان بشتى أشكاله: الاجتماعي، المالي، الأخلاقي، السياسي والعسكري، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكانت النتيجة ما أعلنه القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وثانيهما: أن الحكمة - كما يقول الرسول عليه السلام - «ضالة المؤمن أنى وجدتها التقطها»، ومن هنا فإن أي مجهود بشري يحوي الحكمة في ثناياه يتوجب على المسلمين أن يبحثوا فيه، حتى ولو كانت وسط ركام من الإسرائيليات.



الفصل السابع

الطريق

الطريق

عندما يقرأ أحدنا قصة (الشيخ والبحر) لأرنست همنغواي، لابد وأن يلح عليه هذا السؤال: كيف تنال هذه القصة جائزة (نوبل) وهي إنما تدور على محور واحد هو الحوار الشخصي الفرد، أي حديث البطل مع نفسه؟! لكن القارئ سرعان ما يدرك أن هذا الحوار أو (المنولوج الداخلي) إنما هو تجسيد فني لتجربة الازدواج بين الفرد والمجتمع. فالإنسان الذي لا يستطيع أن يقول للآخرين كل ما عنده، يضطر أخيراً إلى أن يحاور نفسه، وأن يقول لها ـ بحرية ـ كل ما يريد أن يقول. فهو عندما يتجول عبر الشوارع والطرقات ويجوب الصحارى والبحار، ويجلس منفرداً إلى نفسه، يتحدث إليها بمجموعة كبيرة من الخواطر والأفكار. وهي تارة تأتي هادئة رقيقة، فيشعر بالطمأنينة والسعادة والنشوة، وتارة أخرى صاخبة متمزقة عنيفة فيشعر بالقلق والتشتت والتحطم والانهيار..

ربما كان هذا (الازدواج) هو الأساس العميق لتجربة الضياع. فالإنسان لا يحس بضياعه إلا عندما يتمزق، أي ينقسم على نفسه أشتاتاً ومزقاً مبعثرة كل واحدة منها تمر بتجربة شعورية مخالفة أساساً للمزقة الأخرى. والصدمة الاجتماعية، التي نحن بصددها، هي إحدى هذه التجارب.. الصدمة التي تجابه المفكر أو الفنان فيعود مهزوماً إلى نفسه، ويحدثها بما يشاء..

في قصة (الشيخ والبحر) تظهر هذه الصدمة وكأن مصدرها الطبيعة العابثة، ولكننا حين نتذكر أن بطلها هو (همنغواي) الأمريكي نفسه، ندرك مدى أثر العامل الاجتماعي في بناء أثره الفني الرائع هذا. إنها قصة صياد من كوبا، صياد فقير، يلتمس الرزق في عرض البحر، ولكن الحظ يخونه طوال خمسة وثمانين يوماً، حتى إذا وقع على سمكة ضخمة راح يداورها

ويحاورها، مصارعاً البحر والوحدة، والجوع والظمأ، والتعب والأنواء.. وما أن يقترب من الساحل ليلقي عصا الترحال ويجني ثمار كده حتى تهاجمه أقراش البحر.. وبعد صراع مرير معها، تفرّ هاربة بعد أن تكون قد انتزعت من صيده الثمين كل ما فيه من لحم، ولم تبقِ له سوى الهيكل العظمي الذي يتأرجح على سطح البحر.. وانظروا.. «في ذلك الأصيل وفدت على (السطيحة) طائفة من السياح. وفيما كانت إحدى السيدات تتأمل الشاطئ الحافل بصفائح الجعة الفارغة والأسماك الميتة، رأت عموداً فقرياً ضخماً طويلاً أبيض ينتهي بذنب هائل يرتفع ويتمايل مع المد، بينما كانت الريح الشرقية تثير البحر عند مدخل المرفأ.

والتفتت السيدة إلى أحد الندل وسألته مشيرة إلى عمود السمكة الفقري العظيم؛ الذي انتهى إلى أن يصبح الآن مجرد نفاية تنتظر أن يحملها المد إلى عرض البحر:

- *ما هذا؟*

فقال النادل، وهو يحاول أن يشرح بلغته الكوبانية ما حدث:

- *تيبورون، قرش.*

وحسبته يعني أن العمود الفقري الطويل كان لأحد الأقراش فقالت:

- *ما كنت أعرف أن للأقراش مثل هذه الأذناب الجميلة الرائعة الشكل!*

وقال زميلها الذي يرافقها:

- *وأنا كذلك ما كنت أعرف!!*»[1].

---

(١) ترجمة منير البعلبكي: الطبعة الثانية، ص ١٣١ (كنوز القصص الإنساني العالمي).

في مجتمع كهذا لا يمكن إلا أن يبطل الحوار بين الشيخ الفقير والسائحة المترفة، لا يمكن إلا أن يفقد الكلام قدرته على الوصال بين الناس.. وفي مجتمع كهذا يضطر الإنسان، الذي لن تستطيع الحروف والكلمات أن تنقل وجدانه وتجربته الذاتية والخارجية على السواء للآخرين، يضطر إلى أن ينكفئ على ذاته، وينعزل، إذ لا جدوى في عالم يسوده سوء التفاهم من التحدث إلى الآخرين.. «وهناك، في الكوخ، القائم في أعلى الطريق، كان الشيخ قد استسلم للرقاد، كرة أخرى، مكباً بوجهه على الصحف القديمة ـ شأنه في المرة الأولى ـ وقد قعد الغلام قربه وأنشأ يرنو إليه، كان الشيخ يحلم بالأسود»[١].

۞ ۞ ۞

اللا اكتراث.. ذلك هو أصدق تعبير عن الموقف القاسي الذي يجابهه الإنسان (الفرد) في (المجتمع) الغربي.. لا أحد يهتم به.. لا أحد يحاوره.. لا أحد يعينه على التعبير عن ذاته.. إنه ضائع وسط المجموع الأصم، الذي حدثنا عنه (جيوروجيو)، والذي يلف في أعماقه ملايين الأفراد الذين لا يعرف بعضهم بعضاً، ولا يحدث بعضهم بعضاً، ولا يمد بعضهم يده لانتشال بعضهم الآخر؛ وهو ينكفئ على وجهه وتدوسه الأقدام المتراكضة صوب مزيد من الاقتناء والإنتاج والتكاثر، «لقد تذكرت ـ يقول أنيس منصور الناقد المصري الوجودي في رحلته إلى أمريكة ـ ما كتبه الفيلسوف الوجودي كامي عن بطن حوت مخيف اسمه الناس.. فالإنسان يعيش من أجل الناس، ويعيش بالناس، ويموت بالناس أيضاً.. فهو يعيش في بطن الموت، ويحرص على أن ينجو من الموت.. وأنا ضحية، أما القاتل، أما الموت فهو هذه الشوارع الطويلة جداً.. الواسعة جداً.. التي تنطلق عليها صواريخ

---

(١) المرجع السابق: نفس الصفحة.

أرضية.. لا أحد يتوقف.. لا أحد يمشي على قدميه.. لا أحد ينظر إليك، أو تستطيع أنت أن تنظر إليه.. فلست أعجوبة.. ولست جديداً في ملامحك فهنا مثلك مئتا مليون نسمة»[١] مئتا مليون نسمة يركضون جميعاً في الشوارع الطويلة الواسعة حيث لا أحد يتوقف لحظة ليسمع الآخر أو ينظر في ملامحه.. إنهم جميعاً يركضون بحركة جماعية عجيبة، حيث تضيع الملامح الفردية وتفنى سمات الباطن، ويموت الطموح الروحي.

إن (أنيس منصور)، الصحفي المصري، يحدثنا عن الصدمة التي جابهته بها نيويورك لدى دخوله إياها وتجوله في شوارعها.. نيويورك التي تمثل التجريد المخيف للمدينة الغربية المعاصرة، وللضياع الذي يعانيه الإنسان وسط المجموع الهائل الذي يركض في الشوارع التي تحيط بها ناطحات السحاب وتحجب عنها نور الشمس وصفاء السماء.. إنه يحدثنا بأسلوب يشبه إلى حد ما الأسلوب الذي حدثنا به كل الشهود الذين التقينا بهم.. ويعطينا مزيداً من الإيضاحات عما أراده (همنغواي) في خاتمة (الشيخ والبحر)؛ حيث ينسحب (الشيخ) من (العالم) الذي لا يكترث بمأساته، ولا بطموحه الذي قاده عبر البحر أياماً طوالاً.. ينسحب، غريباً يائساً مكدوداً، إلى عالمه الباطني ثانية مسلماً وجوده بالكلية للأحلام!!

و(أنيس منصور) ليس غربياً مصاباً بالتخمة الشيئية التي يعانيها الغربيون، كي نقول: إن شهادته جاءت رد فعل لتخمته هذه.. لرؤياه التي يسودها الألم والانفعال.. وهو ليس (مسلماً) كذلك بالمعنى الكامل لكلمة مسلم، كي نقول: إنه يصدر في موقفه الغاضب هذا عن تعصب مذهبي وانغلاق ديني.. لكنه ـ أغلب الظن ـ (وجودي) يصدر في مواقفه وتعبيره الذاتي عن (الحرية) التي حدثنا عنها (سارتر) حيث الرؤية المباشرة للأشياء دونما قيد من قيم فوقية أو التزامات مسبقة..

---

(١) رحلة حول العالم: ص ٦٥٦.

ها هي الطائرة التي تقله تحوم في أجواء نيويورك، ويطل من النافذة فيجابهه منظر (السهام المرفوعة) و(الصواريخ) المنصوبة إلى أعلى من ناطحات السحاب «شيء يخيفك، ولكنك إذا أحسست أنك لا تستطيع أن تحبه فأنا أهنئك لأن هذا إحساس صادق». تستقر الطائرة في أرض المطار «أكبر مطارات الدنيا وأكثرها ازدحاماً ونظاماً».. ويغادر شاهدنا المطار صوب المدينة.. ولنستمع إليه وهو يصف إحساسه القاسي، إحساس إنسان جاء من الشرق ليشاهد عن كثب أم الدنيا وأعجوبة العالم الثامنة:

«إنها تتحداك.. إنها تحتقرك.. إنها لا تدري بك.. لا هي ولا سكانها ولا أحد فيها يدري بأحد.. ومن الممكن أن تضيع فيها بسهولة ولا يهتدي إليك أحد.. ولا تهتدي أنت إلى أحد.. شوارع نيويورك متشابهة.. وكلها متقاطعة، ولها أرقام، والمشي فيها ليس متعة، وركوب السيارة ليس متعة، ولا توجد بها أية متعة على الإطلاق.. ولو وقعت فلن تمتد إليك يد واحدة.. إنهم في نيويورك مشغولون بشيء أهم منك، ولا يمكن أن تكون أنت، أياً كنت، أهم من الفلوس، والنظر إليك وسؤالك عن صحتك وعن الذي أصابك تضييع للوقت الذي هو من ذهب.. وكل يوم أجد طعم نيويورك مراً على شفتي.. والشيء الممنوع الذي أحسست به هو إنسانيتي.. أي مجرد أنني إنسان.. لا يمكن أن تحس بأنك إنسان.. وإنما تحس هنا بأنك إنسان في طريقه إلى النهاية.. بأنك مهدد في إنسانيتك.. بأن واحداً من هؤلاء الملايين قد اقترب منك ونشل منك إنسانيتك.. هذا القرف يجعلني أكره نيويورك وأحتقر جوَّها وأهلها، مع أنني لا أعرف واحداً منهم، وإنما جوها هو الذي جعلني أكثر قرفاً وسخطاً.. كلها تصدك.. كلها تردك.. جدرانها حديد.. وشوارعها حديد صلب.. باردة جامدة.. إنها تنحيك عنها.. إنها لا تريدك أن تلمسها..

وأحسست بما أحس به بطل مسرحية (القرد الكثيف الشعر) للكاتب

الأمريكي أونيل. إن بطل هذه المسرحية نزل ميناء نيويورك.. كل شيء فيها لا يعبأ به، كل شيء لا يريده، كل شيء ليس في حاجة إليه، كل شيء يبصقه كأنه نواة.. كأنه ذبابة، مع أنه شيء.. مع أنه هو الذي صنع نيويورك، فهو الذي يعمل في السفن، وهو الذي يضع الفحم في الفرن. الفرن يطلق البخار، والبخار يدفع السفن بكل ما حملته.. فهو أسود كالشحم، وهو لزج كالزيت، وهو حديد كالآلات، وهو صانع الآلات والتروس، وهو الذي يعيش ويموت منبوذاً كأنه زنجي (وهذا يذكرنا بمصير الشيخ في قصة همنغواي).. كان بطل هذه المسرحية يدق الجدران بيديه، يدقها بنظراته أيضاً، وتبقى نيويورك كما هي، نوع من اللا مبالاة الشاهقة، نوع من عدم الاكتراث الذي ينطح السحاب..»[١].

وماذا عن الناس في نيويورك، أولئك الذين يركبون المترو السريع بضوضائه الصاخبة، فينزلون في صمت ويصعدون في صمت وعلى وجوههم كآبة قاتمة أو نائحة، ماذا عن الناس؟ «إنهم لا يختلفون عن أهل أي بلد في الدنيا، في ليلة رأس السنة، إلا في أنهم يفتعلون الإنسانية ويفتعلون الطفولة، في حين أنهم في أي بلد آخر ـ حتى في أمريكة ـ أناس عاديون بلا افتعال، وبلا محاولة كاذبة لأن يتذكروا أنهم كانوا بشراً في قرن من القرون.. إن الأمريكان في الحقيقة عندهم كل شيء يتمناه الإنسان إلا شيئاً واحداً: الإحساس بالحياة»[٢].

ونمضي مع (أنيس منصور) وهو يحدثنا عن حياة الناس في أمريكة.. عن نواديهم الليلية وأوقات فراغهم وأمانيهم.. عن تخمتهم المادية وخوائهم الروحي ويأسهم ومللهم وبحثهم عن الجريمة والشذوذ.. عن تسلط حفنة من اليهود وأصحاب رأس المال على وجدانهم ونشاطهم ومقدراتهم ومصائرهم..

---

(١) المرجع السابق: مقتطفات من الصفحات، ٧٣١ ـ ٧٣٥.

(٢) المرجع السابق: مقتطفات من الصفحات، ٧٣٦ ـ ٧٣٧، ٧٤١.

«في النوادي يعيش طول الليل الجيل الجديد الذي يسمونه في أمريكة الجيل الصارخ أو الجيل الصاخب.. وهم في الواقع وجوديون ولكن بلا فلسفة ولا ثقافة ولا مشكلة ولا أزمة.. فالجيل الجديد في أمريكة جيل لا يقرأ.. ومعظم هؤلاء الساخطين شبان دون العشرين.. يشربون الشاي والسجائر ساعات متوالية، ويستمعون إلى موسيقا زنجية عاوية داوية وبعد ذلك يخرجون..

ويبدو أن الحياة مملة في أمريكة؛ ولذلك فالأمريكان يحرصون على التغيير ويكرهون الشيء الواحد المتكرر في حياتهم أو في حياة غيرهم من الناس.. ولأن كل شيء هنا واسع وطويل وعريض ومنير وواضح، فالموضة هي أن الإنسان يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة! ولأن كل شيء في الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسسة أو لنقابة، ولأن الفرد لا وجود له باعتباره عضواً في هيئة، فإن الشبان هنا يهربون من النظام ومن القيود ومن التقاليد إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجة ولا طوابير.. ولأن كل عمل يقوم به الشباب في هذا المجتمع يقتضي منه الانتباه والوعي وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة.. ولأن الحياة هنا ليست سهلة ولا هينة كما تتصور، ولأن كل شيء هنا في أمريكة بالفلوس، كل شيء، وفي استطاعتك أن تتخيل أي شيء: أي مبدأ، أي دين، أي فلسفة، أي عمل تجاري، أي عمل أخلاقي، كل شيء في أمريكة تجارة في تجارة. فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالساً في استسلام لا يفكر ولا يقول شيئاً، وإنما يركن عقله، ويجلس في استسلام وسلبية تامة.. كأنه رحالة ضل الطريق في الصحراء وفي انتظار من ينقذه..

وكل يوم أقرأ في الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان في المدن الأمريكية الكبرى، جرائم السطو والاعتداء.. وكل يوم نسمع علماء النفس والتربية يصرخون بأعلى أصواتهم: إن الجيل الجديد في خطر، وإنه

لابد من تغيير أساليب التدريس.. التدريس؟ إنما هي الحياة المنزلية المعدومة.. الحياة الاجتماعية المفككة، المجتمع الصناعي التجاري الذي أصبح يعبد (الهيئة) و(المنظمة) و(النقابة)، والوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف وفي البيت والمكتب والمصنع والمعبد.

والناس في أمريكة يعبدون النظام لا للفائدة التي يحققها النظام، ولكن لمجرد طاعة النظام.. طاعة الهيئة والمؤسسة.. ولأن حياة الفرد في المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها وإنما معناها بالجملة مع الآخرين.. فإن ثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات، وتكون النتيجة دائماً أن يموت الفرد والفردية وتبقى الهيئة.

والمجرم الشاب الذي يقتل، إنه في الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته، فإنه بدلاً من أن يقتل كل المجتمع، قتل الحروف الأولى منه.. قتل أحد أفراده. والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان في أمريكة.. ضائعون تائهون لا يرتبطون بأي شيء.. إنهم يريدون أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع غيرهم.. ولكن أعصاب الناس في أمريكة منهارة.. فالتلفزيون والسينما تحطمها نهائياً لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد.

ويظل الشاب الأمريكي حائراً بين السينما والمصنع والأجزاخانة حتى يموت وهو يعمل، وفي النهاية تقبض زوجته على بوليصة التأمين على حياته وتنفقها على أولادها أو على زوجها الجديد.. إنه جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع، وهو جيل أعجز من أن يقوم بأي إصلاح.. إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذي يملكه التجار والسماسرة في كل أمريكة.. إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غداً.. وصوته أضعف من أن يسمعه أحد، ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمعون في الظلام ويضغط بعضهم على بعض،

ويحطم بعضهم البعض دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غداً!!»[١].

التعذيب!! تعذيب النفس وتعذيب الآخرين.. هو الجواب الشاذ للوضع الشاذ الذي أوجدته ضغوط الحضارة العلمانية المعاصرة في المدن الكبرى.. وعندما تجف ينابيع الحب واليقين والتعاطف مع الآخرين، وتحل محلها لفحات من نار البغض والشك والتباعد بين الإنسان والإنسان، آنذاك ليس أمام الإنسان سوى أن يلجأ إلى التعذيب؛ يصب عن طريقه نقمته على حياة لا تسعد الإنسان ولا تمنيه، ويغمض بواسطته عينيه عن مصير لم يرد هو أن يذهب إليه.

«الناس يدفعون الفلوس لكي يتعذبوا هم أنفسهم ويشربوا الخمر وهم يتعذبون.. إنهم يبحثون عن العذاب ويجدون لذة كبرى في أن يروا غيرهم يتعذب.. وعندما تلفت حولي وجدت وجوهاً غريبة، وجدت السعادة في وجوه الناس.. سعادة شاذة.. سعادة أناس يحسون بالكرابيج تنزل على ظهورهم ووجوههم.. وعيونهم تطلب المزيد من الضرب..»[٢].

ولن ينسى (أنيس منصور) وهو يتكلم عن الإنسان في أمريكة، كيف أنه استحال إلى آلة، أو شريط تسجيل، وأنه لا إنسان هناك! «وعندما خرجت وجدت نفس الرجل.. ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المريحة.. أو المطاعم التي يمكنني أن أتناول فيها غذائي في اليوم التالي. وقد زاد من قرفي حماسه الشديد. ولا أعرف بالضبط ما الذي أغاظني فيه.. ربما كانت (آليته)، أي تحوله إلى آلة.. إلى شريط مسجل.. إلى شيء ليس فيه إنسانية ولا كرامة»[٣].

---

(١) أنيس منصور: رحلة حول العالم، مقتطفات من الصفحات ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٨١، ٦٨٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٧١٧.
(٣) المرجع السابق: ص ٧٢١ ـ ٧٢٢.

إن مشكلة الضياع التي غناها فنانو القرن العشرين هي في الحقيقة مشكلة عدم التحقق بالوحدة بين (الأنا) و(المجتمع)، ولا أعتقد أن الطبيعة، أو أي عامل خارجي آخر، يفرض سلطته على الإنسان، ويصيبه بالازدواج كالتنظيم الاجتماعي. ومن البديهي أن (اللا منتمين) لا يهربون من الطبيعة، وإنما يهربون من تنظيماتهم الاجتماعية، وأن المذهب (الليبرالي) الذي اكتسب سماته في أوربة في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن العشرين، لم يأتِ بنتائج إيجابية لأنه كان يعبر عن موقف الإنسان السلبي تجاه التخطيط الاجتماعي. ولذا بقيت العلاقات الاجتماعية يسودها التصادم والانفعال وسوء التفاهم.. وكان نتيجة هذا كله أن كثر الهروب من المجتمع، وسار الهاربون (يجرون خطاهم) وراء بطلهم (اللامنتمي).

❁ ❁ ❁

في الشق الآخر من الأرض الغربية يقابلنا طراز ثان من التفكير، مناقض أساساً لبنية التفكير الليبرالي، ذلك هو الفكر الاشتراكي الماركسي الذي اتجه إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية، معتبراً إياها العامل الأول والأخير في حركة البشرية عبر تاريخها الطويل، ولما كان موقفه سلبياً تماماً تجاه الإنسان الفرد، فقد كانت النتيجة واحدة، هي التمزق والازدواج وبالتالي الضياع. وإذا كان المفكر أو الفنان في المعسكر الشيوعي لا يعرض للضياع ولا يكتب عن مأساته فإنما ذلك يعود إلى مدى سيطرة القهر الدكتاتوري على معطيات الإنسان هناك، وإجبارها على عدم التغني إلا بشيء واحد هو (عبقرية التنظيم الاجتماعي).

لكن بعض الكتاب الذين خاضوا التجربة الماركسية، ثم ارتدوا، بعد أن لمسوا عجزها عن تحقيق الوفاق بين الإنسان والمجتمع، تمكنوا، مفكرين وأدباء وفنانين، من **أن يعبروا في عدد من أعمالهم عن ازدواج الإنسان في**

العالم الشيوعي وضياعه. ولن يغيب عن البال هنا ما كتبه (بوريس باسترناك)، رئيس اتحاد الأدباء السوفييت، في روايته (الدكتور زيفاكو) في هذا المجال، الأمر الذي أحدث ردود فعل عميقة في كلا جانبي العالم الغربي: الشيوعي والليبرالي، انتهت بمنح المؤلف جائزة نوبل للآداب(١)!!.

ولا تقل رائعة آرثر كوستلر (ظلام في النهار) إيضاحاً للحقيقة التي نحن بصددها. وقد حصل كوستلر، هو الآخر، على جائزة، هي جائزة (أحسن وأعمق عشر روايات ظهرت في أوربة حتى الآن)!! قال عنها همنجواي: «ما هزني أثر فكري، أدبي كما هزتني رواية: ظلام في النهار». وقال عنها ألبير كامي: «إن مطالعتها ليست ضرورة لكل أديب ومثقف فحسب، بل هي واجب مقدس»!

إن (روبشوف) بطل (ظلام في النهار) يكشف لنا بشكل محزن مأساة (الإنسان) في المعسكرات الشيوعية.. إن (روبشوف) هذا ليس فرداً عادياً، ولا مواطناً من ملايين المواطنين الذين ينساقون وراء كل قوة صماء.. إنه ليس هملاً لا أهمية لحسه الذاتي، ومطامحه الخاصة، وإرادته المتفردة.. لكنه قائد من قادة الحركة الشيوعية في بداياتها الأولى، (حارس) من (حراسها القدامى)، وزعيم من أنشط زعمائها.. إلا أنه، ما دام قد انتهى به الأمر إلى أن يرتطم بجدارها الخشن، وأن يحس بالانسحاق والتمزق والعزلة إثر هذا الارتطام، وما دام قد رفع صوته مطالباً بفتح ثغرات عبر هذا الجدار الأصم، كي يلتقي الإنسان بالإنسان، ويتوحد باطن الإنسان وواقعه.. ما دام قد جرؤ على (الخروج) على إيقاعات القطيع في مسيرته القاسية الرتيبة.. فقد كان لابد له من أن يعاقب عقاباً قاسياً، وأن ينتهي به الأمر إلى أن يضرب بالرصاص من الخلف، بعد أيام طويلة مرة من التحقيق

---

(١) انظر بالتفصيل: روبرت كونكويست (شجاعة العبقري)، جون سترايتشي: (الصرخة المختنقة)، جورج مورفات: (الأديب والدولة).

الذي لا يرحم، والتعذيب الذي لا يعرف إنسانية، والسهر الذي تمنى (روبشوف)، خلال جحيمه القاتل، أن يسرعوا بإعدامه كي يحظى بساعات من النوم الذي لا سهر فيه ولا تحقيق ولا تعذيب!!

(الشيخ) بطل قصة همنجواي، و(روبشوف) بطل قصة كوستلر، هذا في عالم ليبرالي وذاك في عالم ماركسي، كلاهما يعبران عن تجربة واحدة في مداها العميق؛ هي تجربة الازدواج التي يعانيها الإنسان فتمزقه وتضيّعه، سواء في أوربة الغربية وأمريكة حيث حرية الفرد، أم في أوربة الشرقية حيث حرية الحزب الحاكم ولا أقول (المجتمع)!!

ليس ثمة توازن إذاً بين الفرد والمجتمع، ويعود هذا التأرجح إلى عدم وجود تخطيط شامل يعنى بالفرد من حيث هو، كما يعنى بالمجتمع من حيث طبيعة العلاقات التي تسوده، ويرسم بالتالي، الطريق المنسجم الذي يعبره الإنسان الفرد في وفاق مع المجتمع.

❁ ❁ ❁

هنا بالذات، ووسط هذا الظلام الفكري الدامس، يبرز شامخاً إعجاز الفكرة الإسلامية، فهي وحدها التي تشير إلى تخطيط شامل للفرد والمجتمع على السواء، بحيث يغدو الإنسان خلاله متوازناً مع ذاته ومع مجتمعه، فيتحقق بالوحدة، ويبتعد عن مزالق الانحراف الذي يصيبه بالازدواج فالضياع. وهنا بالذات تبرز خطورة الفكرة الداعية إلى الفصل بين قيم الوجود الإنساني، من حيث هي قيم فردية أو جماعية، ومن ثم تجيء النتيجة المؤلمة، حيث تعتبر فكرة الفصل هذه، أي العلمانية، أساساً واضحاً للازدواج الإنساني بين قيم (الأنا) وقيم (هم)، بين قطاعين من الوجود الإنساني الممزق!!

في رواية الكاتب المجري المسلم ليوبولد فايس: محمد أسد (الطريق إلى مكة) نلتقي بالصورة الفنية الشاملة المعبرة عن مأساة الإنسان وخلاصه في الوقت ذاته.. لوحة أجاد الفنان توزيع مساحاتها، وحبك تكوينها، وأبدع في تنغيم أضوائها وظلالها، وأخرجها للناس رائعة تحكي لنا قصة إنسان عاش تجربة (الغرب) بكل أبعادها، ثم غادره بحثاً عن (النظام) الذي يحقق من خلاله انسجامه الضائع مع نفسه، ومع العالم من حوله، ومع الكون الذي كتب عليه أن يعانق مصيره فيه.. وتقص علينا مرارة النتائج النفسية التي يعانيها الإنسان في المجتمعات المادية العلمانية، سواء حكم الفرد في مصيره أم حكم الحزب.. وكيف أن الإسلام، بتجربته المتوازنة الأصيلة، هو وحده الذي يحفظ للإنسان وحدة ذاته، ويسير به نحو حياة سعيدة فعالة، يسودها التوحد والانسجام، وتتجه خيوطها جميعاً، باتّساق معجز، صوب المصير الذي أتيح للإنسان أن يسهم بصنعه بيديه.. ومن خلال صفحات الرواية هذه نلمح قلق الإنسان الغربي وعدم ثقته بقيمه، وتنقله الدائم بين أشكال شتى من النظم لا يقر لها قرار.. يقابل ذلك اعتزاز عميق للإنسان المسلم بقيمه ونظمه جميعاً.

واسمعوه يقول، معبراً عن تجربة جيل كامل: «إن حيرتي.. لم تكن من صنع يدي، ذلك أنها كانت خبرة جيل بأسره. لقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي. لقد أصبحت جميع القيم الأخلاقية والروحية التي ألفتها أوربة عدة قرون غير ذات شكل مقرر محدود، وذلك بفضل الفظائع التي كانت قد حدثت ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨م، ولم يكن يبدو أن مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها.

لقد كان في الجو شعور من الهشاشة والخطر، إحساس مسبق بالجيشان الاجتماعي والعقلي جعل المرء يشك فيما إذا كان من الممكن أن يكون هناك، مرة أخرى، أيّما استقرار في أفكار الإنسان ومساعيه. كان كل شيء

يبدو وكأنه يسيل في فيضان غير منتظم، ولم تستطع الحيرة الروحية لدى الشباب أن تجد لنفسها موطئ قدم. وبسبب فقدان المقاييس الأخلاقية الموثوق بها، لم يستطع أحد أن يقدم إلينا، نحن الشباب، أجوبة مرضية عن كثير من الأسئلة التي كانت تحيرنا. كان العلم يقول: (المعرفة هي كل شيء)، ونسي أن المعرفة دونما هدف أخلاقي لا يمكن أن تؤدي إلّا إلى الفوضى والغموض.

إن المصلحين الاجتماعيين، والثوريين، والشيوعيين.. لم يكونوا يفكرون إلا بمقتضى ظروف خارجية، اجتماعية، واقتصادية.. وفي إبان العملية العامة لانحلال المقاييس الأخلاقية الثابتة بعد الحرب العظمى زال كثير من الحواجز بين الجنسين. إن ما حدث لم يكن، في اعتقادي، ثورة على المحافظة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، بقدر ما كانت ارتداداً سلبياً من واقع كانت بعض المقاييس الأخلاقية المعينة تعتبر فيه أبدية، غير قابلة للشك، إلى حالة اجتماعية كان كل شيء فيها مدعاة للشك: انتقال رقاص الساعة من اعتقاد الأمس المريح باستمرار تقدم الإنسان ورقيه، إلى الصحو المرير الذي دعا إليه أشبنجلر، إلى النسبية الأخلاقية لنيتشه، فإلى العدمية الروحية التي غذّاها واحتضنها التحليليون النفسيون.. إن تلك العلاقات الجنسية كانت عموماً علاقات عابرة، وكان يشوبها نوع من اللا مبالاة الواقعية كان يؤدي في معظم الأحيان إلى العبث..»[1].

ولقد ظل المثقف الغربي، طيلة تلك المرحلة الخطيرة، يطرح على نفسه وعلى من حوله أسئلة حاسمة عن وجوده ومصيره دون أن يحظى بأي جواب!! «كيف يمكن أن يصاغ المجتمع بحيث يستطيع الناس أن يعيشوا بصلاح وبحبوحة؟ كيف يجب أن تسوى علاقاتهم بحيث يستطيعون أن يخترقوا العزلة التي كانت تحيط بكل إنسان، وأن يحيوا حياة مشتركة

(١) محمد أسد: الطريق إلى مكة، الطبعة الأولى، ص ٨٥ ـ ٨٨، ترجمة عفيف البعلبكي.

صحيحة؟ ما هو الخير وما هو الباطل؟ ما هو القضاء والقدر؟ أو بكلمة أخرى: ماذا يجب على المرء أن يفعل كي يصبح حقيقة، لا من حيث المظاهر فحسب، متماثلاً مع حياته نفسها، بحيث يمكنه القول: (أنا ومصيري وحدة لا تتجزأ)؟..

لقد كانت سنوات غريبة تلك التي ألفت العقد الثالث من هذا القرن.. لقد ساد جو عام من الخطر الاجتماعي والأدبي، وأدى إلى نشوء أمل يائس عبر عن نفسه بتجارب جريئة في الموسيقا والتصوير والمسرح، وبالأسئلة والتحقيقات الثورية عن طبيعة الثقافة وتكوينها. ولكن فراغاً روحياً كان يصاحب هذا التفاؤل القسري: نسبية غامضة تهكمية نشأت من اليأس المتعاظم من مستقبل الإنسان. وبالرغم من حداثتي فإنه لم يبق خافياً علي أن الوضع بعد كارثة الحرب العالمية لم يعد صحيحاً في العالم الأوربي المتفكك المتململ، المتوتر العواطف والأحاسيس.. وكانت الخيبة الروحية متجلية في الفقدان الشامل للاتفاق على معنى الخير والشر، وفي إخضاع الأحداث الاجتماعية والاقتصادية جميعاً إلى قاعدة (المصلحة).. لقد أدى ذلك بالضرورة إلى انقسام المجتمع الغربي إلى فئات متخاصمة مسلحة حتى أسنانها، مصممة على أن يسحق بعضها بعضاً متى تضاربت مصالحها وأهواؤها.

كذلك رأيت مبلغ اضطراب حياتنا وشقائها، وقلة الحياة المشتركة بين الإنسان والإنسان بالرغم من هذا الإلحاح الضار، الذي كاد يتميز بالهستيرية على (المجتمع) و(الأمة)، ومبلغ خروجنا على غرائزه السليمة، ومبلغ الضيق والعفن اللذين أصابا أرواحنا.

لقد رأيت كل هذا، بيد أنه لم يخطر لي مطلقاً ـ كما لم يبد مطلقاً أنه خطر لأي من الناس حوالي ـ أنه يمكن الحصول على جواب. أو على

أجوبة جزئية على الأقل، عن هذه الأمور المحيرة من غير تجارب أوربة الثقافية نفسها. لقد كانت أوربة بداءة تفكيرنا ونهايته أيضاً»[١].

❀ ❀ ❀

وكان لابد وأن ينعكس هذا الاضطراب الاجتماعي العام، والضياع الفكري، والعزلة الرهيبة بين الإنسان والإنسان.. كان لابد أن تنعكس هذه كلها على سلوك (الغربي) اليومي، وتوحده الذاتي، وأمنه، ومصيره «لقد بدا الناس في عيني بشعين جداً، وحركاتهم حادة خرقاء دونما أية صلة مباشرة بما كانوا يريدون ويشعرون حقاً.. وفجأة عرفت، بالرغم من ظهورهم بمظهر الذي يعرف هدفه في كل ما كانوا يصدرون عنه، أنهم كانوا يعيشون دون أن يدركوا ذلك، في عالم من الادعاء والتظاهر..»[٢].

«..واستغرقت في التفكير، حقاً إن الإنسان الغربي قد أسلم نفسه لعبادة الدجال. لقد فقد منذ وقت طويل براءته، وفقد كل تماسك داخلي مع الطبيعة. لقد أصبحت الحياة في نظره لغزاً. إنه مرتاب شكوك؛ ولذلك فهو منفصل عن أخيه منفرد بنفسه. ولكي لا يهلك في وحدته هذه، فإن عليه أن يسيطر على الحياة بالوسائل الخارجية، وحقيقة كونه في قيد الحياة لم تعد وحدها قادرة على أن تشعره بالأمن الداخلي: ولذا فإن عليه أن يكافح دائماً، ويألم، في سبيل هذا الأمن من لحظة إلى أخرى. وبسبب من أنه فقد كل توجيه ديني وقرر الاستغناء عنه، فإن عليه أن يخترع لنفسه باستمرار حلفاء ميكانيكيين: ومن هنا هذا الاندفاع الثائر اليائس في تقنيته. إنه يخترع كل يوم آلات جديدة ويعطي كلاً منها بعض روحه كيما تنافح في سبيل وجوده. وهي إنما تفعل ذلك حقاً، ولكنها في الوقت نفسه تخلق له كل يوم

(١) المرجع السابق: ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) المرجع السابق: ص ١٧٤.

حاجات جديدة، وأخطاراً جديدة، ومخاوف جديدة، وظمأ لا يروى إلى حلفاء جدد آخرين أكثر اصطناعية، وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الخالقة التي تزداد مع الأيام قوة وجرأة وغرابة، وتفقد الآلة غرضها الأصلي ـ أن تصون وتغني الحياة الإنسانية ـ وتتطور إلى إله قائم بذاته، إلى صنم مفترس من فولاذ. .

إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجمالية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية. لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة، دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً، يخضع نفسه للعقل. . لقد رفعت المدنية الغربية (منظمة) التقنية إلى فن سام، ومع ذلك فإن الأمم الغربية تدلل كل يوم على عجزها المطلق عن السيطرة على القوى التي أوجدها علماؤها الرياضيون، فالأمم الغربية قد وصلت الآن إلى درجة أصبحت معها الإمكانات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العلمية. وإذ كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق، فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبياً من ضياء المعرفة الذي تسكبه علومه ـ وهي لاشك عظيمة ـ فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[1].

ومن قال: إن انتصار الإنسان على الطبيعة، وتمكنه من عالمه الخارجي، يتيح له انتصاراً حقيقياً على آلامه التي لا حصر لها، ومتاعبه النفسية التي تتفجر دوماً من قرارة ذاته كما تتفجر المياه المرة من الآبار العميقة دون أن تكف عن التفجر يوماً. .؟ من قال: إن إحاطة الإنسان نفسه بمظاهر النعمة والثراء، والتشبث بالمآكل الجيدة، والمساكن الجميلة،

---

(١) المرجع السابق: ص ٣١٠ ـ ٣١١.

والملابس الأنيقة، يعطيه فرصة التحكم بعالمه الباطني، فيسكت جوعاته الغامضة العجيبة إذا جاع، ويسكن جيشانه المرير إذا جاش، ويتيح له التوحد والسكينة إذا اضطرب؟!

إذاً فانظروا «إن معظم الناس كانوا الآن يلبسون جيداً ويأكلون جيداً، ومن هنا لم يكن ذلك الرجل قبالتي خلاف غيره من الناس، إلا أنني عندما نظرت إلى وجهه خيل إلي أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقاً، لا قلقاً فحسب، بل شقياً بصورة حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان ألماً، ألماً غير جسماني. وإذ لم أرد أن أكون وقحاً، فقد أشحت بوجهي عنه فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظرف. لقد كان وجهها هي أيضاً يعبر تعبيراً غريباً عن عدم سعادتها، كأنما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم.. عندئذ أخذت أجيل بصري في جميع الوجوه الأخرى ـ وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الحسنة ويقتاتون بالغذاء الجيد ـ وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيراً عن الألم الخبيء، الخبيء إلى درجة أن صاحبه بدا وكأنه لا يشعر به. والحق أن هذا كان غريباً. فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه التعسة من حولي، أو لعلي لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك الجهارة؟

كانت الانطباعة قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذت هي أيضاً تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية. ثم استدارت إلي دهشة وقالت: (أنت على حق.. إنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم.. وإنني لأتساءل: هل يعرفون هم أنفسهم ماذا يعتمل في نفوسهم؟). لقد عرفت أنهم لم يكونوا يعلمون.. وإلا لما كان باستطاعتهم أن يستمروا في إضاعة حياتهم وتبديدها كما كانوا يفعلون، دون أيما إيمان بالحقائق الرابطة، دون أيما هدف أبعد من الرغبة في رفع

(مستوى معيشتهم)، دون أيما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية والمزيد من الممتلكات. . »[١].

❀ ❀ ❀

وكان لابد (للمؤلف) أن يرحل إلى مكان آخر بحثاً عن الخلاص. . مكان غير الأرض الأوربية الضيقة التي أكلها التطاحن والصراع، واستغرقتها المادية الصماء، واستعبدتها الآلية التي لا تعرف رحمة ولا حناناً. . مكان بعيد، خارج حدود القارة الضيقة، المزدحمة، المتنافسة، المتحاقدة، التي أكلت البغضاء قلوب أبنائها، وجففت الشحناء منابع عطفهم وحبهم. . مكان يفصله البحر عن الأرض التي لم تعرف في داخلها، منذ عهد (سوفوكليس) وحتى عهد (كافكا)، غير التمزق واليأس والانفصام. . بعيداً. . بعيداً. . بحثاً عن الإنسان المتوحد. . المطمئن. . المشدود الصلات بأعماق الأرض ومشارف السماء. . الإنسان الذي علمته الأديان كيف يتواءم ـ روحاً وجسداً وعقلاً وعاطفة ومشاعر وأعصاباً ووجداناً ـ مع نفسه، ومع إخوته من بني آدم، ومع العالم الذي يضطرب فيه، والكون الذي استخلفه الله عليه وقال له: اصنع مصيرك العظيم يا أكرم خلقي!!

ولقد استطاع (الباحث) فعلاً أن يقف أخيراً، وجهاً لوجه، أمام إدراك لمعنى الحياة، رؤية جديدة لموقف الإنسان في الكون، إحساس بالوجود والعالم تختلف كلية عن أحاسيس أوربة وإدراكها ورؤاها:

«لقد بدا لي أن هناك نسمة دافئة إنسانية تسيل من دم هؤلاء العرب (المسلمين) إلى أفكارهم وحركاتهم، خالية من أي من تلك الصدوع الروحية المؤلمة، تلك الأشباح من الخوف والنهم والكبت التي كانت تجعل

(١) المرجع السابق: ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

الحياة الأوربية بشعة جداً ولا توحي إلا بالقليل من الأمل. لقد بدأت أجد في العرب شيئاً طالما فتشت عنه من غير شعور: رشاقة عاطفية في معالجة مسائل الحياة جميعاً، وذوق شعوري أعلى. ومع الزمن أصبح أهم شيء بالنسبة إلي، أن أفهم روح أولئك المسلمين: لا لأن دينهم كان قد استمالني (ذلك أنني لم أكن أعرف عنه في ذلك الحين إلا القليل القليل)، بل لأنني وجدت فيهم الالتئام العضوي بين العقل والأحاسيس، ذلك الالتئام الذي كنا نحن الأوربيين، قد فقدناه، أفلا نستطيع، عن طريق تفهم حياة العرب تفهماً أفضل، أن نكتشف الصلة الخفية بين ما يكابده الغرب من انعدام الوحدة الذاتية، وبين جذور هذه المكابدة وأسبابها؟ أن نجد ذلك الشيء الذي جعلنا نحن الغربيين نهرب من حرية الحياة المقدسة التي يبدو أن العرب يملكونها، حتى في انحطاطهم وانحلالهم الاجتماعي والسياسي، والتي لابد أننا كنا نملكها نحن أيضاً في الأزمنة السابقة؟ وإلا فكيف تسنى لنا أن ننتج فننا الماضي العظيم: الكاتدرئيات القوطية في القرون الوسطى، الجذل المفرط في عصر النهضة، الجلاء والعتمة لرامبرانت، وأحلام موزار الهادئة، وقصف بيتهوفن؟ والارتقاء التواق إلى القمم الغامضة التي لا تدركها المشاعر والعقول، والتي عليها يمكن للإنسان أن يقول: (أنا ومصيري شيء واحد)؟.. إننا لن نتمكن من أن ننجب بعد الآن مثل بيتهوفن ورامبرانت.. إن جميع آلاتنا وناطحات سحابنا لم تعد تستطيع شيئاً لإعادة وحدة روحنا المحطمة»[١].

وهناك، في القاهرة، وعلى مقربة من بيت الصحفي الألماني (ليوبولد فايس) كان يقوم مسجد صغير ذو مئذنة دقيقة، منها كان يدعى إلى الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد.. (الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله..) «كان صوته ناعماً وقوياً، قادراً على أن يصل إلى

(١) المرجع السابق: ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

مسامع الكثيرين ممن كانوا على مبعدة كبيرة، وكان باستطاعتك أن تدرك أن الغيرة والحماسة، لا الفن، هما اللتان كانتا تجعلانه على مثل ذلك القدر من الجمال. لقد كانت ترتيلة المؤذن هذه اللحن الدائم الذي كنت أسمعه في الأيام والأمسيات التي قضيتها في القاهرة، تماماً كما كان لحن القدس القديمة الدائم، وكما كان مقدراً له أن يبقى طيلة أسفاري في الأراضي الإسلامية فيما بعد. لقد كان له الجرس نفسه في كل مكان، برغم الفروق في اللهجة والتجويد اللذين يمكن أن يتضحا للمرء في كلام الناس اليومي: وحدة صوتية جعلتني أدرك في تلك الأيام في القاهرة مقدار الوحدة الباطنية لدى جميع المسلمين.. لقد كانوا واحداً في اعتقادهم، وواحداً في طريقة تفكيرهم وتمييزهم بين الحق والباطل، وواحداً في فهمهم قوام الحياة الخيرة. ولقد خيل إلي أنني قد صادفت، لأول مرة، مجتمعاً لم تكن فيه صلة النسب بين الإنسان والإنسان مسببة عن طوارئ من مصالح اقتصادية وعنصرية، بل عن شيء أعمق وأكثر استقراراً إلى حد بعيد: صلة من الفهم المشترك للحياة أزالت كل حواجز العزلة والانفراد بين الإنسان والإنسان»[(١)].

«وفي يوم من أيام الجمعة ذهبت مع صديقي إلى الجامع الأموي. كانت الأعمدة الرخامية الكثيرة التي تحمل السقف المقبب تلمع تحت أشعة الشمس التي كانت تتساقط من النوافذ ذوات الأعتاب الحجرية. كانت رائحة المسك منتشرة في هواء الجامع، وكانت أرضه مغطاة بقطع من السجاد الأزرق والأحمر، وفي صفوف طويلة مستقيمة كان يقف مئات كثيرة من الرجال وراء الإمام الذي كان يؤم الصلاة. كانوا يركعون ويسجدون فيلمسون الأرض بجباههم ثم ينهضون ثانية، في وحدة منظمة، كالجنود سواء بسواء. كان كل شيء هادئاً جداً، وبينما كان الحشد وقوفاً، كان باستطاعة المرء أن يسمع صوت الإمام الشيخ من الأعماق البعيدة في القاعة

(١) المرجع السابق: ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

الكبيرة، يتلو آيات من القرآن، حتى إذا ما ركع أو سجد تبعه الجمع كلهم كشخص واحد، يركعون ويسجدون لله كأنما هو ماثل أمام أعينهم..».

«في تلك اللحظة أدركت مبلغ قرب هؤلاء القوم من ربهم ومن دينهم. إن صلاتهم لم تكن تبدو منفصلة عن يوم عملهم، مستقلة عنه، بل كانت قسماً منه، لم يقصد بها أن تساعدهم على نسيان الحياة، بل على ذكرها عن طريق ذكر الله. وقلت لصاحبي إذ كنا نغادر المسجد: (ما أغرب وأدهش أن تشعروا أن الله قريب منكم إلى هذا الحد! آه لو أستطيع أن أشعر نفسي هذا الشعور!) فأجابني: (وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، يا أخي؟ أليس الله، كما يقول كتابنا الطاهر: ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾)؟»[1].

❁ ❁ ❁

لم يبق إلا أن تضع خطاك يا (ليوبولد فايس) على الجسر وتعبره إلى الجانب الآخر.. ألم تكن طوال حياتك المتوترة، القلقة، الطموحة، تبحث عن الطريق؟ فها هو ذا (الطريق) يناديك.. ضع خطواتك الأولى على الجسر.. وستجد نفسك أخيراً، متوحداً، سعيداً، منسجماً، أمام الله ورسوله وكتابه المعجز العظيم.. واحداً من الأمة الواحدة، يخفق قلبك مع خفقان قلبها، وتهتز روحك نشوة مع روحها الفياضة عند كل نداء مع آناء الليل وأطراف النهار، يشهد أن الله واحد، وأن رسوله محمداً لم يأت إلا بالفلاح الواحد، وأن ما دون ذلك هو التشتت والتبعثر والضياع.. ما دون ذلك الظلمات التي بعث الله رسوله ليخرج الناس جميعاً منها إلى الضوء والنور..

لم يبق أمامك يا (ليوبولد فايس) سوى أن تعبر الجسر وترتاح!! «لقد عرفت الآن أنني كنت منساقاً إلى الإسلام، ولكن تردداً أخيراً جعلني أؤجل

---

(١) المرجع السابق: ص ١٦٩.

خطوتي النهائية القطعية. لقد كانت فكرة اعتناق الإسلام شبيهة بالمغامرة في اقتحام جسر كان يصل بين هوة بين عالمين مختلفين: جسر طويل جداً بحيث يكون على المرء أن يصل إلى نقطة لا عودة منها قبل أن يرى طرفه الآخر. وكنت أدرك جيداً أنني لو أصبحت مسلماً إذاً لكان يتعين علي أن أقطع كل صلة لي بالعالم الذي نشأت فيه. لم يكن هناك من نتيجة أخرى، ذلك أن المرء لا يستطيع أن يلبي نداء محمد وأن يبقى محتفظاً بالروابط الداخلية لمجتمع تحكمه مفاهيم مناقضة على خط مستقيم..»[١].

ـ *ولكن.. يا ليوبولد فايس، هل ثمة طريق آخر، غير أن تعبر الجسر؟*

ـ كلا *«لم يكن لي أي طريق آخر، فبالرغم من أنني لم أكن قد عرفت مكة لسنوات عديدة فإنها كانت دائماً هدفي وغايتي. لقد نادتني قبل أن أعي نداءها بوقت طويل، بصوت قوي: (إن ملكي هنا في هذه الدنيا كما هو في الآخرة. إن ملكي يحيط بجسم الإنسان كما تحيط روحه وتمتد إلى كل ما يفكر ويشعر به وما يفعله، إلى تجارته وصلاته، إلى غرفة نومه وسياسته، إن ملكي لا نهاية له ولا حدود).. وعندما تبين لي ذلك خلال عدد من السنين، عرفت أن أخوة الإسلام تنتظرني منذ أن ولدت، فاعتنقت الإسلام. لقد تحققت أخيراً رغبتي أيام صباي: أن أنتمي إلى مدار معين من الفكرات والآراء، أن أكون جزءاً من أمة مؤلفة من أخوة»*[٢].

❀ ❀ ❀

(١) المرجع السابق: ص ٣٢٦.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٧٢.

وها هو الآن.. محمد أسد.. يقف عند سهل عرفات الممتد عند أطراف مكة، مع ملايين المسلمين.. ملايين ليسوا من مكان واحد ولا من زمان واحد.. إنها اللحظة التي تعانق فيها، بفرح وغبطة لا حدود لها، كل المسلمين الذين شدوا الرحال إلى مكة.. منذ أن دخلها الرسول الكريم وصحابته تحت رايات النصر الخفاقة، وإلى هذه اللحظة، حيث يقف محمد أسد بين إخوانه من شتى الأماكن والأزمان.. إنساناً عانق مصيره المكتوب بعد رحلة اغتراب طويلة في ساحات الفكر والعقيدة والتاريخ.. مسلم من ملايين المسلمين جاء ليلبي النداء الذي أطلقه، منذ فجر التاريخ، إبراهيم أبو الأنبياء.. ولكي يكثف كل تجاربه الطويلة الحارة، وكل لوعته العميقة المتفجرة، وكل حبه وشوقه وحنانه، يكثفها بنداء واحد، ينبثق في لحظة واحدة، عن قلب الملايين الواحد، متوجهاً، بتفرد يهز الوجدان، إلى الله الواحد: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك!!

«إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون، كل تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمئة عام. إني أسمع أصوات أيامهم، وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معاً إلى هذه الأرض من الصخور والرمال، فينبض الموت الظاهر مرة أخرى، بدفء الحياة فوق قوس القرون، ويجذبني صفيق الجناح القوي إلى مداره، ويجذب ما تقضى من أيامي إلى الحاضر.. ونتابع ركوبنا، هاجمين طائرين فوق السهل، ويخيل إلي أننا طائرون مع الريح، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدوداً.. وتزعق الريح في أذني بنشيد النصر: (إنك لن تكون غريباً بعد الآن، أبداً، أبداً!)..

إن العالم أمامنا لفسيح، وفي قلوبنا تتألق شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب صحابة النبي. إنهم يعرفون، إخواني عن يميني وإخواني عن يساري، أنهم قد قصروا عما كان ينتظر منهم، وأن قلوبهم قد تضاءلت عبر

القرون، ومع ذلك فإن وعد الله الحق لم ينتزع منهم.. منا.. لقد سما هؤلاء الرجال فوق حيواتهم الصغيرة، وها أن إيمانهم يدفعهم الآن دفعاً إلى الأمام، كأنهم بنيان واحد نحو آفاق غير محدودة.. والحنين لم يعد بحاجة إلى أن يبقى تافهاً مكتوماً فلقد وجد يقظته، وجد وعد الله الحق متمماً. في هذا الإتمام يخطو الإنسان خطوات واسعة بكل ما وهبه الله من بهاء وسناء: خطوه بهجة، ومعرفته حرية، وعالمه دائرة دونما حدود.. وأستدير في شدادي فأرى خلفي الألوف من الفرسان بثيابهم البيضاء، ووراءهم الجسر الذي جئت عليه: لقد خلفت الآن آخره ورائي، في حين ضاع أوله في ضباب المسافات والأبعاد..»[1].




(١) المرجع السابق: ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.

فهرس الموضوعات

